

شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الرباط - المغرب

المصالح المرسلة في المذهب المالكي وبقية المذاهب الأخرى

خزانة بني عبد الجبار بفجيج: دار العدة

ناظر الوقف

• دعوة الحق • شعبان 1405 • مايو 1985 • العدد : 248 •

• الثمن 4,00 درهم •

الاصالة واحياء التراث

إعـــــلان

في إطار العمل الإسلامي الذي تضطلع به وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، لخدمة التراث الإسلامي عموما، وما يتصل منه بالتراث المالكي على الخصوص والهادف إلى إخراج نفائسه ونشرها على أوسع نطاق.

يسعدها أن تعلن عن اعتزامها تحقيق وإخراج الكتابين التاليين :

- تهذيب المسالك إلى نصرة مذهب الإمام مالك :ليوسف الفندلاوي.
- الدر المنظم في الاحتفال بمولد الرسول المعظم :للعزفي.

لذا، فعلى السادة العلماء والأساتذة والباحثين وكل من له رغبة في تحقيق أي من الكتابين المشار إليهما أن يتقدم بطلب في الموضوع إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (قسم الدراسات الإسلامية أو مصلحة إحياء التراث الإسلامي) مع إثبات اسمه الكامل وعنوانه ورقم الهاتف إن أمكن.



شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط . المملكة المغربية



أسسها :
جلالة المغفور له
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957م

التحرير :
الهاتف : 601.85

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

*

الاشتراكات : في المملكة المغربية : 70 درهماً
في العالم : 80 درهماً

الحساب البريدي : رقم 55-485 . الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

فهرس العدد 248

افتتاحية

الاصالــة واحيــاء التــراث

□ فرضت التحولات الحضارية العميقة لعالمنا المعاصر، مع ايقاعها السريع الذي لم يتناسب مع مستوى النمو الاقتصادي والاجتماعي والفكري في بعض بلدان العالم، فرضت هذه التحولات على الفكر المعاصر، ضرورة حيوية ومن الاهمية بمكان بالنسبة للتوازن الحضاري بصفة اساسية .

هذه الضرورة تتمثل، من الوجهة الفكرية والثقافية البحتة، اعادة النظر في المفهومات المتوارثة من اجل تحليلها وتوظيفها في سبيل نمو الفرد والمجتمع والامة .

وذلك أنه، طالما ان هذه المفهومات والتصورات التي اصبحت تشكل - في تاريخ الامم والشعوب - رصيدا غنيا بالقيم الايجابية والافكار البناءة والمؤثرات الفعالة، بات لها تأثير واسع وايجابي في حاضر الامة، فانه من المفروض والحتمي كذلك، اعطاؤها الدور الذي تسهم عن طريقه في تحقيق ارتقاء الامم ارتقاء يتلاءم مع السنن التي عرفتها وعهدتها هذه الامم وضمائر اجيالها .

ومع نمو التغيرات الحضارية، ولا سيما على صعيد التقدم التكنولوجي الذي كون ولا يزال يكون بالفعل صدمة حضارية ذات ابعاد تكاد تكون مجهولة، برزت الحاجة الى استلهام الماضي، والاستمداد من قيمه وتراثه، والاقتداء بما تبلور فيه من انجازات انسانية حية، اسهمت في تطور الحضارة ودفع عجلتها الى الامام .

ومن ثم ظهر مصطلح الاصالة واحياء التراث، لا للتدليل فقط على ما للامة من أمجاد ومفاخر في التاريخ، بل وكذلك لشحن وجدانها المعاصر بدفقة حية من الشعور المرهف والصادق بامكانية تحقيق طفرة حضارية، تنتقل بها الامة من مستوى حضاري معين الى

مستوى اخر اكثر تناسبا وتلاؤما مع متغيرات العصر، وأكثر استجابة لمطالبه ومتطلباته، على جميع المستويات .

ووفقا لهذا المنظور، فالاصالة لا تعني اطلاقا الجمود او التحجر عند قيم حضارية سالفة، وهي لا تعني كذلك اعطاء هذه القيم ما يجعلها قيما جامدة وميتة وغير ذات اثر في توجيه وترشيد مسيرة الامة، والاصالة أخيرا، لا تعني بتاتا تقدير الماضي لمجرد أنه ماض فقط، اي لمجرد انه مرحلة تاريخية انعكست فيها ايجابية الامة فترة ثم انطفأت هذه الايجابية بانقضاء هذه المرحلة من التاريخ .

بل الاصالة تعني قبل كل شيء، استقامة واستواء شخصية الامة على ركائز ومقومات دينية وروحية وفكرية وأخلاقية ثابتة، امتزجت بالحياة اليومية وتكيفت مع تحدياتها وتفاعلت مع مؤثراتها ومستجداتها، فتولدت عن هذا التفاعل والتمازج قيم حضارية هي الاكثر تعبيرا عن حياة الامة وتاريخها وشخصيتها ومزاجها الحضاري وضميرها الديني الذي تكون بواسطة كتاب الله وسنة رسوله المصطفى محمد صلوات الله وسلامه عليه، ثم تزكى هذا الضمير عن طريق الافكار والاجتهادات الخلاقة التي أنتجتها الاجيال، وفي صدارتها السلف الصالح الذي لم يضن بأي جهد او طاقة ابتغاء مرضاة الله، ونشدانا لسعادة الامة وتقدمها ونموها الحضاري المتجدد .

وهكذا فرض هذا المفهوم للاصالة، حتمية اخرى تتمثل في احياء التراث من جميع جوانبه : دراسة وتحليلا وتقييما، وطبعا ونشرا وتوزيعا ..

وارتبط احياء التراث بالاصالة امر لم يأت اعتباطا، فالامة الاصيلة التي يرتكز وجودها ويقوم كيانها على أساس متين تشكله مختلف الانجازات الفكرية والثقافية والعمرانية، ويتبلور في عطاء الامة واشعاعها الاسلامي والثقافي وتأثيرها العميق في شعوب مجاورة لها او في شعوب قاصية عنها ..

هذا الارتباط بين الاصالة واحياء التراث، هو في جوهر الامر وحقيقته، تعبير عن احساس عميق، بأن التقدم والتطور - على اي مستوى - لا يتمان بمجرد الاخذ من الاخرين أخذا جزافيا بدون شروط وضوابط وقواعد تحكم مسيرة التفاعل الحضاري في عالم متغير وفاقد لكثير من توازناته كعالمنا المعاصر ..

والنهج الذي اختاره المغرب بقيادة جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، سواء تعلق الامر بالحفاظ على الاصالة ومقوماتها، او تعلق الامر باحياء التراث وبعث معلماته المتنوعة، وسواء تعلق الامر، بمواكبة التطور التكنولوجي والعمل على الاستفادة منه وتوظيف امكاناته ووسائله في عملية التنمية الحضارية ..

ان النهج الذي اختارته بلادنا، في هذا الخصوص، يشكل في الواقع استيعابا لشتى الايجابيات التي تنطوي عليها عملية المحافظة على الاصالة واحياء التراث، والتي تكمن في عملية التحديث التكنولوجي كذلك .

وانطلاقا من هذا النهج الموضوعي والمتوازن، لا يفتأ جلالة الملك الحسن الثاني يؤكد - في شتى المناسبات - على ضرورة المحافظة على الاصالة المغربية بجميع خصائصها ومميزاتها وخصوصياتها الذاتية والموضوعية، ذلك لان هذه الاصالة، هي في النهاية، نتاج تفاعل حضاري هائل، واسهام تاريخي رائع، وانجاز ثقافي واسع، قام به المغرب عبر التاريخ لا في نطاقه الجغرافي وحده، بل وكذلك على امتداد انتماءاته، خاصة في افريقيا وجنوب غرب اوروبا، وفي الحوض المتوسطي وبصفة عامة في العالم العربي والاسلامي .

وكما تتمثل الاصالة المغربية العريقة في شتى مظاهر الحياة اليومية للامة واحادها، وفي سائر الوسائل التي يتم بها العيش والتعايش في هذه الحياة، فان التراث المغربي يتمثل بدوره فيما خلفه الاسلاف الاعلام النابهون في ميادين الفكر، والثقافة،

والعلوم، وفي مختلف المعارف التي اسهم بها علماء المغرب في الماضي في تقدم الحضارة الاسلامية، اسهاما لا تزال مآثره ومناقبه دالة الى اليوم على عظمة المغرب وعلى عبقرية شعبه وأصالة تفكيره وتوقد ذهن أبنائه، في مختلف المجالات والميادين، وفي سائر حقول الابداع الذهني المبتكر .

وكما تبدو الحاجة ماسة، لاكثر من سبب وباعث، الى ضرورة المحافظة على الاصالة وحماية مقوماتها، وعدم تعريض قيمها الايجابية للتحلل والميوعة والضياع، اعتبارا لكون الامة التي بلا أصالة هي أمة مهمشة وبدون تاريخ ولا جذور لها في الارض، كذلك تبدو نفس الحاجة ماسة الى احياء التراث، التراث المغربي الزاخر والحافل بشتى ما في وجدان وضمير الامة من تقاليد وأخلاق وعوارف ومآثر أسداها أبناء الامة عبر العصور من أجل أن تتجدد الحياة، وتتطور مستوياتها، وتتقدم مجالاتها المختلفة وفي ذلك كله، ما فيه من الخير العميم والمنفعة الدائمة للمغرب والمغاربة الذين يدركون اليوم، أن التراث الاصيل الذي خلفه اجدادهم، لا يكون في نظرهم مجرد رصيد مادي يقفون عنده دون أن يستثمروه استثمارا جيدا، وانما يكون كذلك ارثا حضاريا ثمينا، يجب التمسك به والحفاظ عليه، كما يجب في نفس الوقت توظيفه بطريقة جيدة من ناحية، واثراؤه بالمزيد من الاضافات الايجابية والجيدة من ناحية اخرى .

ان القيمة العميقة والدائمة للتراث، حين يتم احياؤه بكيفية مجزية ومفيدة هي في كونه حافزا روحيا يحرك الهمم، ويؤثر في النفوس، ويغنى الافكار ويلقح القرائح ويدفع أولى الالباب الى مضاعفة المساهمة في اغناء رصيد الامة وتراثها الحضاري والتاريخي في الدين والفكر والثقافة والعلوم والمعارف المتصلة اتصالا وثيقا بتزكية وجدان الفرد، وتنمية مواهبه، والارتقاء بمداركه ..

وإذا أجلنا الطرف فيما تقوم به بعض الدول الاسلامية من اسهامات في احياء التراث وفيما تبذله من جهود مخلصة في هذا القصد، وجدنا المغرب ولله الحمد، في طليعة الدول الحريصة على احياء تراثها وعلى جعله مادة خصبة لاثراء المسيرة الحضارية لامتنا العربية والاسلامية، وذلك ايمانا من المغرب بأن الاصالة هي المحك الذي يعرف به معدن الشعوب وتعرف به أرومتها الحقيقية .

وادراكا من المغرب، بان احياء التراث، ليس عملية يهدف منها الى اضفاء الجدة على شيء قديم، وانما هو عملية أعمق مضمونا وأرحب أفقا وأوسع وأغنى محتوى من ذلك ..

فان احياء التراث المغربي، الذي لا يزال بعضه مكدسا ومطمورا في رفوف الخزانات العامة والخاصة، والذي لا يزال يعلوه الغبار في الكثير من جوانبه .

ان احياء هذا التراث عمل يندرج في صميم المجهودات التي يقوم بها المغرب استكمالا لشروط نهضته الحضارية ورقيه في المدنية الحقة .

وفي نطاق هذا الاحياء، تتضافر الجهود التي تقوم بها الدولة مع الجهود والمبادرات الفردية التي ترمي الى نفس القصد .

ويمكن القول، ان ما تم انجازه وتحقيقه في هذا المجال، يعد باعثا على الاطمئنان والفخر، وداعيا - في نفس الوقت الى المزيد من بذل الجهد والطاقة ومضاعفتها لعين الهدف، رغم ضعف الامكانيات وقلة الوسائل والنقص في الاطر المتخصصة في احياء التراث، تحقيقا وتقييما ودراسة، وهو أمر لا يشكو منه المغرب وحده، بل توشك جميع الدول الاسلامية تشكو منه وتسعى - كما يسعى المغرب - الى سد هذه الثغرة من اجل تنشيط عملية احياء التراث بكيفية مسترسلة ومستمرة وعلى الوجه المرغوب فيه .

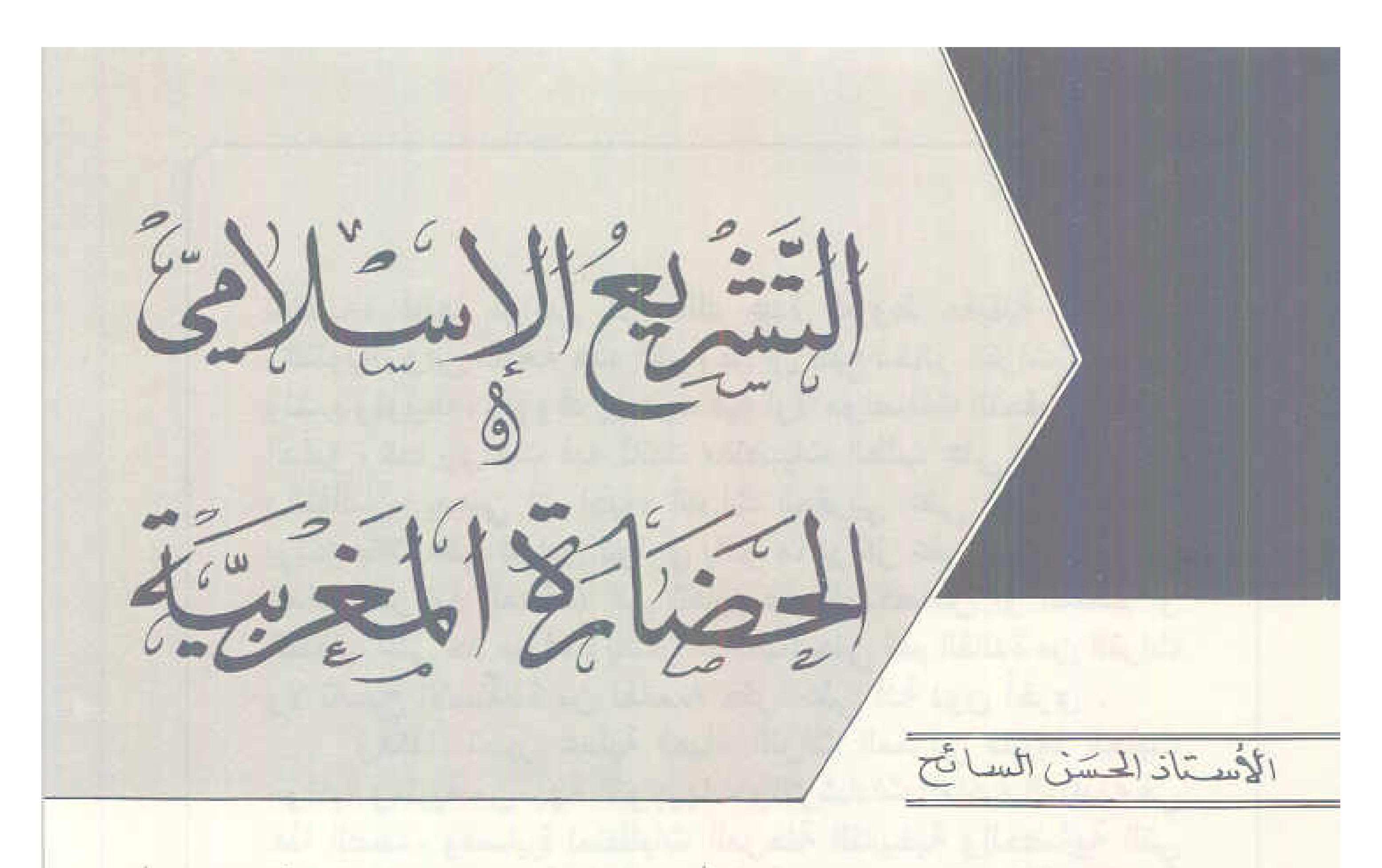
على انه مما يحمد لاسهام بلادنا في هذا الحقل، هو أنها حين تقوم باحياء التراث وبعث ذخائره ونفض الغبار والنسيان عن

نفائسه، فانها تراعي في ذلك عدة شروط حقيقية بالاعتبار والتنويه، وفي مقدمة هذه الشروط، أن طبع ذخائر التراث المغربي ونشره وتوزيعه، يتم وقد روعيت فيه أولا مواصفات التحقيق العلمي الدقيق، كما روعيت فيه ثانيا، مقتضيات الطلب على هذه الذخائر والنفائس، بمعنى ان احياء التراث المغربي على هذا الوجه، لا يرتكز بتاتا على اساس تجاري بقدر ما يرتكز على أساس توصيل المادة التراثية المحققة الى القارىء - المتخصص أو المتعلم أو المثقف على حد سواء - بسعر مناسب، حتى تعم الفائدة من التراث ولا تصبح الاستفادة من نفائسه حكرا على فئة دون أخرى .

وهكذا، تسير عملية احياء التراث المغربي سيرها الحثيث مواكبة وملبية من جهة التوجيهات والارشادات الملكية السامية في هذا الصدد، ومسايرة لمتطلبات المرحلة التاريخية والحضارية التي تعرفها بلادنا من جهة ثانية، ومتمشية مع دواعي الاصالة المغربية وضرورة الحفاظ على مقوماتها وخصائصها الذاتية التي طبعت وتطبع دائما الشخصية المغربية بالعراقة والرسوخ وبالقدرة على النفاذ وعلى التأثير في مجالات بشرية واوساط فكرية غير محدودة، كما هو مشاهد ذلك في تجارب التاريخ واحداثه .

وبتلاحم عملية المحافظة على الاصالة بعملية احياء التراث وتقريبه الى الخاص والعام، تكون عملية النهضة الحضارية للمغرب بقيادة جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، مستوفية ومستكملة لشروطها الذاتية والموضوعية، لاسيما اذا أضفنا الى هاتين العمليتين، ما يقوم به المغرب ويبذله من جهود متوالية لتطوير الحياة اليومية للمواطن والمجتمع والامة عن طريق الوسائل والادوات والامكانات التكنولوجية المتقدمة .





ما قبل الإسلام في المغرب :

إذا كانت البيئة الجغرافية القديمة حرمت المغربي من الوحدة السياسية (نظرا لاغرائها الأجانب المهاجرين لخيرات أرضه وحدود سواحله، وقربه من بلاد أوروبا التي كلما ضاقت بسكانها أو شحت خبراتها هاجمت البلاد المغربية) فإن هذه البيئة لم تحرم المغاربة هيامهم بالحرية حتى أن سكانها البرابر يسمون (بالأمازيغ) وهي كلمة عربية الأصل من (الزيغة) و(الزيغ) أي المبالغة في الحرية، تلك الحرية التي لها لأنها ليست حرية عقلية حسب رأي المثاليين، ولا حسية حسب رأي الواقعين ولا كما يرى الماركسيون وإنما هي حرية تلقائية فطرية تصهر الإرادة والحمل الواقعي ولا تحددها إلا القوة الإلاهية، والعرف هي حرية ميثافيزيقية تنشأ معها الفكرة وداخل الفكر الإنساني فتخلق التوثر، ويتحرك الإنسان بقوة ليواجه سلطات خارجية عنها غريبة عنها أي غير القوة المواجهة لها ولذلك لا يسلمن لها إلا إذا عرف أنها قوة لصالحه وتتمثل في العرف الذي يجب احترامه وأوامر (الدين)، وحرية المغربي شعوره بالذاتية، وحاجته إلى فعل شيء أو عدم فعله، أي الانطلاق أو الوقوف، ففي تلك اللحظة التي يمارس فيها اختيارا سريعا أمام محكمة العقل الذكي اليقظ يمارس حرية فطرية ليست ملتزمة أو غير ملتزمة كما عند الوجوديين والديكارتزم، وإنما هي حرية فطرية تختار الطريق لتحرر نفسها، وليدخل الإنسان إلى مرحلة العمل، وهذه الحرية هي مدرسة فكرية وجدانية يقيس بها الإنسان الحقائق، ثم يحققها بعد الاختيار والاختيار، وهي مدرسة تكوين الشخصية، لأن الإنسان ينطلق للعمل واثقا بنفسه.!

إن الحرية هي الحركة الفكرية والوجدانية المستمرة، وهي الطاقة التي تحرك الإنسان والتاريخ وهي طبيعية في الإنسان، ولكن المجتمع يقيدها بتشريعاته وقد يبطلها، والمغربي يوازي تلقائيا بين حريته الذاتية، وحرية مجتمعه الفطرية أيضا، مما يجعل حريته تحد بالدين والعرف والعادة أكثر من أية سلطة أخرى.

التشريع والمجتمع المغربي الأول :

عرف المغرب سكانا من أجناس شمالية وجنوبية،

وإنسان الرباط يرجع لعهد (Neanterthal) ثم جاء البربر من اليمن عبر مصر... وتكونت لهم لغة ليبية من أصل (سامي) متأثر (الحامية) وعرفت القبائل تنظيمات قبائلية بسيطة تناسب الروح البدائية القبلية الهادفة إلى الاخصاب والإنتاج لنمو القبلية فكان المجتمع رعويا بسيطا، ثم أصبح مجتمعا زراعيا، ومن المؤكد أن هناك تأثيرا مصريا... وأن التاريخ يقرر وجود مملكة مصرية ليبية بالمغرب حوالي 3300 ق.م. حيث صد رمسيس هجماتهم.

على أننا نجهل الكثير عن التنظيمات القبائلية القديمة، ومن المحقق أنها عاشت مشاكل واضطرابات نشأت عن عدم وحدتها، ثم عرفت (بصورة أولية) الاحلاف القبائلية ولم تخرج القبائل عن هذا النظام إلى وحدة البلاد رغم محاولة الاقليد (مسنسا) و(يوغورطا) فيما بعد، وبقي الشعب المغربي الشعب البطل... (كما يقول كوتيه).

لقد تأثر المغاربة القدماء بالتشريعات الفنيقية الشرقية، وبقي التأثر الفنيقي على المغرب زهاء ألف سنة :

ومن دون شك فقد تأثروا المغاربة بالعادات اليونانية والميتيولوجية اليونانية كذلك عن طريق الفنيقيين... وشهد بذلك التأثر الصناعي والمعماري وكان دستور قرطاجة متأثرا بدستور (سبرطا) كما ذكر أرسطو ولما كانت السلطة بيد (خمسة أعضاء) أي سلطة خماسية وأن الجماعات أو الجمعيات المسماة (Hetairies) وهي كالنقابات المهنية وهي أصل كلمة (حنطة) ووردت قبل الفنيقيين قبائل كنعانية يهودية بعد انتصارات مصر، ويعرفون في تاريخ المغرب (Plcchtime) من كلمة فلسطين، وبدون شك فقد أدخلوا بعض تشريعاتهم، سيما بعد أن تهودت بعض القبائل وأصل التشريعات المغربية كما هو شأن كل التشريعات يرجع إلى البيئة الاجتماعية وكما يقول (روسو) إن النظام الاجتماعي هو الأساس لتحديد الحريات والحقوق، إذا أخذنا القوة والسلطة كمصدر لذلك، فإن أقوى الأقوياء لن يكون سيدا إلا إذا ترجم قوته إلى حق وإلى خضوع للاخرين في بعض الحالات، ولكن قوة السلطة المادية ليست أخلاقية، والخضوع للقوة اضرار، وليس فعل إرادة، فكيف يمكن أن يصبح الخضوع واجبا، إن القوة لا تخلق الشرعية، والناس ليسوا ملزمين بالطاعة إلا للقوة الشرعية، وحيث أنه لا يوجد إنسان له حق طبيعي في أن يسيطر على غيره، فلابد أن نستنتج أن السلطة الشرعية لا يمكن أن تنطبق إلا عن نوع من التعاقد، أي عن عقد اجتماعي بين البشر، لقد ولد الإنسان حرا لكنه مقيدا بالاغلال، وقد يظن أنه سيد الآخرين ولكنه في الواقع أكثر عبودية منهم، ولذلك فلابد من تقنين الحرية في المجتمع وبغض النظر عن أصل التشريع حسب هذه الفلسفة، فإن التشريع المغربي في القبائل القديمة كانت تسهر عليه (الجماعة) التي تحكم مختلف الوحدات القبلية وتسمى أيضا (بازرف) وهو ليس نظاما ديموقراطيا بل هو حكم القبلية بمجلس الأعيان Oligarchie ويسمى أيضا (إخاطر، وإخاطرن) أي اتحاد ذوي الحيثيات وأصحاب النفوذ والتجربة، وتنظر الجماعة في قضايا الدوار وشؤونه، وتشرف على إجراء العقود والسلف والبيوع، وعقود الزواج وتتولى (القضاء) أو تعيين الحاكم... وهي التي تعين (الإيمازيان) وهو ضامن واحد في كل ناحية، ويكون عادة من التجار أو من أغنى العائلات ويظهر (الامغار) عادة في وقت الحروب فيعين مساعديه من أقربائه ويقرر العقوبات وينتخب بطريق (Tuya) (امغارن ـ توبا).

الحالة المدنية :

إن النسب للأب لا للأم وتلعب القرابة من جهة الأم دورا كبيرا في المجتمع ويعقد الزواج بالمهر ويدفع نقدا ويسكن الرجل مع زوجته كما يوجد زواج بدون مهر، ويجوز تعدد الزوجات إشاعة النساء مع طقوس خاصة لضمان خصوبة الأرض والبشر والحبوب، والزواج محل اتفاق بين الأسرة بالمهر.

القضاء عند العرب قبل الإسلام :

كان قضاة القبائل في الجاهلية عقلاء القوم وعليتهم، وقد اشتهر من هؤلاء قبل الإسلام جماعة كبيرة، يحكم كل

منهم في قبيلة كتيم حاجب بن زرارة والاقرع بن حابس، ومن ثقيف غيلان بن مسلمة، ومن قريش هاشم بن عبد مناف، وعبد المطلب بن هاشم وأبو طالب عم النبي ﷺ، والعاص بن وائل، واكثم بن صيفي وعامر بن الظرب، وكان العرب يتقاضون إلى الكهان، والعارفين فلما جاء الإسلام تولى الرسول ﷺ بنفسه الفصل في الخصومات فكان قاضيا ولم يكن للمسلمين في عهده قاض سواه، ولم يؤثر عنه أنه عين في بلد من البلاد رجلا اختص بالقضاء بين المسلمين، بل كان يعهد بذلك إلى بعض الولاة ضمن توليهم أمور الولاية.

وتارة كان يعهد إلى بعض أصحابه لفض الخصومات، وكان الرسول ﷺ يحكم بين الناس بما ينزل عليه من الوحي، ويحضر المتخاصمان إليه مختارين فيسمع كلام كل منهما، وكانت طرق الإثبات عنده البينة واليمين، يقول : البينة على من ادعى واليمين على من انكر، كما كان يقول : أمرت أن أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر، وقد صح أنه قال (فإذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقض حتى تسمع كلام الآخر كما سمعت كلام الأول).

وكان الفصل في الخصومات بين الناس في صدر الإسلام يقوم أساسا على أحكام القرآن الكريم يقول الله تعالى : **﴿فأحكم بينهم بما أنزل الله﴾** ويقول : **﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾**.

ولما ولي أبو بكر رضي الله عنه الخلافة سار سيرة النبي واهتدى بهديه، يروى الثقات أن أبا بكر كان إذا ورد عليه الخصوم نظر في كتاب الله، فإن وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به.

وإن لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله ﷺ سنة قضى بها، فإذا أعياه خرج سأل المسلمين، وقال : أتاني كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله قضى في ذلك بقضاء ؟ فربما اجتمع عليه النفر كلهم يذكر فيه عن رسول الله ﷺ قضاء : فيقول : أبو بكر رضي الله عنه : الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ عن نبينا : فإن أعياه أن يجد في سنة عن رسول الله ﷺ جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم فإن اجتمع رأيهم على أمر قضى به، وذلك هو منشأالاجماع.

وقد أسند أبو بكر القضاء إلى عمر فظل عامين لا يأتيه متخاصمان لما عرف عنه من الشدة والحزم، على أن عمر لم يلقب بلقب قاض في خلافة أبي بكر.

ولما ولي عمر بن الخطاب الخلافة وأتسع نطاق الدولة، وتشبعت النواحي السياسية فيها واختلط العرب بغيرهم من أبناء البلاد المفتوحة، ورأى عمر رضي الله عنه أنه لا يستطيع التفرغ للفصل في الخصومات وكل هذه المهمة إلى أشخاص يتفرغون لها سموا قضاة، فكان عمر أول من عين القضاة في الولايات الإسلامية فولى أبا الدرداء قضاء المدينة وولي شريح بن الحارث الكندي قضاءالكوفة، وولي أبا موسى الأشعري قضاء البصرة، وولي قضاء مصر عثمان بن قيس بن أبي العاص، هذا وقد سن عمر لهؤلاء القضاة دستورا يسيرون على هديه في الأحكام فكتب إلى أبي موسى الأشعري وغيره من القضاة.

«فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة، فأفهم إذا أدلى إليه، فإنه لا ينفع تكلم بحق لإنفاذ له بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك، البينة على من أدعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجع اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فأن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة.

ثم أعرف الأمثال والأشياء، وقس الأمور بنظائرها وأجعل المدعي حقا غائبا أو بينة أمدا ينتهي إليه، فإن أحضر بينته أخذ بحقه، وإلا وجهت القضاء عليه، فإن ذلك أجلي للعمى وأبلغ للعذر، المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودا أو مجربا في شهادة زور أو ظنينا في ولاء أو

قرابة، فإن الله سبحانه تولى منكم السرائر، ودرأ عنكم بالبينات وإياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر، ويحسن به الذكر، فإنه من يصلح نيته فيما بينه وبين الله ولو على نفسه، يكفه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بما يعلم الله منه غير ذلك شأنه الله والسلام».

فمن هذا الكتاب يؤخذ :

1 ـ إن القضاء فرض على المسلمين أن يقوموا به.

2 ـ ولابد وأن يكون القاضي من أهل الفهم والذكاء متصفا بالحزم في أموره والعزم على تنفيذ ما راه.

3 ـ إن يكون عادلا حتى ينتصف للمظلوم من الظالم مهما قويت شوكته وعظمت شكيمته وحتى لا ييأس الضعيف من التكلم بمظلمته.

4 ـ وأما قوله : البينة على من ادعى واليمين على من انكر : فهو حديث عن رسول الله ﷺ يعتبر دعامة للقضاء إلى يومنا هذا.

5 ـ ومثل ذلك قوله : والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا، فإنه حديث مشهور.

6 ـ وأما قوله : ثم أعرف الأشباه والأمثال... الخ فذلك أصل القياس المعروف.

التشريع الإسلامي في المغرب :

اتصل المغاربة بالتشريع الإسلامي في عهد عمر بن عبد العزيز يوم أرسل إلى المغرب بعض المتفقهين في الإسلام لتعليم البربر مبادئ الدين الإسلامي وأحكامه.

ونظم عبد العزيز بن موسى بن نصير حكومة الأندلس وألف مجلسا خاصا لاستنباط الأحكام الشرعية التي تتفق وحالة السكان، وعني بالزراعة ونظم الطرق، ورفع عن الإسبان مظالم القوط، فخفف الضرائب التي أثقلت كاهلهم وساوى فيها بين طبقات الأمة من غير تمييز في الدين والجنس، كما أمن الأهلين على دينهم وأموالهم وأنفسهم وحريتهم، وشجع العرب على الاختلاط والتصاهر معهم، وتزوج هو بأرملة لذريق التي بقيت على دينها.

واستمر (التشريع القضائي) في المغرب متطورا طيلة عهد المرابطين والموحدين والمرينيين والسعديين إلى الدولة العلوية الشريفة... التي تطور القضاء في عهدها

ويقول المؤرخ ابن زيدان في كتابه (العز والصولة في نظام الدولة).

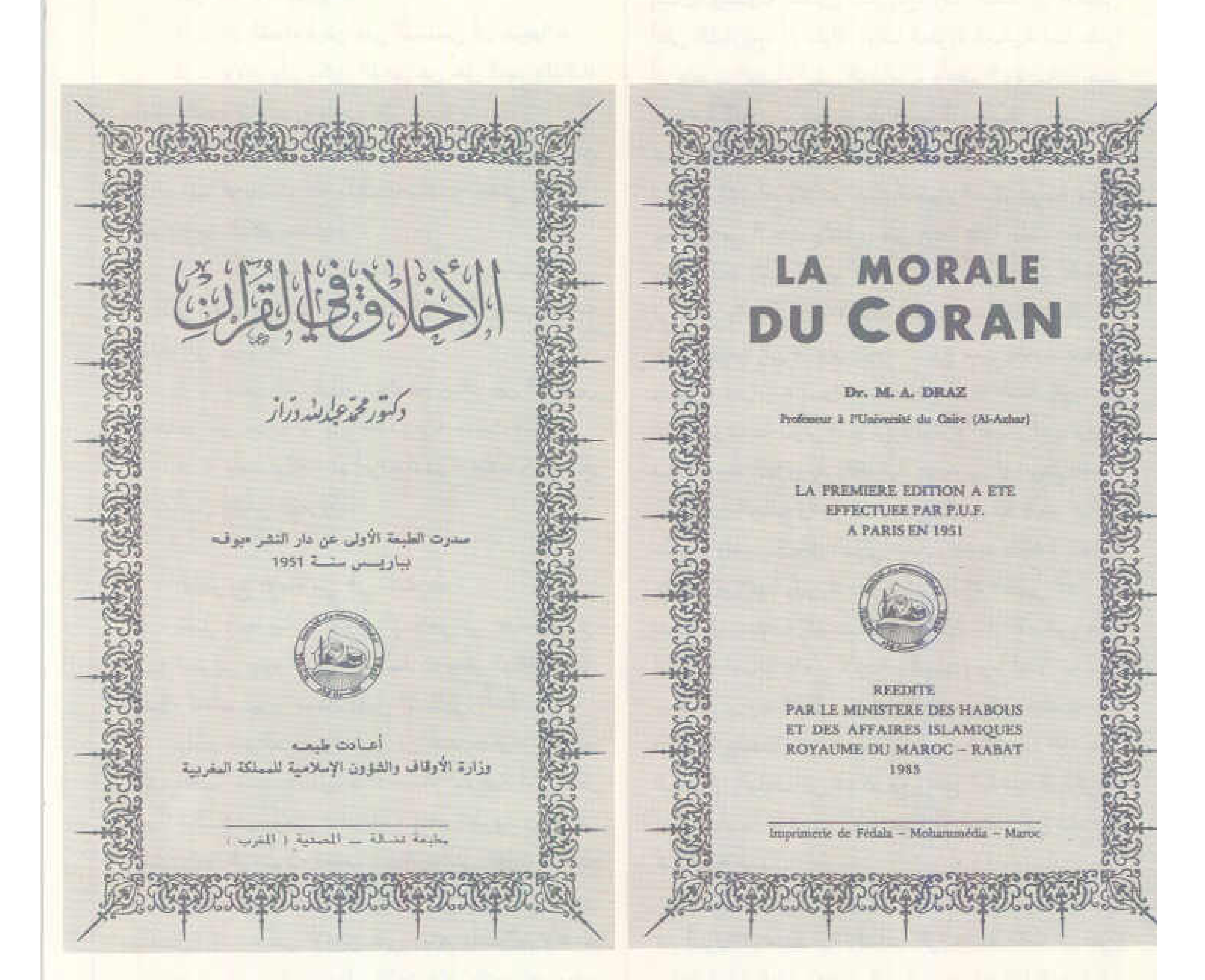
إن مما هو ضروري تحفظه الاذهان، ولا يختلف فيه إثنان، وتصونه سطور التاريخ، وقد اقتعد من الأطلس أعلى الشماريخ، أن ملوك دولتنا العلوية العالية لما علموا أن منصب القضاء أسنى المناصب وأعظم الولايات بعد الامامة العظمى، حملتهم عواطفهم الدينية، ووقفت بهم غيرتهم الإسلامية، على التحري التام في تقديم من يصلح لمنصب القضاء، فكانوا عند اقتضاء الحال تولية قاض يجدون في البحث والتنقير عمن فيه أهلية واستعداد تام لتقلد تلك الخطة، ولم يكونوا يكتفون في ذلك بظاهره في العلم والعمل، بل لا تقف هممهم عند تلك المظاهر حتى يضيفوا إلى ما راوا نتيجة السماع ممن يظنون صدقه وتحريه ومراقبته لمولاه في سره وجهره، ظنا يقرب من اليقين، وعندما تتوفر الدواعي وينشرح الصدر لمن توفرت فيه الشروط الضرورية والكمالية يصدرون أو امرهم بتقليد ذلك الفرد الجامع ولاية القضاء، ويكتب له ظهير أمامي بالتولية وتعيين المحل المولى عليه وتحديد منطقة التولية وتعداد قبائلها ولو كثرت، يتضمن ذلك الظهير التصريح بتوليته واستحقاقه للمنصب ووقوع الاختيار الأمامي عليه لما ثبت اتصافه به من الأوصاف الحميدة وما امتاز به عمن سواه من مزيد الفضل ومتانة الدين، ويؤمر فيه بتصفح الرسوم، والفصل بين الخصوم، على ما تقتضيه الشريعة المطهرة، والوقوف في الحكم مع راجح المذهب المالكي أو مشهوره أو ما جرى به العمل مما له مستند في الشرع أو أقره حماة الدين.

في 28 شوال عام 1274 : صحت هذه الظهائر مباشرة من أصولها المحتفظ بها بالمكتبة الزيدانية. كما أن ملوك دولتنا العلية كانوا يكلفون العمال برفع قضايا الرعية إلى

الشرع المطاع ويلزمونهم تنفيذ ما حكم به القضاة وعدم التداخل بوجه من الوجوه في القضايا الشرعية كيفما كانت ويوفقون أحكام العمال إلى أن يصدر القضاة حكمهم الشرعي فيها وبه يكون العمل.

ولقد كان ملوكنا يلزمون اليهود بالجرى في قضاياهم مع المسلمين حسب الشريعة الإسلامية ويفرضون على الأجانب احترام القضاء الإسلامي وفي دعاوي المعاملات بين الرعايا والمحميين يرفضون فصلها إلا عن طريق الشرع باعتبارها دعاوي شرعية.

يتبع



LA MORALE
DU CORAN

Dr. M. A. DRAZ
Professeur à l'Université du Caire (Al-Azhar)

LA PREMIERE EDITION A ETE
EFFECTUEE PAR P.U.F.
A PARIS EN 1951

REEDITE
PAR LE MINISTERE DES HABOUS
ET DES AFFAIRES ISLAMIQUES
ROYAUME DU MAROC – RABAT
1985

Imprimerie de Fédala – Mohammédia – Maroc

الأخلاق في القرآن

دكتور محمد عبد الله دراز

صدرت الطبعة الأولى عن دار النشر ميوفه
بباريس سنة 1951

أعادت طبعه
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية

مطبعة فضالة — المحمدية (المغرب)

المصالح المرسلة في المذهب المالكي وبقية المذاهب الأخرى

الأستاذ يوسف الكتاني

تنقسم الأدلة الشرعية إلى قسمين :

1) أدلة نقلية : هي الكتاب والسنة والاجماع.

ويلحق بها العرف وشرع من قبلنا، ومذهب الصحابي.

2) أدلة عقلية : وهي القياس والمصالح المرسلة والاستحسان.

وهذا التقسيم إنما هو بالنظر إلى أصول الأدلة، اما باعتبار الاستدلال بها على الحكم، فكل من القسمين محتاج إلى الآخر ولا غنى له عنه.

ذلك لأن الاستدلال بالمنقول، لابد فيه من النظر والتدبر بالعقل، والاستدلال بالمعقول، لا يكون صحيحا معتبرا في نظر الشرع، إلا إذ كان مستندا إلى النقل، إذ العقل المحض لا مدخل له في تشريع الأحكام، كما أكد ذلك الإمام الشاطبي رحمه الله (1).

تعريف المصالح المرسلة :

ان ما يحدث من الوقائع في حياة الناس كثيرا ما يشتمل على أمور تصلح أن تكون مناطا لحكم شرعي يحكم به بناء على تلك الأمور، وهذه الأمور هي ما تعرف عند علماء الأصول بالمعاني المناسبة للحكم، وهذه المعاني المناسبة تتنوع بالنظر إلى شهادة الشارع لها بالاعتبار وعدمه إلى ثلاثة أنواع :

أولا : المناسب المعتبر أو المصلحة المعتبرة، وهي معان قام الدليل الشرعي على رعايتها واعتبارها، وهذه يجوز التعليل بها وبناء الحكم عليها باتفاق القائلين بحجية القياس، ويدخل في هذا النوع جميع المصالح التي جاءت الأحكام المشروعة لتحقيقها، كحفظ النفس الذي شرع الشارع لتحقيقه تحريم القتل وإيجاب القصاص من القاتل عمدا، وكحفظ العقل الذي شرع الشارع لتحقيقه تحريم الخمر وإيجاب الحد على شاربها إلى غير ذلك من المصالح التي اعتبرها الشارع، وشرع الأحكام لتحقيقها.

وعن طريق هذه النوع من المصالح جاء دليل القياس، فإنه مبني على النظر في الأحكام المشروعة ومعرفة قصد الشارع فيها إلى مصلحة بعينها، حتى إذا وجدت هذه المصلحة في واقعة أخرى أخذت حكم الواقعة

1) الموافقات للشاطبي ج 41/3.

المصرح بحكمها.

ثانيا : المناسب الملغى أو المصلحة الملغاة، وهي معان قام الدليل الشرعي المعين على إلغائها وعدم اعتبارها، وهذه لا يصح التعليل بها وبناء الحكم عليها باتفاق العلماء.

ذلك أن الشارع الحكيم لا يلغى مصلحة من المصالح إلا إذا ترتب على اعتبارها ضياع مصلحة أرجح منها، كما يدل على ذلك استقراء المواضع التي ألغى الشارع فيها بعض المصالح، ولنضرب لذلك مثلا فمنع تعدد الزوجات قد يبدو أن فيه مصلحة، وهي قطع ما يحدث بين الضرات من المنازعات والخصومات التي قد يكون لها أسوأ النتائج في حل الروابط بين أفراد الأسرة الواحدة، ولكن الشارع ألغى هذه المصلحة ولم يعتبرها، وأباح تعدد الزوجات اكتفاء باشتراط العدل بينهن لاباحة هذا التعدد نظرا لما يترتب عليه من المصالح العديدة كتكثير النسل والتوالد الذي هو المقصود الأول من الزواج وصون ذوي الشهوات الحادة من الوقوع في الزنا واتخاذ الخليلات، وليكون التعدد أيضا علاجا اجتماعيا عندما يعرض للأمة نقص في الرجال، وخاصة في اعقاب الحروب حتى لا يبقى عدد كبير من النساء بدون عائل يقوم بشؤونهن، ويحصن نفوسهن.

ومن هذه الأمثلة الاستسلام للعدو فإنه قد يبدو أن فيه مصلحة وهي حفظ النفوس من القتل، ولكن الشارع الحكيم ألغى هذه المصلحة ولم يعتد بها، وأمر بدفاع العدو، ومقاتلته نظرا إلى مصلحة أرجح منها، وهي حفظ كيان الأمة وكرامتها.

ثالثا : المناسب المرسل أو المصالح المرسلة، وهي معان لم يقم الدليل الشرعي المعين على اعتبارها أو إلغائها، وسكت عنها ولم يرتب حكما على وفقها وليس لها أصل معين تقاس عليه.

ومن هذا يتبين أن المصالح المرسلة عند الأصوليين هي : المعاني التي يحصل من ربط الحكم بها وبنائه عليها جلب مصلحة أو دفع مفسدة عن الخلق، ولم يقم دليل معين على اعتبارها أو إلغائها.

وواضح من هذا التعريف أن المصالح المرسلة لا تكون إلا في الوقائع التي سكت الشارع عنها، وليس لها أصل معين تقاس عليه، ويوجد فيها معنى مناسب يصلح أن يكون مناطا لحكم شرعي يحكم به بناء على ذلك المعنى المناسب، بحيث إلى إذا عرضت على العقول تلقتها بالقبول (2).

حجية المصالح المرسلة :

يرى الجمهور من العلماء أن المصالح المرسلة حجة شرعية وأصل من الأصول التي يعتد بها في تشريع الأحكام، وعلى هذا الرأي سار الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب الفقهية المعروفة، كما يؤخذ من المسائل والأحكام التي بنوها على هذا الأصل، وهي كثيرة في كتب الفقه المختلفة تظهر للمتتبع، وذلك خلافا لما يقوله بعض الأصوليين بأن المصالح المرسلة حجة فقط عند الإمام مالك دون غيره من أئمة المذاهب.

ويرى بعض العلماء أن المصالح المرسلة ليست بحجة، ولا يصح أن يبني عليها حكم من الأحكام الشرعية، وهو مذهب الظاهرية، وبعض الشافعية والمالكية كالآمدى وابن الحاجب ولكل من الفريقين أدلة على ما ذهب إليه.

وفي ذلك يورد الشاطبي في الموافقات :

«إن القول بالمصالح المرسلة ليس متفقا عليه، بل قد اختلف فيه أهل الأصول على أربعة أقوال ـ فذهب القاضي وطائفة من الأصوليين إلى رده، وأن المعنى لا يعتبر ما لم يستند إلى أصل وذهب مالك إلى اعتبار ذلك، وبنى الأحكام عليه على الاطلاق، وذهب الشافعي ومعظم الحنفية إلى التمسك بالمعنى الذي لم يستند إلى أصل صحيح، لكن بشرط قربه من معاني الأصول الثابتة، هذا ما حكى الإمام الجويني.

وذهب الغزالي إلى أن المناسب أن وقع في رتبة التحسين والتزيين لم يعتبر حتى يشهد له أصل معين، وأن وقع في رتبة الضروري فميله إلى قبوله، لكن بشرط قال : ولا يبعد أن يؤدي إليه اجتهاد مجتهد» (3).

---

2) الموافقات 90/2.

3) الاعتصام 95/2 و96.

وعلى هذا فقد انقسمت أقوال العلماء في ذلك إلى أربعة أقسام : (4).

1) الشافعية، ومن نحا نحوهم لا يأخذون بالمصالح المرسلة التي لا يوجد شاهد من الشارع باعتبارها ذلك لأنهم لا يعملون إلا بالنصوص والحمل عليها بالقياس الذي يكون أساسه وجود ضابط يضبط ما بين الأصل والفرع أي ما بين المنصوص عليه والملحق به، وقد ذهب امام الحرمين إلى أن الإمام الشافعي يأخذ أحيانا بالمصالح المرسلة شريطة أن تكون تلك المصالح شبيهة بالمصالح المعتبرة، كما أكد ذلك القول السبكي (5).

2) الحنفية، ومن سار سيرهم ممن يأخذون بالاستحسان مع القياس، فإن الاستحسان مهما يكن قولهم فيه لا يخلو من اعتماد على المصالح المطلقة علما بأن الاحناف اعتمدوا أكثر من الشافعية على المصالح في استنباطهم، فقد ذكر الشاطبي رواية عن الإمام الجويني أن الشافعي ومعظم الحنفية ذهبوا إلى التمسك بالمعنى الذي لم يستند إلى أصل صحيح، ولكن بشرط قربه من معاني الأصول الثابتة (6).

3) المغالون في الأخذ بالمصالح حتى قدموا المصلحة على النص في معاملات الناس واعتبروها مخصصة له، كما اعتبروها مخصصة للاجماع، وذهب هؤلاء إلى أن العلماء إذا اجمعوا على أمر بنص، ووجد مخالفا للمصلحة في بعض وجوهه، قدم اعتبار المصلحة، واعتبر ذلك تخصيصا لأن شرع الله قصدت فيه المصلحة ونصوصه وسائل مرشدة إليها، فإن تحققت هي من غير طريق هذه الوسائل قدم اعتبارها على أن ناقضتها لأن المقاصد مقدمة على الوسائل، وزعيم هذا الرأي هو الطرفي وهو فقيه حنبلي كبير توفي سنة 716 هـ (7)، وقد بين رأيه في ذلك عند شرحه لحديث لاضرر ولا ضرار قائلا :

اعلم أن هذه الطريقة التي قررناها مستفيدين لها من الحديث المذكور ليست هي القول بالمصالح المرسلة على ما ذهب إليه مالك، بل هي أبلغ من ذلك، وهي التعويل على النصوص والاجماع في العبادات والمقدرات وعلى اعتبار المصلحة في المعاملات وباقي الأحكام... وإنما اعتبرنا المصلحة في المعاملات دون العبادات، وشبهها، لأن العبادات حق للشارع خاص به، ولا يمكن معرفة حقه، كما وكيفا وزمانا ومكانا إلا من جهته، فيأتي به العبد على ما رسم له، ولأن غلام أحدنا لا يعد مطيعا خادما إلا إذا امتثل ما رسم سيده وفعل ما يعلم أنه يرضيه، فكذلك هاهنا، ولهذا لما تقيدت الفلاسفة بعقولهم ورفضوا الشرائع اسخطوا الله عز وجل، وضلوا وأضلوا، وهذا بخلاف حقوق المكلفين، فإن أحكامها سياسة شرعية، وضعت لمصالحهم، وكانت هي المعتبرة وعلى تخصيصها المعول.

ولا يقال أن الشرع أعلم بمصالحهم، فلتأخذ من أدلته، لانا نقول قد قررنا أن المصلحة من أدلة الشرع، وهي أقواها، وأخصها فلنقدمها في تحصيل المصالح ثم أن هذا إنما يقال في العبادات التي تخفى مصالحها عن مجاري العقول والعادات، أما مصلحة سياسة المكلفين في حقوقهم فهي معلومة لهم بحكم العادة والعقل، فإذا رأينا الشرع متقاعدا عن إفادتها علمنا أنا أحلنا في تحصيلها على رعايتنا (8).

4) وهذا القسم يمثل المعتدلين بين الفآت المذكورة وفي مقدمتهم الإمام مالك وأكثر المالكية، وهم الأصح بصرا لأنهم اعتبروا المصالح المرسلة في غير موارد النص المقطوع به.

فقد أخذ المالكية بالمصلحة في المعاملات واعتبروها أصلا شرعيا مستقلا من غير استناد إلى ما عداه من الأدلة الأخرى، فحيثما وجدت المصلحة أخذ بها سواء شهد لها شاهد خاص من الشرع بالاعتبار أم لم يكن لها شاهد بالاعتبار أو الإلغاء، وحتى إذا عارضت المصلحة نصوص ظنية قام التعارض بينهما، وقد يرجح الأخذ بها ويخصص

---

4) أخذ بهذا التقسيم أبو زهرة في كتابه عن مالك ص 329 وما بعدها.
5) التحرير وشرحه 150/3.
6) الاعتصام 95/2.
7) انظر رسالته في الموضوع، مجلة المنار، المجلد التاسع. ومالك لأبي زهرة ص 331 ـ 332.

8) تفسير المنار الجزء السابع ص 194.

النص أو يضعف سنده إن كان عاما على أنه إذا لم يكن هناك نص معارض أخذ بها.

وقد اجتهد المالكية في فهم معاني المصلحة واسترسلوا في ذلك وتوسعوا مع مراعاة مقصود الشارع، وفي دائرة عدم المناقضة مع أصوله، وقد كانوا في ذلك متبعين لا مبتدعين (9).

شروط العمل بالمصالح المرسلة :

إن القائلين بحجية المصالح المرسلة لم يعملوا بها مطلقة من القيود والشروط، وإنما اشترطوا للعمل بها شروطا، إذا فقد واحد منها لم يعملوا بها وهذه الشروط هي :

1) أن تكون المصلحة من المصالح التي لم يقم دليل شرعي يدل على إلغائها. أما إذا قام دليل شرعي يدل على الإلغاء لم يصح العمل بها.

2) أن تكون المصلحة من المصالح المحققة، أما إذا كانت من المصالح المتوهمة فلا يجوز العمل بها.

3) أن تكون المصلحة من المصالح العامة، أما إذا كانت المصلحة خاصة بشخص معين فلا يعمل بها.

4) أن تكون المصلحة معقولة بحيث لو عرضت على العقول السليمة قبلتها.

وأن يكون في الأخذ بها رفع حرج لازم في الدين. فلو لم يؤخذ بالمصلحة المعقولة في موضعها لكان الناس في حرج، والله تعالى يقول : ﴿**وما جعل عليكم في الدين من حرج**﴾ (10).

أدلة القائلين بحجية المصالح المرسلة : استدل القائلون بحجية المصالح المرسلة بما يأتي :

1) ما روى أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن : كيف تقضي إذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضي بما في كتاب الله، قال : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله، قال فإن لم يكن في سنة رسول الله ؟ قال : اجتهد رأيي لا آلو، «أي أقصر في الاجتهاد» قال معاذ : فضرب رسول الله ﷺ صدري بيده، ثم قال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله».

ووجه الاستدلال من هذا الحديث : إن الرسول ﷺ أقر معاذا على الاجتهاد بالرأي إذا لم يجد في الكتاب أو السنة ما يقضي به، والاجتهاد بالرأي كما يكون بقياس النظير على نظيره يكون بتطبيق مبادئ الشريعة، والاسترشاد بمقاصدها العامة. والعمل بالمصالح المرسلة لا يخرج عن هذا.

2) إن من يتتبع تشريع الصحابة الذين هم عماد الاجتهاد بعد رسول الله ﷺ يظهر له أنهم كانوا يبنون الكثير من الأحكام على المصالح المرسلة من غير إنكار على أحد منهم في ذلك، فكان إجماعا منهم على العمل بالمصالح المرسلة والاعتداد بها في تشريع الأحكام.

وقد نقل العلماء عنهم كثيرا من الأحكام التي بنوها على ما راوه من المصالح، نورد هنا طائفة منها.

أ) جمع الصحف المتفرقة التي كتب فيها القرآن في مصحف واحد في عهد أبي بكر بإشارة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما، فإن عمل مبني على المصلحة، كما يدل على ذلك قول أبي بكر عندما أشار عليه عمر بذلك. كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ، وقول عمر إنه ـ والله ـ خير ومصلحة الإسلام.

ب) استخلاف أبي بكر لعمر بن الخطاب، فإنه مبني على المصلحة لأن رسول الله ﷺ لم يستخلف أحدا بعده، ولم يرد عنه شيء في ذلك.

ج) إبقاء الأراضي المفتوحة في أيدي أهلها، وعدم توزيعها على الغانمين كما رآه عمر بن الخطاب ووافقه عليه سائر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، بعد أن بين لهم ما يترتب على ذلك من المصلحة للمسلمين.

د) حكم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بتأبيد الحرمة على من تزوج امرأة في عدتها، ودخل بها، زجرا لأمثاله عن ذلك العمل أو معاملة له بنقيض قصده.

9) الاعتصام 311/2 وما بعدها مالك لأبي زهرة 334 و335.

10) انظر الاعتصام ج 307/2 وما بعدها.

هـ) أمر عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه بكتابة المصاحف وتوزيعها على الأمصار وجمع الناس على مصحف واحد، وتحريق ما عداه من الصحف المنتشرة في الآفاق، فإنه مبني على المصلحة، وهي وضع حد للخلاف بين المسلمين في قراءة القرآن وحسم مادة هذا النزاع.

و) زيادة عثمان رضي الله تعالى عنه الأذان الأول لصلاة الجمعة، وهو الذي يفعل الآن فوق المآذن عند دخول وقت الصلاة. لما فيه من المصلحة وهي إعلام الناس بدخول وقت الصلاة.

ز) حكم عثمان رضي الله عنه بتوريث المرأة من زوجها الذي طلقها ثلاثا في مرض موته فرارا من إرثها، معاملة له بنقيض مقصوده، أو زجرا لأمثاله عن هذا العمل المذموم.

ح) حكم الصحابة بتضمين الصناع، ما يكون في أيديهم من أمتعة الناس محافظة على الأموال من الضياع، وفي هذا يقول علي بن أبي طالب «لا يصلح الناس إلا ذلك» يعني الحكم بالضمان.

3) إن المقصود من التشريع جلب المصالح ودفع المفاسد والمضار عن الخلق، ولا ريب في أن مصالح الناس تتجدد بتجدد الزمان. وتختلف باختلاف البيئات، ولا سبيل إلى حصرها في عدد معين، فإذا لم نعتبر المصالح المتجددة، ولم نشرع لها الأحكام المناسبة، ووقفنا عند المصالح التي قام الدليل على رعايتها لضاع على الناس كثير من مصالحهم، ووقف التشريع عن مسايرة تطورات الحياة، وهذا لا يتفق وما قصد بالتشريع من تحقيق مصالح الناس ودرء المفاسد عنهم، ولا يتلاءم مع ما هو مقرر من أن هذه الشريعة شريعة الخلود والبقاء (11).

أدلة المنكرين لحجية المصالح المرسلة :

واستدل المنكرون لحجية المصالح المرسلة بما يأتي :

1) إن الشارع الحكيم ألغى بعض المصالح، واعتبر بعضها، والمصالح المرسلة مترددة بين ما ألغاه الشارع وبين ما اعتبره، تحتمل أن تكون من المصالح التي ألغاها الشارع، وتحتمل أن تكون من المصالح التي اعتبرها، ومع هذا الاحتمال لا يمكن الجزم ولا الظن باعتبارها وبناء الأحكام عليها، وإلا كان ترجيحا بلا مرجح، وهو لا يجوز.

والجواب عن هذه الشبهة. أن القائلين بحجية المصالح المرسلة لا يدعون الجزم باعتبارها بل يقولون : إن الظاهر اعتبارها. والظهور كاف في الأحكام العملية.

والحكم بظهور العمل بالمصالح المرسلة ليس ترجيحا من غير مرجح، لأن المصالح التي ألغاها الشارع قليلة بالنسبة للمصالح التي اعتبرها، فإذا كان هناك مصلحة لم يقم دليل على اعتبارها أو إلغائها كان الظاهر إلحاقها بالكثير الغالب دون القليل النادر.

على أن ما ألغاه الشارع من المصالح لم يلغه إلا إذا ترتب على اعتبارها مفسدة تساويها أو ترجح عليها، وهذا غير متحقق في المصالح المتنازع فيها، لأن جانب المصلحة فيها راجح على جانب المفسدة، كما هو فرض الكلام فلا يصح إلحاقها بالمصالح التي حكم الشارع بإلغائها.

2) إن الاعتداد بالمصالح المرسلة في تشريع الأحكام طريق لذوي الأهواء ومن ليس أهلا للاجتهاد ينفذون منه إلى التصرف في أحكام الشريعة وبنائها على ما يوافق أهواءهم ومصالحهم الخاصة، وفي هذا اهدار للشريعة وخروج عن قيودها، وهو يجوز.

والجواب عن هذه الشبهة سهل إذا عرفنا أن من شرط الأخذ بالمصالح، الا يرد فيها دليل شرعي معين يدل على اعتبارها أو إلغائها، فإن هذا الشرط يخرجها عن أن تكون في متناول العلماء الذين لم يبلغوا درجة الاجتهاد، فضلا عن غيرهم من العوام أو ذوي الأهواء، إذ لا يدري أن هذه المصلحة لم يرد في اعتبارها أو إهمالها دليل شرعي إلا من كان أهلا للاستنباط، فليس كل ما يبدو للعقل أنه مصلحة يدخل في قبيل المصالح المرسلة، ويبني عليه الأحكام، وإنما هي المصالح التي يدركها من هو أهل لتعرف الأحكام الشرعية من مصادرها حتى يمكن الوثوق بأنه لم

---

11) المصدر السابق 2/ ص 99 وما بعدها.

يرد في الشريعة دليل يدل على اعتبارها أو إلغائها.

3) إن العمل بالمصالح المرسلة يؤدي إلى اختلاف الأحكام باختلاف الأزمان والبيئات. فإن المصالح ـ كما هو مشاهد ـ تتغير بتغير الأزمان وتتجدد بتجدد الأحوال، وهذا ينافي عموم الشريعة، وصلاحيتها لكل زمان ومكان.

وهذه شبهة أضعف مما سبقها لأن اختلاف الأحكام باختلاف الأزمان وتبدلها بتبدل المصالح معدود في محاسن الشريعة، وهو من الطرق التي تجعلها صالحة لكل زمان ومكان.

وليس هذا الاختلاف ناشئا عن الاختلاف في أصل الخطاب حتى يكون منافيا لعموم الشريعة، وإنما هو اختلاف ناشيء عن التطبيق لأصل عام دائم، وهو أن المصلحة التي لم يرد دليل يدل على اعتبارها أو إلغائها يقضي فيها المجتهد على قدر ما يراه فيها من صلاح، فكأن الشارع يقول لمن أوتي العلم : إذا عرض لكم أمر فيه مصلحة، ولم تجدوا في الأدلة ما يدل على اعتبارها أو إلغائها فزنوا تلك المصلحة بعقولكم الراسخة في فهم المقصود من التشريع وضعوا لها الحكم الذي يلائمها.

وهكذا يكون القول بحجية المصالح المرسلة، هو القول الراجح الذي تشهد له الأدلة، والذي جرى عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأئمة الاجتهاد في العصور المختلفة، وان إنكار هذا الأصل مخالف للأدلة القائمة على حجيته، وفيه فتح باب للطعن على الشريعة ورميها بالجمود، وعدم مسايرتها لتطورات الحياة.

وكيف يسوغ إنكار هذا الأصل وهو من أهم الأصول الشرعية، والذي يمكن أن يأتي بثمر طيب إذا تناوله الراسخ في علوم الشريعة، البصير بتطبيق أصولها.

فعن طريق هذا الأصل يمكن لولاة الأمور في الأمة الخبيرين بروح الشريعة ومبادئها العامة وقواعدها الأساسية أن يشرعوا لها الأحكام والقوانين التي تحقق مصلحتها وتلبي حاجاتها العارضة ومطالبها المتجددة إذا لم يجدوا لها دليلا خاصا من الكتاب أو السنة أو الاجماع أو القياس.

وقد اتخذ الإمام مالك في ذلك مسلكا وسطا ومذهبا واضحا معتبرا مرامي الشريعة ومقاصدها فيما ذهب إليه، فلم يجعل أحكام العقل في المصالح تعدو طورها وتتعدى موضعها ولم يجعلها معارضة للنصوص القاطعة والأحكام الاجماعية، ولم يضيق على العقل فيحجر عليه أن يدرك المصالح إلا عن طريق النصوص، بل كان مسلكه بين ذلك قواما من غير إفراط ولا تفريط، فكان المذهب الخصب الثري بالمعاني من غير شطط ولا مجاوزة للاعتدال، وكان فيه علاج لأدواء الناس ومرونة تجعله يتسع لاعراف الناس ومصالحهم وأحوالهم على اختلاف منازعهم وبيئاتهم، في نطاق الاقتداء والاتباع (12) والله يهدينا إلى سبيل الرشاد ويوفقنا إلى الصواب والسداد والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

12) مالك لأبي زهرة ص 340.



من قضايا العصر

الأستاذ المهدي البرجالي

تأملات في أفق الإشكاليات التنموية

إشكاليات التنمية، كالتنمية ذاتها، إشكاليات ضخمة ومتشعبة، وتستقطب ابعادا مادية وبشرية وتنظيمية على مدى واسع.

في مجرى الحديث، حصيلة نظرات بهذا الخصوص، نظرات جد عابرة، وليس إلا.

تشكل عملية التنمية، أو بالأحرى، عمليات التنمية ـ نظرا لتعدد جوانب الموضوع الإنمائي وتشعب ميادينه ومقتضياته ـ الرهان الأكثر أهمية في مستقبل المجتمعات المتعايشة على متن هذا الكوكب الأرضي، وهو رهان شمولي في تحدياته، عميق المدى فيما يتناوله من أوجه العلاقات وتفاعلها بين شتى الأقطار، وما يرتبط به من حقائق ومعطيات، وثوابت ومتغيرات، تتوقف عليها سلامة موازين وتوازنات المسيرة الإنسانية عموما، وقدرات الشعوب النامية على مواكبة هذه المسيرة، والمساهمة الإيجابية في ديناميكيتها.

وباعتبار هذا، فإن آجالا واستحقاقات كبرى بالنسبة للعالم الثالث، ومستقبل الاقتصاد العالمي عموما ـ لتتعلق ـ

في الأمد المتوسط أو البعيد ـ بأمر التنمية تعلقا صميميا، وبالتالي فإن حصيلة السلب أو الإيجاب، فيما تستطيعه الأقطار المعنية بصدد مواجهة تلك الاستحقاقات، تبدو متوقفة على مقدار ما ينجزه العمل الإنمائي من خطوات في النطاق المحلي بالقياس لكل دولة على حدة، أو في إطار التعاون الجماعي ـ من جهة أخرى ـ أي التعاون على مستوى المنظمات المتخصصة، سواء الجهوية منها، أو القارية أو الدولية.

وبطبيعة الحال، فإن التحولات الكبرى التي شهدها العالم أثناء النصف الثاني من القرن الحالي، والتي تميزت بنهاية النظام الاستعماري الذي ساد العالم خلال القرون الأخيرة، مثلما تميزت في ارتباط بذلك ـ بشمول الاستقلال ـ مع استثناءات قليلة ـ أقطار العالم الثالث ـ قد كان من نتائجها الحتمية، أن نشأت أوضاع جديدة أصبحت ـ بموجبها ـ المعطيات الاقتصادية في شمال كوكبنا وفي جنوبه ـ مترابطة بعضها ببعض، ومتفاعلة على نحو يقل أو يكثر وقد دأب الغرب الصناعي ـ لأمد طويل ـ على تجاهل هذه الحقيقة، منساقا مع الظن بأن فعالياته الاقتصادية، هي جوهر الاقتصاد العالمي، وأنها وحدها المؤهلة للتأثير على موازين هذا الاقتصاد ومقدراته وتوجهاته ومصايره، إلى أن كانت الرجة النفطية الحادة الأولى سنة 1973، ثم الثانية سنة 1979، وما رافقهما من قلاقل وهزات درامية على مستوى الاقتصاد الدولي، بما يندرج فيه من نظام المبادلات والنظام النقدي وما إليه، مع العلم بأن هذا الأخير، أي النظام النقدي، والأوضاع المرتبطة به، قد عانى قبل ذلك ـ من الارتجاج بدرجة مهمة، تحت تأثير عوامل مختلفة، يعود بعض جذورها إلى مخلفات الحرب العالمية الثانية في المجتمعات الأوروبية قد نجم عن مركب هذه التحولات التي سجلتها العقود الأربعة الأخيرة، إلى جانب مؤثرات كثيرة أخرى ـ متداخلة مع بعضها ومتشعبة ـ أن تبلور نوع من إجماع دولي ـ ولو من الناحية النظرية بالأقل ـ على ضرورة إقامة نظام اقتصادي عالمي جديد، يكون أكثر قابلية لاستيعاب الحقائق والإشكالات التي تكتنف مسار تطور أوضاع العالم المعاصر، وأحواله على المدى المنظور، ومن المسلم به، أن مشاركة البلدان النامية، وهي مشاركة ما فتئت تتزايد ابتداء من الخمسينات في الشؤون العالمية، قد كان لها وقعها الفعلي، في إفراز خطوط توجه دولي من هذا القبيل.

☆ ☆ ☆

على أنه إذا كان تعثر الحوار بين الشمال والجنوب، وضراوة الحروب الاقتصادية القائمة بصور مختلفة، إما بين الدول على انفراد، أو بين المجموعات الدولية إقليمية أو قارية، إذا كان هذا وغيره، يعكس كثافة المصاعب والتعقيدات التي تعترض سبيل العمل على تطبيق النظريات المتعلقة بإعادة ترتيب الاقتصاد العالمي، فإن ضغط المشاكل المرتبطة بالأزمة العالمية الراهنة من شأنه أن يعمق حدة الشعور بضرورة السعي لتوفير ظروف وقواعد أكثر ملاءمة لمجابهة وامتصاص، إن لم يكن تجاوز الصعوبات الموجودة، والتوصل ـ عبر ذلك ـ إلى إحداث مستوى عن التناسق بين مصالح الشمال والجنوب، بهدف تحقيق خطوات عملية، يقع التدرج بها نحو قدر من التكامل والتفاعل الإيجابي في معطيات الاقتصاد العالمي.

وليس من يجادل في حتمية تضافر الجهود ـ دوليا ـ لإنجاز هدف ذي أبعاد استراتيجية من هذا القبيل، هدف ليس عنه بديل بصدد المسيرة الاقتصادية الدولية، وإصابة ما تتأتى إصابته من المرامي المراد بلوغها من هذه المسيرة. فكما ذكر آنفا، فإن الفاعليات الاقتصادية المتواجدة، تترابط فيما بينها ـ بحكم منطق الأشياء ـ ترابطا يجعل كلا منها معرضا ـ بكيفية قسرية ـ لتحمل عواقب المؤثرات السلبية أو الإيجابية المنعكسة عليه من الآخر ومن ثم فإن أية جهة في المحيط الاقتصادي الدولي، لا يسعها عمليا ـ أن تمارس سياستها الاقتصادية الخاصة بها، بمنأى عن الجهات الأخرى، أو بنوع من التصادم معها، وهو تصادم يمكن تجنبه، أو بالأقل، التخفيف من حدته مع تلك الجهات وينطبق هذا ـ بطبيعة الحال ـ على مجال العلاقات الاقتصادية بين ما

ينعت بالعالم المتقدم، وبين ما يدعى بالعالم الثالث، الذي يشكل ـ بحجمه الترابي والبشري، وبكثافة ممكناته ومقدارته ـ عنصرا جوهريا في تركيبة المعادلة الاقتصادية الدولية وإذا كان هم الأقطار الصناعية ـ كما يعرف ـ يتمحور حول الخروج من دائرة الركود الاقتصادي، وتحقيق اقلاع جديد على مستوى التوسع الاقتصادي والتجاري، وتأمين قدر كاف من الاستقرار النقدي، فإن بؤرة الانشغال التي تلح على العالم الثالث، تكمن في حرصه على إنجاز ما ينشده من خطوات في طريق التنمية والتطوير والتحديث، وهذا سبيله لاكتساب البلدان المنتمية إليه، القدرة على المساهمة ـ من منطلق فاعليتها الذاتية ـ في الدورة الاقتصادية العالمية، وضمان مواقع مربحة ومريحة في اعتبارات مصالحها على هذا الصعيد، وليس من شك، في أهمية دواعي الارتباط المبدئي، والمطروح بالضرورة ـ بين المشاغل والاهتمامات من هذا الصنف سواء في العالم المتقدم، أو في حظيرة العالم النامي، وهو ترابط يحتمه تداخل وتشابك المصالح الدولية في دنيانا المعاصرة، وإن كان هذا الواقع، لا يلقى دائما القدر اللازم من الاهتمام العملي من طرف القطاع الدولي المعتبر غنيا. وعلى أي فإن الحتميات التي يبلورها استمرار الأزمة الاقتصادية العالمية لجدير بأن يخلق حوافز ملحة أكثر فأكثر، على التعاون ـ ضمن هذا الترابط في المصالح الدولية بين مختلف الأطراف (شمال ـ جنوب، وجنوب ـ جنوب) وذلك من أجل صياغة إطار انسب للعمل بقدرما ـ على عقلنة نظام المبادلات، وتناسق المنافع بين المتشاركين في هذا النطاق والتخفيف التدريجي ـ نتيجة لذلك ـ من المفارقات والنقائض القائمة بينهم على مستويات مختلفة وهذه جوانب حيوية في مراجعة النظام الاقتصادي الدولي، وضبط تفاعلاته، والأمر في هذا، يتعلق أساسا وقبل كل شيء ـ بمدى إدراك العالم الصناعي ادراكا يرقى إلى مستوى الاقتناع، بأن الزمن قد مضى حيث كانت رفاهية الأقطار المتقدمة ممكنة ـ كما كان يظن ـ بقطع النظر عن بقية العالم، وحيث كان دور البلدان النامية (البلدان المستعمرة بالفتح سابقا) في الفاعلية الاقتصادية العالمية، منحصرا فقط، في كونها مصدرا للخامات، وسوقا للاستهلاك على أن إدراكا كهذا، لا يمكن أن يكون بطبيعة الحال، وليد مجرد تنظيرات متفلسفة وإنما كنتيجة لما تستطيع حظوظ التنمية في العالم الثالث طرحه من تغييرات حتمية على هيكلية التقسيم الدولي للعمل، بحيث يتأتى للأقطار السائرة في طريق النمو، احتلال موقع في خانات هذا التقسيم، ذي فاعلية حقيقية في موازين الانتاج والتجارة الدولية.

إن عامل التعاون الدولي ـ في هذا الأمر، ليشكل في نطاقه الأوسع ـ حاجة ضرورية لضبط وتيرة سير هذا التطور المطلوب على صعيد التوازنات العالمية، وتأمين قدر من النجاح له، ومن ثم، يبقى مفيدا، وعمليا كذلك، أن تنضج شروط إرادة كهذه في المحيط الدولي العام، بدافع الاقتناع بجدواها للجميع، وضروريتها لصالح نمو وسلامة الاقتصاد الدولي ككل، فهذا ـ في الواقع ـ طرح ملائم كبديل لما قد يتصور من إمكانية فرض التكامل والتوازن في الاقتصاديات الدولية فرضا قد تكتسي وسيلته أحيانا، صبغة صراعات أو حروب اقتصادية بين هؤلاء وأولئك.

☆ ☆ ☆

هي إشكاليات عديدة تكتنف مسار التنمية وحظوظها في النطاق المحلي أو الجهوي، كما على المستوى الدولي الأعم وإذا كانت قضايا التعاون بين الأقطار وبعضها مع بعض، أو بين المجموعات أو التجمعات الدولية، ذات شأن كبير بهذا الخصوص، فإن مما له شأنه كذلك، بالنسبة لعدد من بلدان العالم الثالث، مدى ما تستطيعه هذه البلدان ـ كما أومانا سابقا إليه في مجال التغلب ـ على مصاعبها الذاتية، لتستطيع الانطلاق إلى هذه الآفاق الأوسع، التي تمكنها من مواكبة مجرى التطور الإنمائي العالمي، والإفادة منه ومن بين أبرز المصاعب الذاتية من هذا القبيل، التي تواجه عددا من أقطار آسيا وإفريقيا وغيرهما، تلك التي

تتمثل في وجود معوقات فكرية أو اعتقادية، أو اجتماعية أو نحوها، تقلص - بصورة أو بأخرى - من سلاسة سير المؤثرات الإنمائية في المجتمع، وقد تحد - بالتبعية لذلك - من قدرة هذا المجتمع على إعادة تشكيل العقليات، وتكييف القناعات في حظيرته بما يكفل صقل قابلية الإنسان للمساهمة في مسار التجديد والتطوير المخطط لهما.

والأشد وطأة على مسيرة التنمية أكثر من هذا هو ما تعانيه بعض المجتمعات من خلل في تلاحم وتجانس تركيبتها الديموغرافية، وما تعكسه حال كهذه - إذا لم يتم النجاح في ضبطها والتحكم فيها - من سلبيات غير هينة، قد تربك وضع التخطيطات الإنمائية وتطبيقها، نتيجة لضعف الانسجام الفكري والقيمي في المجتمع الذي يعنيه هذا الأمر، وبالتالي تناقض اهتمامات مثل هذا المجتمع، وتباين محاور الاستقطاب في دراسة وتصنيف وبلورة الاختيارات والأسبقيات التي تطرح نفسها لإرضاء حاجياته.

إن المسألة من زاويتها هذه، لترتبط - صميميا - بموضوع العامل البشري في إنجاز أغراض التنمية، وهو موضوع حيوي بكيفية مطلقة، في مضمار العمل الإنمائي، وعليه تتوقف الحظوظ الأساسية لنجاح هذا العمل، أو عدم نجاحه.

☆ ☆ ☆

مرجع أهمية العامل البشري في أمر التنمية، كون الإنسان - فردا أو جماعة - إنما هو المحور المركزي في كل ما يراد من التنمية تخطيطا وتطبيقا، وكونه كذلك، المؤثر في العمل الإنمائي، والمتأثر به من حيث السلب والإيجاب، وأيضا، فهو المستقطب لنتائج الإنماء، والمرآة التي تعكس - في العمق - مستوى ديناميته وزبدة حصيلته، وفي حدود هذا التصور لإبعاد العمل الإنمائي، اتخذ مفهوم التنمية نطاقه الشمولي وهو نطاق يركز على الإنسان كقطب الرحى أو بيت القصيد في عملية التنمية ولا تنحصر الرؤية - بحسب هذا المفهوم من النتائج المادية للتنمية

ومن هذا، صار واضحا أن التعليم والتكوين المهني، وحفظ الصحة، وما إلى هذه الأمور، تشكل استثمارا مهما في حقل التوظيفات الموجهة للإنماء، وإن المردود المتأتي عنها، لا يقل أهمية عن أي استثمار آخر، مصنف في خانة الاستثمارات المجدية ومن هذا كذلك، يمكن النظر - من زاوية دولية - إلى العمليات المختلفة في مجالاتها وأوجه اختصاصها، التي اضطلعت بها الوكالات المتخصصة التابعة للأمم المتحدة لفائدة العالم الثالث باعتبار كون هذه العمليات تدخل في باب واحد، هو باب العمل الإنمائي فالزراعة والتغذية، والفنون والثقافة والصحة : هذه ميادين متعددة، وتضطلع بها منظمات أممية عديدة (الفاو اليونيسكو وغيرهما) ! إلا أن القاسم المشترك في عمق ارتباط هذه الميادين بعضها ببعض، هو التنمية في بعدها البشري، وإن كانت عناية المنظمات المذكورة تتوجه بالنسبة للبعض منها إلى موضوع تحسين التربة مثلا، أو محاربة الطفيليات الضارة زراعيا أو طبيا، كما تتوجه بالنسبة لبعضها الآخر، إلى الحفاظ على الآثار التاريخية مثلا، أو نقد النظريات السلالية، أو نحو هذا كثير، فالفرد البشري هو دائما المقصود في هذا أو ذلك من هذا المنظور، منظور البعد البشري للتنمية - باعتبار محورية الإنسان في موضوعها كفاعل ومنفعل، مؤثر ومتأثر، تتجلى أهمية المحاذير التي ينبه إليها الخبراء بهذا الشأن، فيما يخص الأثر الذي يمكن أن يحدثه ضعف تلاحم مكونات البنية القومية لقطر من الأقطار على مسار عمليات التنمية في ذلك القطر، وحظوظ النجاح المنتظر منها تحقيقه.

لكن ماذا يعنيه ضعف التلاحم أو التماسك القومي هنا، وما علاقة حالة التماسك هذا أو عدمه بقضية التنمية ؟

في عدد من أنحاء العالم الثالث، خاصة بالنسبة للبلدان التي لا يملك مجتمعها - بالصفة التي هو عليها - جذورا بعيدة في عمق التاريخ، وهي هذه الجذور التي تتأصل منها مكونات وصورة مجتمع من المجتمعات، وتلتحم - بقدر بعد نموها - هياكله ونسيجه القومي سيكولوجيا وفكريا وقيميا وحضاريا (وقد تكون مثل هذه

الجذور موفورة لمجتمع ما، إلا أن تكوينه أو ظروف تطوره، أو ما في حكم ذلك، ربما يكون غير سليم، فيتعثر - من ثم، رغم ما قد يكون له من عراقة تاريخية).

في بلدان كهذه، تكون التركيبة المجتمعية - في غالب أمرها، عبارة عن قبائل أو عشائر، وفي حالات أخرى، مجرد شتيت من الفآت والفصائل، لا يشد بعضها لبعض رابط كاف لإشعارها بقوة الانتماء الذي يجب أن يلحم تواجدها في مضمون الكيان الذي هي مندرجة فيه، وتعميق إحساسها - بالتبعية لذلك - بالهوية القومية، التي تشكل مدلول وموضوع وواقع انصهار العناصر التي تتبلور منها هذه الهوية بسجاياها وملامحها المتميزة، وعلى الرغم من أن تخلخل مقومات التماسك القومي هذه، قد تكون راجعة بالنسبة لمجتمع أو للآخر - كما ذكر آنفا - إلى طبيعة الظروف التي وجد فيها ذلك المجتمع، وكيفية نشوئه وتشكله في حقبة ما، من الزمن ربما قبل عديد القرون، فإن من المسلم به، إن الاستعمار - في خلال تسلطه أثناء القرون الأخيرة على بلدان إفريقيا وآسيا، قد كان له في كثير من الحالات كهذه - أثر بعيد المدى، الأمر الذي نجم عنه، إن وجد في المحيط الدولي المعاصر، ما اعتبر دولا، لكنها دول تعاني بقدر كبير من مشاكل التخلخل القومي إلى حد يجعلها - باستمرار - عرضة للاهتزاز أمام مختلف العوامل العارضة، ومن الأكيد، أنه يكمن وراء هذه المعضلة، عدد كبير من الأسباب والدواعي لاستفحال حالة التخلف التي تكابد منها دول تمارس وجودها في غياب أية سياسة إنمائية، أو مجرد توفر بنيات وهياكل اقتصادية تعتمد عليها هذه السياسة لو وجدت، بيد ان الأدهى من ذلك، ما تعانيه مثل هذه البلدان المدقعة فقرا، من تمزقات بالنظر لضعف تجانس مكوناتها البشرية، وهو ما يعرقل - كما ذكر - أية إمكانية لنموها في حالة استمرار هذا الضعف، ويبقي - بالتالي - على عوامل تخلفها السياسي، علاوة على ما يسودها من تخلف اقتصادي - اجتماعي ولإدراك هذه العلاقة السببية بين عوامل الضعف في المكونات القومية من جهة، وضعف القدرات الإنمائية من جهة أخرى عند مجتمعات مصابة بازدواجية ضعف من هذا المعنى، يجب أن يوضع في الاعتبار أن التنمية في مفهومها الصحيح، هي عملية تطور شمولي، يتناول بالصقل والتشذيب والاثراء، قدرات القاعدة البشرية للمجتمع، وقابليتها للإسهام في تطوير ممكنات الوطن، وتنمية مقدراته، واستثمار مزاياه الطبيعية والموقعية وهذا، انطلاقا مما أشير إليه سابقا - من كون الإنسان، هو المحور الفاعل في دينامية التنمية، والهدف المرجعي لتحديد أغراضها، واستثمار ما ينبثق عنها من عطاءات، فأية صعوبة وأي تعقيد على هذا الصعيد، إذا كان المجتمع المقصود إنماؤه، مهلهل البنيات الاجتماعية بالنظر لضعف التماسك الفكري والوجداني والثقافي في بنائه الديموغرافي، وضحالة الإحساس في حظيرته بهوية قومية جامعة.

إن للمسألة - طبعا في هذا الأمر - جوانبها الخارجية، التي تتمثل في الصراعات الإيديولوجية التي تتسرب من الخارج إلى مجتمعات فقيرة متخلفة، لتمتص قدراتها وممكناتها في غير ما طائل، ولتسهم في تعميق الانقسامات الداخلية فيها، وهي انقسامات موجودة بذورها في مجتمعات كهذه، نتيجة لتداعي الأسس التي يرتكز عليها تماسكها القومي، ولحمة التمازج بين العناصر التي تتشكل منها.

إن عملية التنمية عملية معقدة ومتشعبة أساسا، لما تنطوي عليه من مقتضيات لاحد لها، وما تشمله من كليات المسائل وجزئياتها في حياة المجتمع، وما تتطلبه - فوق ذلك كله - من متابعة في بذل الجهود، وتكامل في مضمونها، ونتائجها، وتجاوب جماعي مع المرامي المتوخاة بصدد ذلك، وهذه مستلزمات شرطها - كما هو واضح - توفر التجانس القومي الذي تعاني من الخلل فيه أقطار تعثرت فيها مسيرة العمل الإنمائي لهذا السبب بالذات.

وليس مرجع هذا الضعف في تلاحم البنية القومية، تعدد مكونات الثقافة الوطنية أو نحو ذلك مما هو مصدر ثراء لهذه الثقافة، وإنما العامل المؤثر في هذا النقص حينما يوجد، يكمن في اختلاف طبيعة وحوافز ومضمون

المثل التي تتشبع بها فئات المجتمع، وتباين القيم والاعتقادات، وتضاربها في حظيرته.

ومن الجلي أن التنمية الثقافية، أي الجهد الإنمائي المبذول من أجل تكوين فكري متجانس ومتكامل لأفراد المجتمع، لابد أن يكون لها تأثير بناء في التخفيف من عواقب التباينات التي يمكن أن يعاني منها النسق القيمي السائد في المجتمع، وهذه إحدى المهام الحيوية التي تطرح نفسها على الكثير من الجهات في العالم الثالث، التي ما فتئت السياسات الإنمائية فيها، تتعرض لاحباطات متوالية، بفعل أسباب، من بين الأساسي منها، ضعف التماسك الاجتماعي والسياسي في هذه الجهات والناجم عن ضعف التجانس الفكري الذي يأخذ منها بالتلابيب.

وإذا كانت التسربات الخارجية المقنعة - أحيانا كثيرة - بالذرائع الإيديولوجية، تجد مرتعا خصبا لها في أحوال كهذه فإن التمكن من إنجاز تقدم فعلي في اتجاه تعزيز التلاحم القيمي والفكري في المجتمع من هذا القبيل، كفيل - بدرجة ما - بجعل الثغرات التي تقع منها هذه التسللات، غير مؤهلة لأن تكون نافذة.

سلا : المهدي البرجالي

نداء إلى أساتذتنا وعلمائنا

مجلة دعوة الحق مقبلة على تطوير موضوعاتها وتجديد شكلها استجابة للدور المسؤول والهام الذي تضطلع به بلادنا نصرة لقضايا الامة الاسلامية ودفاعا عن توجهاتها المصيرية.

واذا كان الفكر الاسلامي الذي انشأ حضارة انسانية اعطت للعالم ينابيع متدفقة لا ينضب معينها ارشدته الى الطريق الضامن لتقدمه وتطوره في اجواء يهيمن عليها الهدوء النفسي، وتطبعها الفضيلة والاخلاق المثلى، فان من اكاد الواجبات على مثقفينا ومفكرينا ان يوالوا الاسهام الجاد والمبدع في المسيرة التي تنهض بها امتنا الاسلامية في مختلف اصقاع العالم لكي يبقى عالمنا الاسلامي عالما تظلله الحكمة والفضيلة والتعاون والوئام.

ودعوة الحق وهي توجه هذا النداء الفكري الى اساتذتنا وعلمائنا لتنتظر منهم المشاركة المتواصلة على صفحاتها في مجال الفكر والثقافة الاسلاميتين.



الذين يهتمون بتطور الجماعات البشرية في إطارها الطبيعي يستطيعون أيضا إقامة الدليل على أن هناك تأثيرا متبادلا بين هذه الجماعات والمناطق الجغرافية التي تحتضنها، وهو تأثير لابد أن يفضي في نهاية الأمر إلى نوع من التطابق والانسجام بين ما تتحلى به هذه الجماعات البشرية من صفات وما تختص به المناطق الآنفة الذكر من دلائل ومميزات لها وزنها واعتبارها في نظر علماء الاجتماع، ومما لا شك فيه أن هذا الانسجام هو أيضا ما يبلور شخصية كل إقليم ويعطيه بالتالي الطابع الخاص الذي يؤهله، بناء على ما يتحلى به السكان من مميزات فطرية لتحقيق أعمال رائعة عبر مسيرة تاريخية مظفرة. ومن هنا يمكن القول بالاعتماد على ما تتمتع به أقاليم المملكة المغربية من رصيد معنوي ثابت وماض مجيد، بقطع النظر عن موقعها الجغرافي، بأنها قادرة على أن تحكي عن نفسها، كلما استقرأها الباحثون تاريخا رائعا حافلا بالأحداث والمعجزات !

وبالنسبة للمنطقة الشرقية على الأخص نستطيع القول إنه إذا هي استحقت بالفعل أن تخلد في قلوب أهلها فسبب ذلك يعود بالطبع إلى ما حققته من أعمال رائعة أهلت عددا من مدنها وقراها ـ وفي طليعتها مدينة وجدة ذات الماضي المجيد ـ لتدخل سجل التاريخ من بابه الأوسع.

في مستهل حديثنا عن المنطقة الشرقية عموما يتعين علينا أن نبدأ بنبذة ولو مختصرة عن أخبار مدينة وجدة، عاصمة المغرب الشرقي التي اقترن إسمها بعدة ملاحم كتبها أبناؤها بدمائهم الزكية عبر كفاح هذه المدينة الطويل المرير....

وتقع هذه المدينة النائية شرقا، وسط سهل بسيط واسع، على بعد ثلاثة عشر كيلو متر من الحدود المغربية الجزائرية، تكتنفه من الشمال إلى الجنوب سلسلة من الجبال هي «رأس عصفور» وجبل «المحصر» وجبال «الزكارة» وتقع هذه الأخيرة قرب مدينة العيون، هذه الجبال الثلاثة جعلت من المدينة مركزا استراتجيا عجيبا تتحكم في حركة المرور بتلك البقعة، فلا يستطيع الواردون من تلمسان مثلا في اتجاه مدينة فاس، ولا الرائحون من المغرب الأقصى في اتجاه القطر الجزائري اجتياز هذا الممر الذي بنيت فيه المدينة إلا بموافقة أولائك الذين كانوا يستمسكون بالجبال الآنفة الذكر، ومن ثم يمكن القول بأن المدينة لعبت في الزمان القديم دورا عسكريا مهما أدى أحيانا إلى هدمها وتخريبها، ثم إلى إعادة بنائها بعد ذلك نظرا للدور السياسي الذي كانت تقوم به على مر الأيام والعصور...

وأغلب الظن أن هذه المدينة قامت في الغابر على انقاض مدينة قديمة جدا، وكان أهلها يدينون بالوثنية أولا، وبعدها بالمسيحية، إنها كانت على ذلك العهد قرية بسيطة متواضعة بحيث تتخيل فقط أن سكانها الأولين استطاعوا أن يبنوا بها أكواخا من الطين لسكناهم نظرا لما وجدوه تحت أيديهم من تربة صالحة وأشجار متوفرة ومياه صالحة تنحدر من واحة سيدي يحيى، فكانت تسقي زرعهم وتعين الساكنين على القيام بتربية المواشي التي تستقيم بها معيشتهم، وعن تأسيس المدينة في العهد الإسلامي أجمع المؤرخون العرب على أن زيري ابن عطية المغراوي، صاحب المنصور بن أبي عامر هو الذي كان له فضل تأسيس مدينة وجدة، وذلك سنة 994م، وبنى بها قصبة استقرت بها الهيأة الإدارية كما أحاطها بسور متين لرد هجمات المعتدين، ويقول الجغرافي الشهير عبيد الله البكري وهو يصف هذه المدينة : «تتألف المدينة من مدينتين اثنتين، أحيطت كل منهما بسور، وقع تشييد أحدهما بعد سنة 440 هـ، أي في حدود سنة 1048 أو 1049م، على يد يعلي بن بلقين، وهذه المدينة الجديدة تشتمل على مخازن كثيرة يسكنها جماعة من التجار، أما مسجدها فيقع خارج المدينتين، وهو يشرف على نهر وسط مجموعة من البساتين والحدائق، أما أسباب العيش بها فمتوفرة ومناخها صحي، والمسافرون الذين يتوجهون من شرق إفريقيا إلى سجلماسة يقع مرورهم حتما على هذه المدينة كما يكون مرورهم عليها عندما يعودون من رحلتهم. «ثم يستطرد قائلا» ومرسى مدينة وجدة يسمى «تابحريت»، وهي تقع على أربعين ميلا شمال العاصمة، وتابحريت مسورة على ساحل البحر، لها مسجد جامع متقن البناء، ولها أسواق جامعة، وهي محط للسفن ومقصد لقوافل سجلماسة وغيرها... ومن تلمسان إلى وجدة ثلاث مراحل، فمن تلمسان إلى الحمة (1)، ومن الحمة إلى قرية تسمى بالشهباء، ومنها إلى مدينة وجدة، وهي ـ أي مدينة وجدة ـ مدينتان مسورتان أحدث إحداهما يعلى بن بلقين الورتغنيني بعد أربعين وأربعمائة، يسكن في المحدثة التجار وفيها أسواق، والجامع خارج المدينتين على نهر قد أحدقت به البساتين، وهي كثيرة الأشجار والفواكه، طيبة الغذاء جيدة الهواء، يمتاز أهلها عن غيرهم في نضارة ألوانهم ونعومة أجسامهم، ومراعيها أنجع المراعي وأصلحها للظلف والحافر، ينتهي شحم شاة من شياههم مئتي أوقية... وعلى مدينة طريق المارة والصادرة من بلاد المشرق إلى سجلماسة وغيرها من بلاد المغرب هكذا ولقد بقيت المدينة مدة من الزمان بين أيدي الطامعين والمتمردين إلى أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، بعد تأسيس دولة المرابطين، حيث استطاع الأمير يوسف بن تاشفين من فرض نفوذه على كافة أنحاء المغرب حتى نهر ملوية : ومن ثم دخل مدينة وجدة سنة 1079م. وعمت سلطته جبال بني إيزناسن كما افتتح مدينة تلمسان في ملاحقته لفلول قبيلتي مغراوة وبني يفرن... ومن المؤكد أن المرابطين خلفوا بعض الآثار المعمارية في هذه المدينة تتمثل على الأقل في إقامتهم لبعض الأسوار الوقائية التي يشاهد الزائرون بقية منها في أعلى جبل المحصر الذي سيأتي عنه الحديث في سياق هذه الجولة.

وقد استأثرت مدينة وجدة باهتمام دولة الموحدين حيث تولى الخليفة أبو عبد الله الناصر. سنة 1208م. إعادة بناء سور المدينة على نفقة بيت المال، أما في سنة 1272م. فقد تم هدمها عن آخرها بأمر من أبي يوسف يعقوب المريني، إلا أن أبا يعقوب يوسف قرر إعادة بنائها بعد ست وعشرين سنة، أي أوائل عام 1298م، وشيد بداخلها قصبة وقصرا وحماما ومسجدا، وفي سنة 1335 وقع تخريبها مرة أخرى على يد السلطان المريني أبي الحسن الذي قضى على كل ما كان يحيط بها من أسوار وحصون

1) ربما يشير البكري هنا إلى الحمة التي تعرف عند السكان بحمام بوحجر الواقعة على مقربة من مدينة «مغنية» المعروفة عند الرومان باسم (Numerus Syrorum).

وقلاع... وهكذا راح سكان المدينة يتناقلون أساطير مفادها أن مدينة وجدة وقع هدمها ست مرات عبر التاريخ، وأنه لابد من أن يتم تخريبها نهائيا في المرة السابعة، وذلك إما عن طريق حملة فيضانية لن يتراجع ماؤها إلا بعد اندثار معالمها، وإما بواسطة جيش عنيف يحاصرها حصارا شديدا، فلا يرحل عنها إلا إذا استسلم أهلها ووقع هدمها.

ومن الأسف الشديد أن كانت الطريق التي سلكها أبو عبد الله محمد العبدري الحيحي في رحلته الشهيرة إلى المشرق عبر المغارة الواقعة بين جنوب الأطلس ومدينة تلمسان، فلو كتب له أن يركب الطريق المارة بمدينة وجدة لأفادنا، حسب عادته، بجملة من الملاحظات الدقيقة والمشاهدات القيمة حول عوائد أهل المدينة ونظم معيشتهم وكيفية ترتيب أمورهم، كما كان يفعل كلما ألقى عصا السير بإحدى المدن في طريقه إلى المشرق، ومع ذلك فقد تعرض لذكر مدينة وجدة أثناء عودته إلى فاس بعد قضاء فريضة الحج، لكنه لم يكن مسهبا في حديثه عن هذه المدينة التي أجمع المؤرخون على أنها لعبت دورا طلائعيا عبر التاريخ، إنما اكتفى بقوله : «فبتنا به (أي بلد تلمسان) حتى خرجنا في الغد وأدركنا القافلة بوجدة، وهما مدينتان بينهما مسافة قليلة في بسيط مستو، وقد دثرتا، فلم يبق منهما إلا رسوم حائلة وأطلال مائلة، والقديمة أشدهما دثورا، وبهما عمارة قليلة، فرحلنا منها مع القافلة حتى وصلنا إلى رباط تازة».

ويقال أيضا إن هذه المدينة كان يحيط بها خندق واسع عريض ردا لهجمات الاعراب على أهل المدينة الآمنين كلما اضطربت الأحوال السياسية في البلاد وامتدت أيدي النهب والفساد خاصة إلى ذلك الإقليم... ووراء هذا الخندق الذي هو شبيه بتلك الخنادق التي كانت تحيط بقصور النبلاء خلال القرون الوسطى، كان يوجد سور المدينة الذي نشاهد اليوم منه بقايا في بعض أنحاء المدينة، وإن كانت هذه الأجزاء تعود إلى المنجزات التي قامت بتحقيقها الدولة العلوية الشريفة.

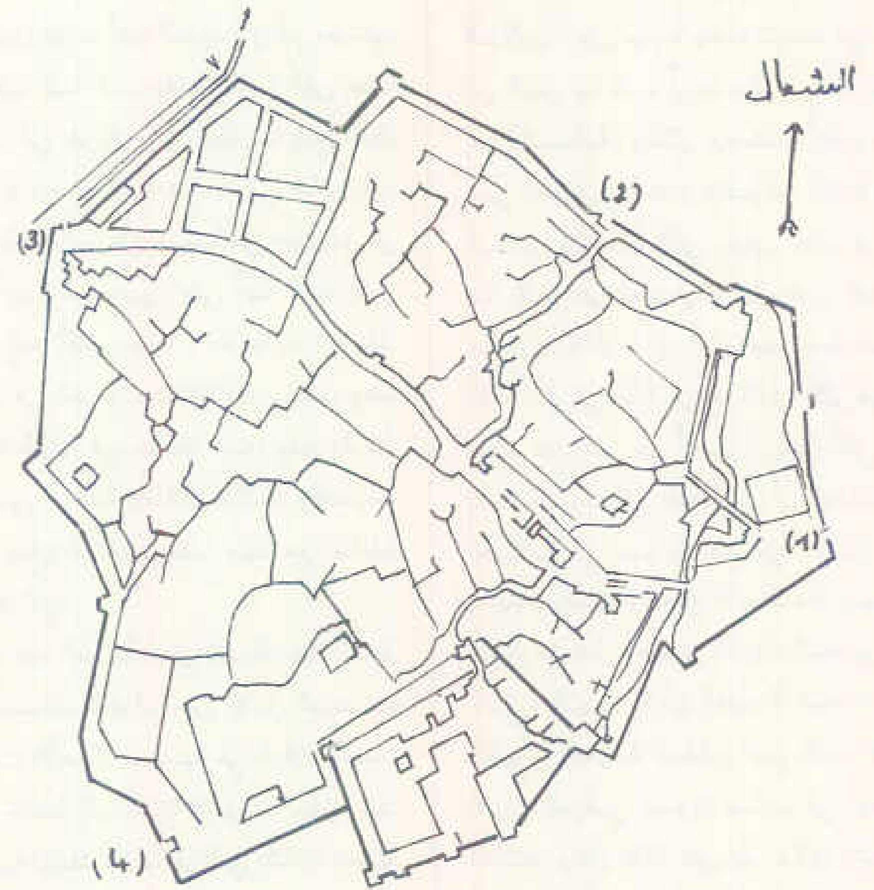
وهنا يحسن بنا قبل أن ننتقل إلى ذكر ما اشتملت عليه المدينة من آثار تستحق الذكر أن نضيف إلى ما وصفها به عبيد الله البكري ما رواه عنها رحالة آخر عرف هو الآخر بصدق الحديث ودقة الملاحظة، هو أبو الحسن محمد الوزان الغرناطي الفاسي في كتابه «وصف إفريقيا» حيث قال : «إن هذه المدينة بنيت في سهل واسع بسيط تحيط بها البساتين والحدائق حيث تنبت أنواع الفواكه والخضر على اختلاف أشكالها». ويقول عنها «مارمول» (Marmol) الذي كان يعيش آخر القرن السادس عشر الميلادي : «إن مدينة وجدة شيدت في بقعة مبسطة، تبعد عن البحر بما قدره أربعة عشر فرسخا، وتفصلها عن تلمسان نفس المسافة، وتكثر بوجدة الأراضي الفلاحية التي تنتج شتى الحبوب والخضر والفواكه لكثرة ما يحيط بها من البساتين والحدائق التي يسعى أهلها في سقيها بفضل عين ماء تقع على بعد ميل شمال غرب المدينة (1). ويزيد «مارمول» قائلا : «إن أهل المدينة طالما تعرضوا لهجمات القائد التركي «بابا عروج» الذي أكثر فيها الفساد، كما أمر بقطع عدد كبير من أشجار الزيتون التي كانت تعطر أجواء المدينة». ويحكى المؤرخون أن المدينة كثيرا ما تعرضت لحملات بني عبد الوادي من تلمسان محاولة الاستيلاء عليها، وكثيرا ما وقع الاصطدام بينهم وبين جيوش بني مرين من قبل وجيوش الشرفاء السعديين على ضفاف وادي «اسلي» الشهير، إلا أن الغلبة كانت في آخر الأمر إلى الجيوش المغربية المظفرة التي اقصت جيوش الأجانب عن التراب الوطني بصورة نهائية في أيام الدولة العلوية الناشئة، وكان ذلك على يد مولاي رشيد إثر انتصاره على أخيه مولاي محمد بسهل إنجاد... ويلاحظ أن مولاي إسماعيل العلوي هو الذي تولى إعادة بناء سور المدينة وما

2) العين المذكورة هي التي تنبع بواحة «سيدي يحيى» الذي سيأتي عنه الحديث فيما بعد، والملاحظ أن عطاءها أصبح ضئيلا لا يفي بحاجة السكان كما أن حركة البناء التي عمت المدينة وضواحيها كانت قضاء مبرما على ذلك الحزام الأخضر الذي كان زينة للمدينة.

تهدم من قصباتها، كانت تضم أربعة أو خمسة آلاف نسمة فقط سنة 1844 عندما دخلها الجنرال «بيجو» (Bugeaud) مهاجما الجيش المغربي بقيادة سيدي محمد بن عبد الرحمان، والتحم الجيشان فوق ربوة على مقربة من المدينة في معركة حامية كتب فيها النصر للجيش الفرنسي وذلك يوم 14 غشت 1844.

أما سور المدينة الحالي أو ما بقي منه في بعض جهات المدينة فيعزي بناؤه إلى العامل إدريس بن يعيش، وقد شرع العامل المذكور في عملية البناء في أواسط أكتوبر من عام 1895 ولم تنته إلا بعد سنتين على وجه التقريب.

ومما يذكر أن أهل المدينة ساهموا بتبرعات بلغت 25.000 فرنك بينما خصصت الدولة لإنجاز المشروع ما قدره 50.000 فرنك، وقد وجه العامل عناية خاصة لإتمام أسوار القصبة لأنها كانت تحتضن سكنى أول موظف للدولة ومكاتب الإدارة المخزنية، وحرص المكلفون بإتمام هذا البناء على أن تكون هذه الأسوار سميكة عريضة، من شأنها أن تقي السكان شر هجمات المعتدين الآثمين كما خصصوا في كل جهة من الجهات الأربع داخل السور بوابة واسعة كانت تقفل ليلا حرصا على أمن المواطنين ولا تفتح إلا في الصباح، وهذه البوابات الأربع هي :

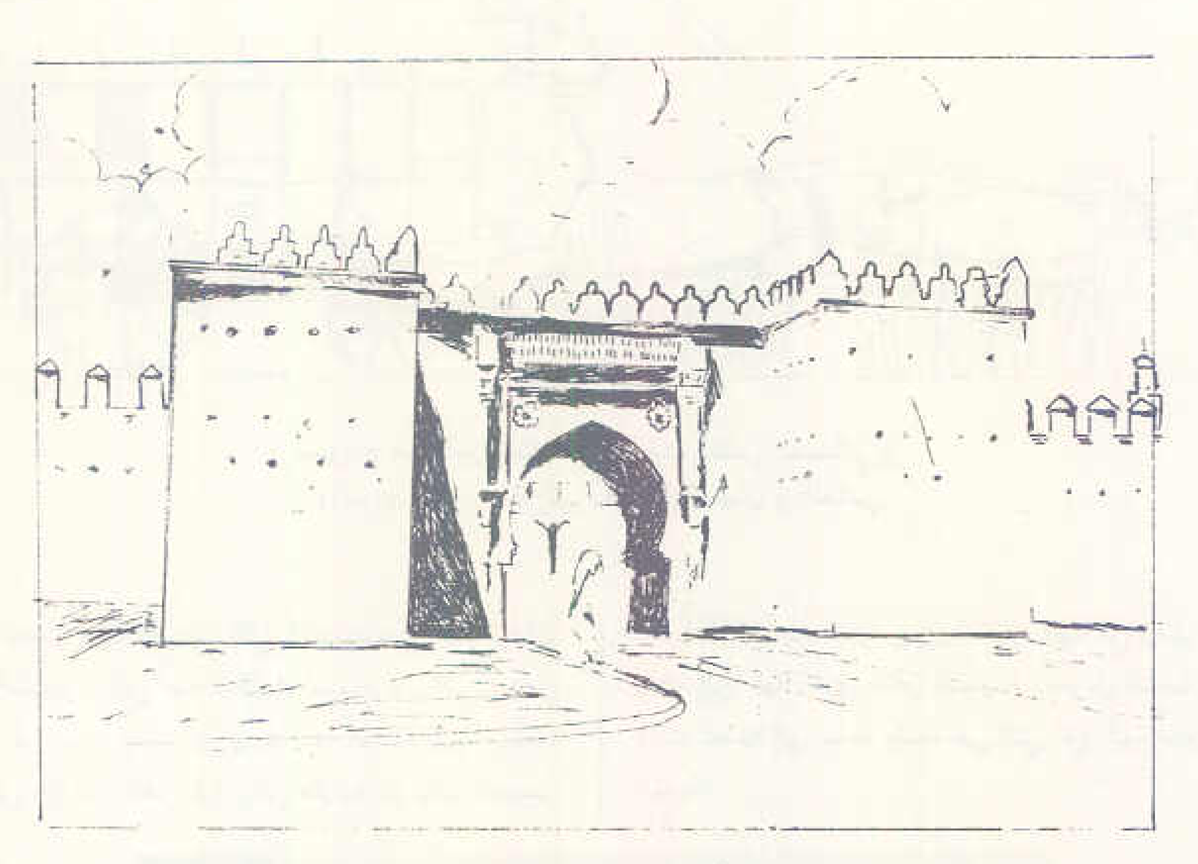


رسم لمدينة وجدة كما جاء في كتاب النقيب «فوانو» (Voinot) ص 30 و31.

(1) باب سيدي عبد الوهاب.
(2) باب اولاد عمران.
(3) باب الخميس.
(4) الباب الغربي.

1 ـ باب سيدي عبد الوهاب (3).
2 ـ باب أولاد عمران (4).
3 ـ باب الخميس.
4 ـ الباب الغربي.

أما باب سيدي عبد الوهاب فتعتبر الممر الرئيسي الذي يفضي بالمارة إلى أسواق المدينة ودكاكينها، وأقواس هذا الباب مرتفعة ووجهته الخارجية مزخرفة جميلة، كان العمال يعلقون عليها رؤوس المتمردين خاصة في أيام



باب سيدي عبد الوهاب

الفوضى التي أشعل نيرانها الخائن الثائر أبو حمارة الزرهوني في أيام السلطان عبد العزيز وأخيه مولاي عبد الحفيظ، أما تلك الساحة الكبرى التي تواجه الباب من الخارج فيغشاها عادة سكان البادية الذين يفدون على المدينة مرة في الأسبوع لقضاء حوائجهم من بيع وشراء، من تلك الأسواق المنبثة خارج المدينة هنا وهناك كسوق البهائم وسوق الحبوب وسوق الفحم إلى غير ذلك من الأسواق... وكان

يرد على المدينة من حين لحين قصاصون وشعراء ملحون، فينتحون جهة من الساحة التي تقع فيها تلك الأسواق حيث يستطيع الناس أن يتجمهروا من حولهم للاستماع إلى أخبار الصحابة الكرام وفرسان العرب تارة، أو ينقلون إليهم تارة أخرى خبر انتصارات بطل الريف الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي في كفاحه المظفر ضد الجيوش الإسبانية المعتدية.

3) لا يزال هذا الباب قائما حتى الآن.
4) باب أولاد عمران و باب الخميس وقع هدمهما ابتداء من العشرينات.

أما باب أولاد عمران فمنه يخلص الساكنون عادة إلى مساكنهم في قلب المدينة العتيقة بعدما تقفل الدكاكين أبوابها وينتهي الناس من أعمالهم اليومية.



نموذج من العربات التي كانت تنقل المسافرين والبريد من وجدة إلى مغنية وتلمسان وبالعكس

وهناك باب الخميس التي كانت تقف بجانبه عربات الجر العمومية التي أعدت لنقل المسافرين والبريد من وجدة إلى مغنية وتلمسان، تجرها ستة أحصنة قوية مومنة، لا تعيى ولا تمل الطريق، وعلى مقربة من باب الخميس هذا كانت توجد مقبرة يهودية تقرر نقلها في أوائل سنة 1930 إلى جهة أخرى ظاهر المدينة وتحويل البقعة التي كانت تحتلها إلى ساحة واسعة هي التي تقع اليوم أمام قصر البلدية.



الباب الغربي

وأخيرا هناك الباب الغربي الذي يفضي بنا إلى الطريق الذاهبة إلى فاس، وقد يلاحظ الزائر على مسافة أمتار من هذا الباب حديقة صغيرة مثلثة الشكل، غرست من قبل بأنواع الزهور والرياحين، ويعود الفضل في تخطيطها إلى ثلة من المهندسين الألمان ممن وقع عليهم القبض خلال الحرب العالمية الأولى حيث استغلت فرنسا مواهبهم الفنية لتحقيق عدة مشاريع عمرانية هنا وهناك، منها تلك الحديقة التي سبقت الإشارة إليها والقنطرتان المعلقتان اللتان توجدان على الطريق العمومية الذاهبة من الرباط إلى الدار البيضاء (5).

وهنا تجدر الإشارة إلى ذكر بعض المعالم التاريخية - وهي كثيرة متنوعة - التي تحتضنها مدينة وجدة العتيقة أو التي تقع في ضواحيها، من هذه الآثار مجموعة من المغارات، تعرف عند السكان بغار الحوريات، وهذه المغارات تقع على بعد أربعة أميال تقريبا شمال المدينة بواحة معروفة تنسب للولي الصالح سيدي يحيى بن يونس، والواحة عبارة عن عين ماء جارية يقصدها السكان على اختلاف أجناسهم وأديانهم لقضاء فترة راحة واستجمام إبان الربيع أو الصيف على ضفاف نهر سيدي يحيى آلانف الذكر. وكان السكان إلى زمن قريب يقصدون ضريحه في فترات معينة من السنة يلتمسون منه الوسيلة عسى أن يقضي الله بفضل بركة هذا الولي الصالح حوائجهم ويحقق أغراضهم، كان سيدي يحيى من المتعبدين الحواريين، ويقال إنه كان يحمل إسم يحيى (Jean) لأنه كان على دين النصرانية وكان يعيش في أيام السيد المسيح، وتقول الرواية إنه اضطر إلى الهجرة من الشرق إلى الغرب، فلما وصل إلى ظاهر مدينة وجدة استساغ جوها وأحب مناخها وقرر آنذاك أن يستقر بالمكان الذي يوجد قبره اليوم، وبعدما أدركته الوفاة انتقل أصحابه إلى المغارات التي توجد على ضفة النهر يعبدون الله فيها كما أمرهم بذلك... ويعتقد اليهود من أهالي المدينة أن سيدي يحيى كان يهوديا، وكان يعيش في بلاد الأندلس، ثم اضطر إلى مغادرة وطنه على إثر الحملة الاضطهادية التي أصابت المسلمين واليهود على حد سواء سنة 1391م. فحملت الأقدار إلى أن يستقر بضواحي مدينة وجدة، في مكان ضرب فيه الأرض بيده بحثا عن الماء، فتفجرت منها ببركته عين ماء جارية صار الناس يشربون منها ويستصلحون ما بقي منها في سقي أراضيهم حتى عادت كالجنان، وتروي الرواية اليهودية قائلة أيضا أن نسبة سيدي يحيى إلى يونس باعتباره أباه أنما هي من اختلاف المسلمين الذين جرت رغبتهم إلى تملك هذا الولي الصالح، فحولوا إسمه من سيدي يحيى إلى سيدي يحيى بن يونس.

ومهما يكن من أمر هذه الرواية سواء صحت أم لم تصح فالغاية من ذلك كله هو أن يتولى المهتمون بالحفريات في بلادنا هذه المغارات وغيرها بعنايتهم واهتمامهم البالغ، فلو أجريت فيها عملية الحفر والتنقيب لاسفرت عن نتائج قد تساعدنا على فهم المقصود من هذه الكهوف واستطعنا كذلك إلى أن نرد ما يجري حولها من أساطير إلى إطاره الحقيقي، والذي يمكن إقراره هنا بكل تأكيد هو أن هذه الكهوف كانت مستقرا لسكان بدائيين كانوا يعيشون في تلك الجهة من البلاد طوال حقبة طويلة من الزمان...

هكذا ويوجد في قلب مدينة وجدة جامعها الأعظم الذي يقترن بناؤه بعصر المرينيين، وبه صومعة بنيت بالآجر الأحمر الجميل، زينت بحزام من الفيفاء على الطريقة المعمارية المتبعة عندهم، وبإزاء هذا المسجد الحمام العتيق الذي يعود تاريخ بنائه إلى أوائل القرن التاسع عشر الميلادي (1820)، ومن الأساطير التي يتندر بها الشيوخ والصغار فيما يتعلق بهذا الحمام أن الماء الذي يجري بداخله يأتيه من نهر الولي الصالح سيدي يحيى بن يونس نفسه، ومن أجل هذا فهو يورث الخير والبركة كل من دخله من المستحمين، وغني عن البيان أن الأمر لا يعدو أن

5) وتقع أولى هاتين القنطرتين على وادي «ايكم» قرب مدينة الصخيرات والثانية على وادي الشراط قريبا من مدينة «بوزنيقة».

يكون من صنع مخيلة السذاج الذين يحلو لهم أن يضيفوا من خيالهم إلى كل شيء يحرصون على الاستفادة منه والتبرك به (6).

ومن الآثار التي يحق للباحث أن يقف عندها ويسألها عما انجبت من الأطر اللامعة، المدرسة الأهلية التي تقع على مقربة من ضريح سيدي زيان، وهي مؤسسة بنيت سنة 1907، أي قبل الاحتلال الفرنسي بحيث كانت مزامنة للمدرسة الابتدائية الأولى التي بناها الفرنسيون بالدار البيضاء في السنة نفسها. ومما أذكر أن هذه المدرسة كانت مفتوحة في وجه الذكور والإناث من المسلمين واليهود، وكان القائم بشؤونها رجل مرموق إسمه أحمد بناصف، وكان في الوقت نفسه يقوم بوظيفة الترجمة بالقنصلية الفرنسية إلى أن تحولت فيما بعد إلى مقر رسمي لرئاسة حاكم الناحية. وإلى السيد أحمد بناصف هذا عهد كذلك بالاشراف على المدرسة العلمية التي كان مقرها بالمسجد الأعظم، واعتقد أن الوثائق المصورة والمكتوبة التي تتعلق بتاريخ تلك الفترة من حياة تلك المؤسسة العتيدة ما زالت بحوزة مديرية المدرسة حتى الآن. وهذه الوثائق التي لها قيمتها تشتمل خاصة على سجلات أسماء التلاميذ وعدد من الصور الشمسية لهيأة التدريس يتوسطهم السيد أحمد بناصف الآنف الذكر الذي كان، على ما يظهر، يتمتع بسمعة وذكر لدى المواطنين كافة، ومن بين الأسماء المرموقة التي قد يعثر عليها الباحث في تلك السجلات مبارك البكاي، الوزير الأول سابقا، والحبيب بنيخلف، ومحمد المهدي الحجوي، باشا المدينة سابقا الذي ازداد بمدينة وجدة خلافا لما كان يدعيه من أن ولادته كانت بمدينة فاس، تغمدهم الله جميعا برحمته و أسكنهم فسيح جنانه، ومن الأطر اللامعة التي تخرجت من هذه المدرسة أيضا أحمد عصمان الوزير الأول سابقا ورئيس مجلس النواب في الوقت الحاضر، أمد الله من عمره وغيرهم وغيرهم من كبار موظفي الدولة على اختلاف مؤهلاتهم العلمية وكفاءتهم الإدارية.

ثم هناك خارج الباب الغربي على بضعة أمتار فندق ومطعم كان يحمل إسم «مروك ـ أوطيل» (Maroc – Hôtel) حظي بنوع من الشهرة حيث كانت تقع بجانبه الدار التي



الأمير عبد الكريم الخطابي سنة 1925

احتضنت الوزراء المفوضين من لدن محمد بن عبد الكريم الخطابي سنة 1925، وقد حضروا إذ ذاك بوجدة للمشاركة في أعمال المؤتمر الذي دعا إلى انعقاده القادة الفرنسيون باتفاق مع الإسبان بحثا عن حل مرض للمشكلة الريفية. وكان من بين أعضاء الوفد الريفي الوزير محمد أزرقان، صهر ابن عبد الكريم وشخصيتان آخريان لم أذكر اسميهما،

---

6) ومما يحكى في هذا المقام أن الحمام المذكور يكون مرة في السنة مسرحا لمجموعة من الجن، يغشونه في الصباح الباكر في أشكال حيوانية كالمعز مثلا، ثم يشرعون في الاستحمام في ذلك الوقت الذي من المفروض ألا يضايقهم فيه أحد من بني البشر... وذات يوم بينما كان أحد الشيوخ داخل الحمام يغتسل إذ حول نظره صوب الذين كانوا يغتسلون بجانبه، فإذا به يرى أن أبدانهم أبدان معز ولهم أرجل في آخرها حوافر كحوافر المعز بالذات... ويصيب الرجل المسكين ذعر وهلع، ويهم بالخروج على الفور متوجها إلى الدكة التي يجلس عليها صاحب الحمام ليستفسره عن غريب ما شاهد من قبل، فلا يزيد صاحب الحمام عن أن رفع أمامه رجليه قائلا : أهكذا كانت أرجلهم ؟ وكان صاحب الدكة طبعا واحدا من الجنون الذين حضروا إلى الحمام في الصباح الباكر. وإذا بصاحبنا يسقط فوق الأرض مغشيا عليه. هذه الأسطورة وشبهها ما يزال الناس يتناقلونها إلى اليوم في إعجاب بحمامهم العتيق.

وكنا ونحن صغار نشاهد أعضاء الوفد الريفي يتوجهون كل صباح إلى مركز المراقبة للاجتماع بالممثلين... وكانت الحرب على أشدها أول الأمر مع إسبانيا، وكانت القبائل الريفية الباسلة قد حققت انتصارات باهرة على الجيش الإسباني، خصوصا في معركة أنوال الشهيرة التي ذهب ضحيتها الجنرال سيلفستر (Sylvestre) اضافة إلى مقتل عشرين ألفا من الجنود الإسبانيين في بقعة أصبحت تحمل إسم الجبل الأحمر (Monte Rojo) وآلاف الأسرى الذين وقعوا في قبضة القيادة الريفية العليا التي استولت اثر تلك الهزيمة الشنيعة على كمية هائلة من الأسلحة والعتاد الحربي.

ولابد من التذكيرفي هذا المقام أن هذه الأحداث التي مرت ما بين سنة 1923 وسنة 1924، أما بعد حلول سنة 1925 فقد كانت فرنسا قد انضمت بجيشها العرمرم إلى جانب إسبانيا باعتبارها أخت الكنيسة الصغرى، وهكذا ما فتئت تمهد لعقد مؤتمر وجدة الآنف الذكر علها تجد حلا للمشكلة القائمة... وفيما كان المفوضون المغاربة يتحدثون بأمانة وصدق، كان الممثلون الفرنسيون يجتهدون في إقناع وزراء ابن عبد الكريم بأنهم إنما جاءوا ليتحدثوا فقط باسم القبائل الشمالية التي ينتمون إليها، وأمام هذه المراوغة السافرة وجد المتفاوضون أنفسهم في طريق مسدود، مما أدى طبعا إلى فشل المؤتمر، وهكذا عاد الوزراء الريفيون من حيث أتوا، ولم تلبث نيران الحرب أن اشتعلت مرة أخرى سنة 1926 بين ابن عبد الكريم والجيوش الفرنسية يعززها الجيش الإسباني الذي لم ينس أبدا هزيمة أنوال إلى أن اقتنع زعيم الريف بالاستسلام حقنا للدماء، وكان أمر الله قدرا مقدورا.

ومما تجدر الإشارة إليه أن أشخاصا كثيرين كانوا يعملون أثناء سنتي 1925 و1926 على ربط الصلة ومتابعة الحوار بين الزعيم الريفي وهيأة الدفاع الفرنسية علهم يجدون مخرجا للحالة التي تردت فيه القضية الريفية، ومن بين هؤلاء المراقب المدني كابرييللي (Gabrielli)، حاكم مدينة تاوريرت على ذلك العهد، يساعده على القيام بتلك المهمة مترجم جزائري إسمه «بوزار»، وهو الذي ولد له بعد ذلك ولد نجيب أسماه عبد القادر، تيمنا باسم الزعيم الجزائري عبد القادر بن محي الدين... ثم يتابع عبد القادر بوزار دراسته بسرعة إلى أن يجتاز مرحلة التعليم العالي، ويصبح مراقبا مدنيا بقرية تاندرارة عام 1953 جزاء له على تشبثه بأسباب الحضارة الغربية بالإضافة إلى اعتناقه الجنسية الفرنسية، ثم لم تمض عليه إلا بضع سنين حتى تصيبه خيبة أمل مريرة وترمي به الأقدار في أحضان مكتب المغرب العربي بالقاهرة، وهناك تتوطد الصلة بينه وبين الزعيم الراحل علال الفاسي، رحمه الله، ثم يصبح - وكأنه كفر عما سبق - من مساعديه الأقربين مشاركا بذلك في اعداد جيش التحرير والمساهمة في تحقيق استقلال المغرب وراء بطل التحرير محمد الخامس، طيب الله ثراه ! يؤازره في أعماله الموفقة ولي عهده آنذاك جلالة الملك الحسن الثاني أيده الله وحقق لشعبه الوفي ما يتمناه.

ولا يفوتني أن أشير إلى الطريق الرومانية التي كانت تربط مدينة مغنية (Numerus Syrorum) (7) الواقعة على الحدود الجزائرية بالأقاليم التي كانت تحت نفوذ الرومان بموريطانيا الطنجية مرورا بمدينة وجدة، ولا يمكن للباحث أن يحل بهذه المدينة ذات الماضي المجيد دون أن يرقى إلى سمعه خبر بقعتين لهما أهميتهما من الوجهة التاريخية، أولاهما تحمل إسم سيدي موسى، وكان الفرنسيون يطلقون عليها كلمة معسكر «روز» (Camp Rose)، وهي تقع صوب الجنوب الغربي من المدينة، على بعد ميل أو يزيد من الباب الغربي الآنف الذكر. وهذه البقعة هي التي عسكر بها الثائر «بوحمارة»، المدعو بالروقي، على اثر دخوله المدينة سنة 1320 هـ. حيث جعل يدعو لنفسه باعتباره أحد أبناء السلطان مولاي الحسن

7) أطلق عليها هذا الاسم لأن الجالية العسكرية التي كانت مرابطة هناك يعود أصلها إلى سوريا.

الأول، وسعيا من تملق سكان المدينة سارع بإصدار ظهير يسقط بمقتضاه عليهم ما كانوا يكلفون به من الضيافات، وكان الظهير المذكور على الشكل التالي :

الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد

خاتم بداخله

محمد (فتحا) بن الحسن

الله وليه ومولاه

«يعلم من كتابنا هذا اسماه الله وأعز أمره وجعل فيما يرضيه سبحانه طيه ونشره إنا أسقطنا عن خدامنا أهل وجدة ما كانوا يكلفون به من الضيافات لمن يرد عليهم من القبائل المجاورة لهم أو النائبة عنهم سواء وردوا في أمر مخزني أو غيره لأن الشرع لم يوجب على أحد من المسلمين ضيافة أحد، فلا سبيل لعامل ولا لغيره بإلزامهم بشيء منها كما أسقطنا عنهم مؤونة العامل، فلا يكلفون منها بقليل ولا كثير، على هذا يكون العمل، ومن خالف فلا يلومن إلا نفسه والسلام.

حرر به أمرنا الشريف المعتز بالله في 3 صفر الخير عام 1321 وكان أبو حمارة هذا يتسلم كمية من الأسلحة عن طريق مرسى السعيدية، يساعده على ذلك رجل مشبوه فيه، غريب الأطوار اسمه عبد الرحمان الأنصالي، كان يتقن اللغة الفرنسية ويقوم بدور الترجمة والكتابة لدى بو حمارة، يضاف إلى ما تقدم أنه لم يكن يخالط أحدا من المسلمين، لا قبل الاحتلال الفرنسي ولا من بعده، حتى إذا انجلى أمر للروقي وذهب إلى غير رجعة على يد السلطان مولاي عبد الحفيظ، أصبح السيد الأنصالي المذكور من كبار موظفي

مديرية الجمرك، بمدينة وجدة، بعد أن فرضت الحماية الفرنسية على البلاد...

ومعلوم أن السلاطين كانوا مهتمين أشد الاهتمام بقضية الأمن في البلاد، يتابعون عن كثب كل حركة قد يكون من شأنها أن تخل بالنظام أو تؤدي إلى إقلاق راحة السكان، ومن ثم تصدوا بقوة لقطع دابر جرثومة أهل الفساد، ظهروا في شرق البلاد أو غربها، وذلك اما بأنفسهم أو بواسطة القواد الذين كانوا يختارونهم لهذه المهمة بعد طول الخبرة والتجربة... وهكذا استطاع مولاي حفيظ من تشتيت شمل الثائر بو حمارة البغيض عام 1327 هـ (1909م) وأدخله إلى فاس في قفص من حديد، وهناك لقي المجرم جزاءه الذي يستحق «وكذلك نجزي المفترين».

هذا وتوجد بالجهة الموازية لربوة سيدي موسى التي خيم الروقي فيها ربوة أخرى تقع على مسافة ميل تقريبا من باب سيدي عبد الوهاب، وتعرف عند أهل المدينة باسم ظهر المحلة إشارة إلى أن الجيش المخزني كان يرابط فوقها كلما حل بالمدينة بقصد استخلاص الضرائب من السكان أو مطاردة بعض الثوار، حتى إذا وقع عليهم القبض حزت رؤوسهم وعلقت في أعلى باب سيدي عبد الوهاب، فتكون عبرة لمن يتدبر أو يخشى.



جبل المحصر الشامخ بأنفه إلى السماء على الطريق الذاهبة من وجدة إلى بوبكر

فإذا نحن انتقلنا إلى مدينة سيدي بو بكر المعدنية جنوب مدينة وجدة، استلفت نظرنا بعد مسيرة بضع كيلومترات صوب اليمين، جبل أشم منيف لا يستطيع أن يتسلق في يسر، له تاريخ طويل عريض يدعى جبل «المحصر» لأنه كان مسرحا لمعارك ضارية خاض غمارها على الأخص الزعيم الإفريقي يوقورطا (Iuquertha) في كفاحه المرير ضد الرومان، وذلك في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد، وكان يوقورطا شجاعا قوي الإيمان بوطنيته، طموحا لا تثنيه العقبات عن تحقيق أغراضه السياسية إذا كانت في صالح بلاده، ومن ثم عز عليه أن تؤول مملكة «نوميديا» (Numidie) على إثر وفاة عمه «ميبسا» (Micipsa) إلى ابني عمه، «حمصال» (Hiemsal) «وأذربار» (Adherbal) بينما لم ينله من ذلك كله إلا حظ قليل، ولذلك قر رأيه على أن يتخلص منهما معا عن طريق القتل أو الكفاح المسلح إلى أن تصبح مملكته منسحبة على جميع أراضي نوميديا ابتداء من «سيرتا» (قسنطينة الحالية) إلى وادي ملوية، لكن روما التي ما فتئت تعمل على اضعاف ملوك البربر بحملهم على تجزئة ممتلكاتهم (8) رأت بعين الفزع ما راح يوقورطا يسعى إليه من توحيد المملكة النوميدية وجمع شملها، ولم تلبث أن تصدت لمحاربة الزعيم

8) هي نفس السياسة التي يتبعها حكام الجزائر بالنسبة لصحرائنا المغتصبة.

الإفريقي بواسطة جيش كثيف يرأسه قائد ماهر إسمه «ماريوس» (Marius)، واحتدم النزاع وطال بين المعسكرين، وحظى يوقورطا أول الأمر بالفوز على الجيش الروماني، لكنه اضطر في الأخير إلى الانسحاب حتى بلغ ناحية المغرب الشرقي حيث تحصن بجبل المحصر الذي سبقت الإشارة إليه، حسب رواية المؤرخ الروماني «سالوست» (Salluste)، ومما يقال أن يوقورطا قد يكون اختزن الأموال التي كان يحملها معه في هذا الجبل بالذات نظرا لمناعته وشموخه، وما لبث يوقورطا أن تعززت مكانته السياسية والمعنوية بمصاهرته الملك «بوكوس» (Bocchus) الجالس آنذاك على عرش مملكة موريطانيا الطنجية، إلا أن هذا الأخير سرعان ما نكث العهد الذي ضرب على نفسه... وسلم زوج ابنته ـ وافضيحتاه ! ـ إلى القائد الروماني، وهكذا انتهت مقاومة يوقورطا للجيش الروماني مقابل إضافة الجزء الغربي من نوميديا إلى مملكة بوكوس... جزاء خيانته العظمى !

وجبل المحصر هذا جبل شامخ بأنفه إلى السماء، كما أسلفت، لا يستطيع المتجول أن يرقى إلى قمته إلا بعد مشقة وتعب، وإذا تمكن من ذلك استرعى انتباهه جملة من الأحجار والصخور الضخمة يظهر أنها بقية جدران لمخازن كبيرة كانت تستخدم لادخار الأسلحة والمواد الغذائية، أما مقدمة الجبل فتطل على البادية من علو كبير جدا لا يقترب منها المرء إلا أخذته نوبة من الدوران، في حين أن خلفية الجبل تنحدر رويدا رويدا إلى أن تلامس السهل المجاور للجبل. هذا وتوجد في رأس الجبل المذكور عين ماء جارية صافية مع بقية سور قد يعود تاريخه إلى زمن قديم، وهناك يبدو بوضوح أن الذين كانوا يستعصمون بقمة هذا الجبل كانوا يجدون في أنفسهم من القوة والمناعة ما يمكنهم من رد هجمات الأعداء بلا تعب شديد، بل كان باستطاعتهم أن يفرضوا سلطانهم على الذين يرغبون في اجتياز السهل الذي بنيت فيه مدينة وجدة.

وإذا ما عدنا على أعقابنا لنتوجه بعد إلى واحة «فجيج» المدينة المكافحة المسلمة أمكننا أن نتعرف على جملة من الرسوم المنقوشة على بعض الصخور بقصر «زناكة»، وهي نقوش يعود عهدها إلى عصر ما قبل التاريخ...

وفي اتجاه شمال مدينة وجدة، على مسافة خمسة وثلاثين ميلا، على وجه التقريب، أو بعبارة أدق في منتصف الطريق الذاهبة من «أحفير» إلى مدينة «بركان» تستوقف الباحثين بعض انقاض لمدينة جراوة، وهي مدينة قديمة يقال إنها تعرضت قديما لكارثة طبيعية، فغاصت في جوف الأرض ولم يبق منها إلا هذه الأطلال، ولمدينة جراوة شهرة وصيت، وقد وصفها أبو عبيد الله البكري في كتابه «افريقيا والمغرب» بقوله : «من وادي ملوية إلى مدينة جراوة مرحلة، ومدينة جراوة في سهل من الأرض عليها سور متين بالطوب، وداخلها قصبة وحولها أرباض من جميع جهاتها وعيون ملحة، وداخلها آبار عذبة وخمس حمامات، أحدها ينسب إلى عمرو بن العاصي (!)، وجامع من خمس بلاطات على عمدة حجارة أسسها أبو العيش بن إدريس بن محمد سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسن سنة 259 هـ، وكان لها بابان شرقيان وثالث غربي ورابع جوفي وحولها بسائط عريضة للزرع والضرع، وحول جراوة عدة قرى لقبائل من البربر مطفرة وبنى يفرن ودانة... ولجراوة مرسى «تافدجنيت».

وعلى مقربة من مدينة جراوة الدارسة توجد عين ماء دافئة تسمى عين «فزوان»، يقال إن ماءها شبيه بماء سيدي حرازم الواقع قرب مدينة فاس، فإذا ما تابعنا سيرنا في اتجاه مدينة بركان الغنية بمزارعها، المعروفة بخصب أراضيها ونشاط أهلها وجدنا أمامنا عين ماء تدعى عين «الرقادة» (source intermittente) لأن ماءها يغيض بصورة متقطعة من الأرض، وهذه العين كانت معروفة عند الرومان، ولاشك أنهم استفادوا، كعادتهم، من خصائصها الطبيعية بدليل تلك الآثار التي وجدت بجوار العين، منها المائدة المقدسة التي وقع نقلها، قبل سنوات، إلى متحف الآثار القديمة بالرباط، ثم هناك ضريح مرموق بين مدينة

بركان وقرية الصفصاف يقال إنه يضم رفاة إحدى بنات السلطان المقدس مولاي إسماعيل العلوي، هذا الضريح يحيط به سور من الطوب أكثره متهدم.

أما من الوجهة الشرقية فتوجد على شاطئ البحر المتوسط مرسى السعيدية التي تمتاز بقصبة جميلة أمر بتشييدها مولاي الحسن الأول، على يد عبد المالك، عامله على مدينة وجدة آنذاك، ومعلوم أن الروقي بوحمارة كان عن طريق هذا الميناء يتسلم الأسلحة والعتاد الحربي لمتابعة أعماله التخريبية في الإقليم الشرقي إلى أن تغلب عليه الجيش الحفيظي في 20 غشت سنة 1909، وبعد مواصلة السير في اتجاهنا نحو وادي «زقزل» نجد أنفسنا بمدينة «تافوغالت» الجبلية التي عرفنا التاريخ بمواقفها البطولية النادرة ودفاع سكانها الأشاوس بشجاعة وإقدام عن حوزة الوطن، ذلك أنهم يعتبرون الجهاد تعبدا وخير سبيل لرد هجمات الطغاة المعتدين. وبهذه المدينة توجد مغارتان لهما تاريخ طويل، أولاهما تسمى مغارة الحمام (La grotte du pigeon)، تقع على مسافة خمسمائة متر من المدينة وعلى سبعمائة وخمسين مترا فوق مستوى سطح البحر. وقد أدت الأبحاث التي أجريت بهذه المغارة عن طريق دراسة نظام طبقات الأرض فيها بواسطة كاربون 14 إلى أنها كانت مسكونة منذ ما يزيد على ثلاثين ألف سنة، والذي تولى القيام بهذه الأعمال التنقيبية هو الأب روس (L'Abbé Roche)، عضو المركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي الذي استخلص من دراسته لهذا الموقع أن معظم سكان المغرب الذين استقروا في نهاية المطاف على سهول ساحل المحيط جاءوا في أغلبيتهم من آسيا مرورا بهذه المغارة، ومن المؤكد أنه سبق لهم أن حطوا بها رحالهم لمدة سنين قبل استئناف مسيرتهم نحو المحيط، وممن اهتم بتاريخ هذه المغارة أيضا رهيب آخر يدعى الأب «بيافينو» (Le Père Bienvenue) الذي كون لنفسه متحفا له قيمة تاريخية تذكر، جمع فيه الشيء الكثير من الأدوات الحجرية والعظمية كالمجارف والمحكات والمداعيك والقذائف والماحق وشظايا الأحجار والابر والمداك والأسنة وجملة من المسامير إلى غير ذلك من الأشياء التي عثر عليها في مغارة الحمام والتي كان سكان المغارة يستعملونها في حياتهم اليومية، وهذه الأدوات تعطي الباحثين نظرة واضحة على مستوى حياة أولائك السكان البدائيين ومقدار تقدمهم من الوجهة التقنية والفنية، يبقى أن النية مازلت معقودة على إعادة النظر في تأسيس متحف يليق بتاريخ هذه المغارة الحافل كي تجمع فيه كل ما وقعت عليه يد الباحثين من أدوات أركيولوجية قد تفتح أمامنا السبيل لتعميق معلوماتنا المتعلقة بهذه الحقبة من تاريخ بلادنا المجيد.

أما المغارة الثانية التي تدعى مغارة الجمل (La grotte du Chameau) فهي لا تبعد كثيرا عن مغارة الحمام، إلا أن يد التنقيب لم تمسها بعد، على ما نعلم، وهي عبارة عن كهف واسع وسط جبل عال، تصب بداخله ماء عين سلسبيل، فيتكون منه في جوف الجبل نفسه بحيرة واسعة يتدفق ماؤها إلى الخارج فوق أحجار ضخمة متناثرة هنا وهناك، ومن الملاحظ أن التجويف الذي أحدثه الماء داخل الجبل يمتد إلى القمة بحيث يتبارى أطفال تلك الناحية المعروفين بخفة الحركة صعودا إلى أعلى الجبل، ومنه يدخلون الفواهة التي تقع في القمة ومنها ينحدرون شيئا فشيئا إلى أن يدركوا الفواهة السفلى التي يسيل منها الماء. وخلاصة القول فإن الناحية غنية بآثارها لا تنتظر إلا من يهتم بالوقوف عليها واستكشاف أسرارها.

ولنعد الآن إلى مدينة وجدة لنخرج منها متوجهين نحو قرية النعيمة ومنها إلى مدينة العيون، عيون سيدي ملول، ثم منها إلى مدينة تاوريرت المعروفة أيضا عند قدماء المؤرخين بالكدية، في منتصف الطريق بين وجدة والنعيمة لا تنفك أن تتراءى لك كتلة من الصخور والأحجار، تحسبها طائفة من المدعوين في طريقهم إلى وليمة عرس، هناك بالفعل أسطورة رائجة بين الناس مفادها أن جماعة من القوم أتوا منكرا في الزمن القديم بينما كانوا متوجهين إلى حفلة زفاف، وإذا بهم يستحقون اللعنة فتتحجر أجسامهم بغتة ومن ثم عرفوا باسم «العروسة الممسوخة» (La Noce PÉétrifiée). أما مدينة العيون فتميزها



العروسة الممسوخة

قصبة جميلة متهدمة تنتظر بفارغ صبر يد الإصلاح والترميم، وتاريخها يعود إلى القرن السابع عشر الميلادي أي إلى عهد مولاي إسماعيل الذي نعرف حرصه الشديد على تحقيق الأمن في كافة ربوع المملكة، ومن ثم حرصه على تشييد مجموعة من القلاع والقصبات في كل جهة تقيم فيها حاميات عسكرية قادرة على رد أعمال الشغب والاضطراب كلما دعت الضرورة إلى ذلك، وانطلاقا من مدينة العيون نصل دون مشقة إلى تاوريرت ذات التاريخ الحافل التي يُسميها عبيد الله البكري الكدية، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ولقد اشتهر أمر هذه المدينة من قديم الزمان خاصة أثناء الحملات التي قاد صفوفها القائد الروماني ماريوس ضد يوقورطا الزعيم المغربي الشهير حينما اضطر هذا الأخير إلى الاعتصام بجبل المحصر، كما أسلفنا، أو بالكدية - وهي الربوة التي يراها الزائرون على مقربة من المدينة، وذلك بحسب تعبير «ساللوست» نفسه المؤرخ الروماني الذي يحدد موقع الجبل الذي يكون قد اعتصم به يوقورطا بأنه يقع على مقربة من وادي ملوكي (ملوية)، وكذلك ذاع صيت مدينة تاوريرت أيام الحرب الضروس التي خاض غمارها بطل الريف ضد الجيوش الإسبانية يدعمها جيش عرمرم من الجنود الفرنسيين مما حول المدينة إلى مركز للاستخبارات ومكان مفاوضات بين الطرفين المتنازعين أدت في الختام إلى عقد مؤتمر وجدة الذي حضره طائفة من الصحفيين الأجانب من بينهم الكاتب الإنكليزي الشهير وليام هاريس (William Harris) صاحب كتاب «المغرب المختفي» (Le Maroc Disparu).

ولنعرج الآن، في آخر هذه الرحلة القصيرة، على قرية جميلة اختبأت بين الجبال، كما لو خشيت أن تمتد إليها عيون المارة، في مكان آمن يكثر فيه الضرع والزرع، تلك هي مدينة «دبدو» التي تبعد بنحو أربعين ميلا نحو الجنوب الشرقي من مدينة تاوريرت، وباعتبارها جاءت في مكان منفرد بعيد عن الجادة الكبرى التي تربط فاس بالاقليم الشرقي فقد التجأ إليها اليهود منذ القديم، خاصة منهم أولائك الذين وقع عليهم الطرد، فاضطروا إلى الهجرة من الأندلس إلى المغرب أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، فاتخذوا مدينة دبدو لأنفسهم دارا مع بقية السكان من المسلمين الذين كانوا يعاملونهم على الدوام معاملة المواطنين الصادقين. وتوجد بالمدينة عين ماء صافية يسميها اليهود عين «سبيلية»، والكلمة محرفة بالطبع عن لفظة اشبيلية الأندلسية، وهنا يذكر المتتبعون لمراحل تاريخ المغرب المعاصر تلك الجولة الاستطلاعية التي قام بها الأب «دون فوكو» (Le Père De Foucauld) فيما بين سنتي 1883 و1884 عبر عدد من الأقاليم المغربية بغية التعرف على وضعية البلاد الاقتصادية والاجتماعية تمهيدا للهجوم المبيت من طرف فرنسا على المغرب، وقد تم لها ما كانت تريد من احتلالها للقطرين الشقيقين الجزائر وتونس. واستطاع «دوفوكو» هذا أن يصل، متنكرا في لباس تاجر يهودي إلى مدينة دبدو التي كانت في ذلك الوقت تشتمل على جالية يهودية كبيرة، وتعرف على حاخام الجالية الذي قدم الطعام والمأوى طيلة المدة التي قضاها في المدينة، وقد دلني رئيس الجالية اليهودية على الدار التي كان يسكنها «دوفوكو» والسرير الذي كان ينام فيه... ومما يلفت الانتباه بتلك المدينة وجود مقبرة يهودية عتيقة يعود تاريخها إلى الأحداث الأليمة التي شهدتها بلاد الأندلس بعد قرار الطرد الجماعي الذي أصدرته محاكم

التحقيق في حق المسلمين واليهود على حد سواء، والمقبرة المذكورة تضم عددا من القبور عليها رخامات مرمرية ضخمة كتبت عليها عبارات باليونانية والعبرية معا، فإذا ما تركنا المدينة مولين وجوهنا صوب مدينة تاوريرت استوقفتنا، على بعد ثلاثين كيلو مترا من دبدو بقية قبة ومحراب متهدم من الممكن أن ينسبا إلى مسجد أو زاوية كانت تقوم بذلك المكان، ثم هناك مغارتان لم تمسهما لحد الآن يد البحث والتنقيب.

☆ ☆ ☆

وبعد، فإذا ما نحن حملنا أنفسنا مشقة جمع هذه الكمية من المعلومات التاريخية وإقرار ما يتولد عنها طبعا من حقائق ثابتة قد تفيد بالخصوص أولئك الذين يجهلون الشيء الكثير عن هذا الاقليم النائي فلأن هذه المعلومات بمثابة حضارة، ودليل تقدم بالنسبة لإقليم عريق عرف كيف يترجم عن وعيه الوطني في القريب والبعيد، ويعبر بالسيف، إن اقتضى الحال، عن إخلاصه للعرش المغربي على تعاقب السنين والاحقاب، ولكل هذا وذاك فالرجاء معقود على أن نزداد اهتماما بالمحافظة على هذا التراث القيم باتخاذنا للتدابير اللازمة لصيانته ووقايته من الضياع.

الرباط : محمد محي الدين المشرقي

المراجع

1) القرآن الكريم.
2) أبو عبيد عبد الله البكري.
«كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب»
طبع المكتبة الأمريكية الشرقية، سنة 1956 باريس.
3) رحلة العبدري تحقيق وتقديم وتعليق محمد الفاسي.

4) E. Lévy – Provençal
« Histoire de L'Epagne Musulmane » T. II
Ed. G.P. Maxonneuve x C^ie Leiden
Paris Ed. E. J. Brill
1950 Leiden

5) Léon L'Africain
« Dexription de L'Afrique » T.I et II
Ed. Librairie d'Amérique et d'orient – Paris 1956

6) Capitaine Voinot
« Oujda et L'Amalat » (Maroc)
Imp. Typographique et Lithographique. L. Fouque 1952 - Oran

7) L. Gabrielli
« Abdelkrim et les Evènements du Riff »
Ed. Atlantides – Casablanca 1953

8) Abbé J. Roche
« L'épipaléolithique marocain »
T.I (Texte) T.II (Planches)
Fondation Calouste Gulbenkian
Livraria Bertrand S.A.R.L. Librairie M. Didier
Portugal France

9) Histoire Génèrale des Téchniques : T.III L'Expansion du machines me
Presses Universitaires de France – 1968.



بين قصص الجنس والجريمة في كتاب والناشئين

تتصاعد اليوم في العالم الإسلامي صيحات مدوية تحاول أن تصف الفكر الإسلامي بالتقصير في توجيه الطفل المسلم وتحاول أن تسد هذا الفراغ بأن تقدم فكرا وافدا ملونا في مجموعات زاهية براقة من القصص الخرافية والأساطير والأشباح والجريمة لتسد هذا الفراغ المدعى في مجال الفكر الإسلامي.

وهذه الصيحة في حقيقتها لا تخرج عن المخططات التلمودية التي رسمتها بروتوكولات صهيون والتي نفذت بدقة في أوربا وأمريكا لاحتواء الطفل الغربي كاثوليكيا وبروتستنتيا) ليكون أداة طيعة لتقبل مفاهيم التربية الحديثة التي غرسها دبوي ومكدوجل وغيرهم وهي التربية التي ترفض رفضا باتا توجيه الطفل أو تقديم الاستشارة له أو تعليمه معرفة ربه أو دينه أو تهديه إلى أسلوب الخير الذي جاءت به رسالات السماء.

للأستاذ أنور الجندي

ولا ريب أن الصيحة لاحتواء الطفل العالمي قد بدأت منذ سنوات قليلة في نطاق المخطط الذي تقوم به الصهيونية العالمية لتنفيذ مخططها بالسيطرة على العالم عام 1992 أي بعد عشر سنوات من الآن ولقد بدأت هذه الخطة متعجلة مدفوعة إلى عشرات من الأعمال في وقت واحد من بينها تقديم الجنس نفسه إلى الاطفال وتقديم موسوعات كاملة عن الأعضاء الجنسية وعمليات الالتقاء بين الرجل والمرأة وتقديم الفكاهات والنكات المبتذلة المتداولة حول هذه العمليات وذلك لتعود الطفل منذ أيامه الباكرة على النظر إلى هذه المسألة نظرة طبيعية وبذلك تختفي تماما من مفاهيمه روح العرض والشرف والكرامة والغيرة والحفاظ

على ما لا يجوز كشفه من أدوات الجسم، ويبدأ أن المخطط يعارض تماما كل ماتدعو الأديان إلى الاحتفاظ به، ومنذ بدا هذا التيار المسموم الذي حمل لواء الدعوة إلى تقديم نظام جديد يركز على الطفل بدأت تتدفق على المكتبات في الغرب أنهار من الكتب عن عالم الطفل، وقد ركزت هذه المؤلفات على أمور أساسية : هي الجنس والعنف والعرى وسرعان ما وصلت هذه المؤلفات إلى بلاد الإسلام وترجمت وقدمت في طبعات ملونة على ورق فاخر، واستهدفت البلاد المتعددة وهي كلها تمجد المغامرة والعنف والاستقلال والتحرر وقد كان هناك تقدير واضح لنوع الكتب التي تقدم إلى المسلمين والعرب وهي كتب تعلي من شأن بطولة الرجل الغربي من أمثال (طرزان) البطل الأوربي القوي الذي يعيش في مجاهل وغابات افريقيا وهو بطل آلاف القصص والأفلام التي تخدم الاستعمار والتي تصور الغرب في صورة البطولة الخارقة بالنسبة للمسلمين والعرب الذين يعيشون في الأكواخ والفقر وكذلك صورة (جيمس بوند) رجل المؤامرات الذي لا يتحلى بفضيلة ما لأن الغاية عنده تبرر الوسيلة، وهو محمل بغرور القوة وغرور الثراء وهناك عشرات القصص الأخرى التي ترجمت وقدمها عملاء التغريب ودعاته في بلادنا العربية ونشرتها المكتبات المشهورة وهي قصص تحمل جراثيم الانحلال والرذيلة لأنها ترجمت عن كتاب غربيين إباحيون وتباع بأسعار زهيدة وقد صاحب هذا التيار الذي يبلغ الآن ذروته في البلاد العربية مجموعة أخرى من أفلام العنف والجريمة يقدمها التلفزيون في الأوقات التي يكون فيها الأطفال مستيقظون ومنتبهون إلى متابعته.

ومن هنا فنحن حين نخضع لهذا التيار التلمودي المفروض إنما نحقق هدف التغريب والفرز الثقافي وهو ما يضاد ما ترمي إليه التربية الإسلامية من حماية الطفل من الخوف وتأمينه النفسي وذلك من حيث لا ندري حين ندفع الطفل إلى الخوف فندمر أمنه النفسي.

وقد كشفت الأبحاث العلمية عن مدى خطر القصص التي تحمل صورة البطل الخارق للطبيعة (السوبرمان) وتقول الدراسات إن هذه الشخصيات لها مضمون واحد يدور حول محور واحد هو أن الحياة في أي مجتمع لا تقوم على الانسجام بين أفراده وإنما تقوم على تحدي المجموعة بعمل غير عادي، يذهل الجميع ويبهرهم وتهدف إلى تحقيق ذاتية الفرد بإخضاع الجماعة له، والحقيقة أن البطل الخارق للطبيعة غول «يجب إبادته وحماية الأطفال من تأثيره السيء على نفسياتهم، وأغلب مبتكري هذه الشخصيات يهود، وظفتهم الأوساط الصهيونية لإشاعة هذه السموم.

أما بالنسبة لمعرفة أثر أفلام العنف والجريمة على الأطفال وهم يشاهدونها على شاشة التلفزيون فقد التقى أكبر علماء النفس في العالم مع خبراء الشاشة الصغيرة في مؤتمر أقيم في فنلندا وكان أثر أفلام العنف على الأطفال واحد من المشاكل التي درسها خبراء هذا المؤتمر، وقدم أحد خبراء علم النفس والاجتماع خلاصة تجربته فقال : إنه جمع مجموعة من الأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين أربع أعوام وخمسة أعوام وعرض عليهم بعض أفلام الجريمة التي يعتدي فيها أبطال الفيلم على شخصية مهرج السرك ثم نقل هؤلاء الأطفال إلى قاعة جمع فيها بعض الألعاب ونموذجا لمهرج السرك وقبل أن يغلق باب القاعة ضم إلى هؤلاء مجموعة أخرى لم تشاهد الأفلام التي عرضها عليهم ومن مكان ما وقف يراقب تصرفات الأطفال وهم ينظرون إلى نموذج المهرج من بعيد والبعض الآخر اعتدوا عليه بالفعل كما شاهدوا وتبين من ذلك قاعدة أن الأطفال ميالون بطبيعتهم إلى التقليد وأنهم حسب البيئة التي نشأوا فيها فإذا تربوا على العنف نشأوا عليه.

كذلك فإن الخطر من مثل هذه القصص والأفلام أنها كتبت على نحو يرمي إلى تصغير الأمم في نفوس أطفالها وتكبير الأمم الغازية.

ولعل أخطر ما في هذه الغزوة التي يراد بها تدمير الأجيال المسلمة الجديدة هو تقديم قصص الخرافات والأساطير ومفاهيم السحر والمجون والإباحية من خلال المؤلفات التافهة.

ولا ريب أن هذه المحاولات جميعها تحول بيننا

وبين تشكيل أطفالنا تشكيلا إسلاميا وفقا لمفاهيم الإسلام وتعاليمه.

يقول باحث تربوي مسلم :

«فليس «العنف» من القيم التي نحرص عليها في تربية أطفالنا، كما أن المغامرة أيضا ليست من القيم التي نحب أن ينشأ عليها الأطفال ولو تأملنا الشخصيات التي اخترعها الغرب، مثل شخصية (ميكي ماوس) أو شخصية البحار (آكل البلم) لاكتشفنا أنها شخصيات مثيرة ولكنها تخلو من أي مضمون روحي أو أخلاقي إسلامي وذيوع هذه الشخصيات في عالمنا الإسلامي مع عدم وجود منافسة حقيقية تعني أننا نترك مهمة تسلية أطفالنا وتثقيفهم على عاتق الشرق والغرب ولا نقوم بدور أساسي في ذلك، مع أن الاهتمام بأدب الطفل فريضة دينية ومن المدهش أن الغرب مهتم بالكتب الدينية للأطفال يرسمها بالألوان والتصوير وهذا يقتضينا حراسة عقل الطفل المسلم عن طريق تقديم قصص لا يقل مستواها في الكتابة والطباعة والرسم عن قصص الغرب والشرق وليس هناك أعظم من قصص القرآن، وعلينا أن نقدم لهذا العمل جماعة الأبرار المخلصين الفاهمين للغايات العليا المقدرين للأخطار التي تنتاش أبناءنا (ومع الأسف فإن المتصدرين للكتابة للطفل اليوم بعد أن مات جيل كامل كيلاني، ويرانق وسعيد الديان هم إما غير مسلم لا يحمل مفهوما صحيحا للإسلام وإما من أتباع المذاهب الإباحية والملحدة) ولما كانت الكتابة للطفل أصعب من الكتابة لعالم الكبار ـ لأنه هو العالم الذي تذوب فيه الحواجز بين الواقع والخيال والذي يلعب الخيال دوره العظيم فإن كتاب أدب الطفل يجب أن يكونوا من أصدق الناس إيمانا بالدعوة الإسلامية.

ومن المحاذير والأخطار في كتابة القصص تلك المضامين التي تتضمنها هذه القصص والأسلوب الذي تكتب به والمستوى اللغوي والسن يقول الأستاذ علي الجديدي : إنه يجب تقدير مدى الضرر الذي يقع على الأطفال ما دون السادسة، إذا ما احتوت قصصهم مواقف الفزع والخوف وحوادث الرعب كقصص الجن والعفاريت والمردة والغيلان وما فيها من تعذيب وقتل للأطفال وسجنهم في الظلام دون طعام أو شراب أو مواقف السحرة ومسخهم الإنسان إلى حجارة وحيوانات أو الموضوعات الشريرة كقتل الإنسان والأطفال وطبخهم طعاما يؤكل، فهم يصدقون ما يقال، ومن ثم تشكل عندهم مفاهيم فاسدة عن السحر والجنيات والأساطير ويعيشون حياتهم في خوف ورعب شديد.

وأخطر من تلك القصص التي تمجد الجريمة والمجرمين، والخارجين على القانون وعلى نظام الإسلام والمجتمع، وتصوير القتل والنهب والجنس تصويرا بطوليا بمهارة تفتن الأطفال فيعشقونها ثم تدفعهم إلى التهور بتقليدها والقيام بمغامرات حمقاء.

ويقول : إن كتب المخاطر والمغامرات كتبت لتمجيد الرجل الأبيض وحضارته ومعتقداته ولترفعه إلى مصاف المثل والقدوة ولتضعه موضع البطولة دائما بينما تحط من شأن الشعوب الأخرى.

وهكذا فنحن نحذر تحذيرا شديدا من هذا الركام المطروح في السوق العربي من كتابات الأطفال المليئة بالسموم :

(سوبرمان وأرسين لوبين وشرلوك هولمز، ميكي، تان تان) والهدف هو تدمير المجتمع الإسلامي فالبروتوكول الثالث عشر من بروتوكولات صهيون يقول : لكي نبعد الجماهير من الأمم غير اليهودية عن أن تكتشف بنفسها أي مخطط عمل جديد لها سنلهيها بأنواع شتى من الملاهي والألعاب وسرعان ما نبدأ في الإعلان في الصحف داعين إلى الدخول في مباريات شتى من كل أنواع المشروعات كالفن والرياضة وما إليها.

ولا ريب أن كتب الأطفال وكتب المراهقين المطروحة الآن في السوق لا تتلاءم مع هدف مطالبنا لإعادة بناء مجتمع مسلم وفق شريعة الإسلام. إن كل ما ينشر في صحف الأطفال أو في كتبهم منقول ومترجم من مصادر أجنبية وهذه المجلات العربية كلها مجلات أجنبية مكتوبة باللغة العربية.

وقصص الأطفال الذائعة تحكي مشاكل مجتمع أجنبي وهي معارضة لمفهوم الإسلام وليس فيها أي حديث عن مجتمع المسلمين أو تاريخهم أو أبطالهم ولا تعالج مشاكل مجتمعات المسلمين.

وقد تبين لمؤسسة التربية الصحية في شتوتچارت بألمانيا الاتحادية نتيجة دراسة أجرتها بأن إفراط الأطفال في التفرج على التلفزيون يلحق بهم أضرارا جسيمة ويجمع الأطباء والأخصائيون في علم النفس على أن التهيج المتواصل الذي يمتلك الأطفال عند التفرج على التلفزيون مدة طويلة وعدم تفريقهم بين ما يشاهدونه على الشاشة من أفلام بوليسية وبين الحقيقة، يعمل على إلحاق الأضرار الجسيمة والتقيد بهم، وقال العلماء بأنه كثيرا ما يترك الوالدان أطفالهم يجلسون مدة طويلة أمام التلفزيون لشغفهم به، مما يسبب التوتر وفقد الهدوء والأرق وقلة تركيز الفكر والصداع وألماً في العينين وقال العلماء إنه لا يجوز ترك الأطفال يتفرجون على التلفزيون أكثر من ساعة في اليوم على أبعد تقدير، وألا يتوجب أثناء ذلك إلا على البرامج المخصصة لهم فقط. وقد استندت مؤسسة التربية الصحية في التقرير الذي قدمته في هذا الشأن على نتائج التحقيق الذي قامت به هيئة محطات الإذاعة الألمانية قبل أشهر قليلة، فقد تبين لها في ختامه بأن 15 ٪ من الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 8 سنوات و12 سنة وحتى الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 3 و7 سنوات يتفرجون على الأفلام البوليسية في البرنامج المسائي، هذا، كما وجد بأن خمس الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 8 و9 سنوات يتفرجون على التلفزيون أثناء تناولهم طعام العشاء وأعربت المؤسسة عن قلقها بعد أن تبين لها أن الأطفال غالبا ما يتفرجون على التلفزيون على انفراد، ولما كانت الأفلام البوليسية التي يشاهدونها تتخللها أعمال العنف وتثير الرعب فإنه يجب على الوالدين أن يكونوا مع الأولاد أثناء تفرجهم ليشرحوا لهم ما لا يستطيعون هضمه.

ومن هنا فإن على قادة حركة اليقظة الإسلامية التنبيه إلى هذه المحاذير والتقدم لملء هذا الفراغ. بتقديم أدب الطفل الإسلامي القائم على تقديم البطولة الإسلامية إلى الطفل الذي يحب البطولة والمخاطرة (سن 16 إلى 18) وان تقدم معها مفهوم الإسلام للمثل الأعلى في الإنسان كرامة وخلقا وسماحة وابتعادا من الفردية إلى الغيرية ومن الذاتية إلى الجماعية، وأن يدرس الطفل المسلم مفهوم رسالة الإنسان في الإسلام ومهمته على الأخص، ومسؤوليته الفردية والتزامه الأخلاقي وعمله في إقامة المجتمع الرباني والتعرف على البشرية كلها بروح الإخاء الإنساني والنظر إلى الحياة نظرة جادة بعيدة عن الأساطير والأشباح والخرافات، وعليه أن يعرف مدى التحديات التي تواجه المسلمين في هذا العصر لينشأ مسلحا بالإيمان متجها إلى النضال والكفاح والمقاومة وحماية الثغور والمرابطة حتى يسترد وطنه وأرضه المغتصبة وتعود **فلسطين وبيت المقدس** إلى المسلمين، وعلى هذه القصص أن تقدم باللغة العربية الفصحى بما يتناسب مع تدرجه في السن والتعليم، وأن تتبنى هذه القصص أول ما تتبنى في الطفل الإيمان بالله تبارك وتعالى الخالق الرازق الذي يتصرف في الكون كله (ألا له الخلق والأمر) فإن قيام هذا الإيمان في النفس هو الذي سيمكنه من أن يفهم الإسلام بوصفه منهجا جامعا للدين والدنيا، وللدنيا والآخرة وللروح والجسد، وللعلم والدين وإن من شأن هذا أن يحرسه من أن يقع في أفخاخ النظرية المادية والعلمانية والإباحية ومغريات الحضارة المادية المنهارة.

أنور الجندي

ناظر الوقف

للأستاذ
محمد بلعباس

8

الناظر... والموظف الديني...

إن من حق أي مسلم مومن أن يتولى الإمامة والوعظ والإرشاد والخطابة والتعليم عند توافر الأهلية العامة، والكفاية القادرة المبصرة، دون التوقف على إجازة مجيز، أو شهادة عالم، أو تزكية معهد، أو تقرير مرجع مختص... إذ الإسلام ليس بدين كهنوت، ولا يوسم بطقوس جافة ضحلة، فكل مسلم كان مستنير العقل، مستقيم السيرة، محمدة في الأفواه، وتوفرت فيه الأهلية العلمية والخلقية والاستعداد، إلا، وهو ذاك الرجل المسلم الذي يجد الأبواب أمامه مشرعة لو لوجها كبقية إخوانه المسلمين...

بيد أن تعقد الحياة البشرية، وتطورها ونموها نحو ضرورة الاختصاص، استدعى وجود جماعة متخصصة للعمل الديني، حفاظا على شعائر الإسلام... ولعل أهمها صلاة الجماعة...

ولئن كانت الوظائف الإسلامية قد تشعبت واحتاجت إلى متخصصين ومتفرغين من البشر، الذين يحتاجون كما يحتاج سائر البشر إلى الحاجيات والضروريات التي هي أد الوجود، وقوام الحياة، فيجب مع أهمية معالجة هذا الأمر، أن يبقى الأصل في الوظائف الإسلامية واضحا، وهذا الأصل هو أنها حسبة (1)، ففي كتاب «نصاب الاحتساب» : (2) إن الحسبة في الشريعة تتناول كل مشروع يفعل لله تعالى كالأذان والإقامة، وأداء الشهادة مع كثرة تعدادها، ولذلك قيل : القضاء باب من أبواب الحسبة (3)...

فمن كان غنيا، فليستعفف، وخصوصا إذا كان سيعف لمحتاجين، ومن كان عاجزا أو فقيرا، فلياخذ ما يكفيه، لتقويم الأود بمعروف، دون إفراط ولا تفريط...

فالإسلام لا يرى أن يتولى القيام بالوظيفة الدينية

1) عالج الدكتور محمد المهدي البدري أستاذ العلوم الشرعية بجامعة الإمارات العربية المتحدة قضية الاحتساب، فقال : «الحسبة هي القيام بالعمل الصالح ابتغاء وجه الله تعالى، أي احتساب أجره وثوابه من الله... ومن هنا جاء اسمها... لأن القائم بالعمل لا يطلب عليه أجرا وثوابا من أحد... وإنما يحتسبه عند الله...

2) «كتاب نصاب الاحتساب» للقاضي ضياء الدين البرني المحتسب البغدادي، وهو غير : «نصاب الاحتساب» للشيخ الإمام عمر ابن محمد بن عوض الشامي الحنفي، في الفتاوي، والذي يشتمل على أربعة وستين بابا، وفيه مسائل اختصت بالنسبة إلى حسب منصب الحسبة من كتب معتبرة...

3) «كشف الظنون» ص : 1/16.

رجال مخصوصون، فكل المسلمين رجل الدين...

بل إن التفرقة بين رجال الدين ورجال الدنيا من الأشياء التي لا يعرفها الإسلام، ولا يقرها، فكل رجل في نظر الإسلام يجب أن يكون رجل دين ودنيا، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، لأن الإنسان يتكون من جسد وروح، والجسد جزء من الدنيا يجب أن يعترف بها، ويخضع لقوانينها، والروح جزء من عالم الغيب الذي هو عالم الدين، لا يمكن أن تتنكر لمالك يوم الدين.

وقد علق المجاهد الكبير أمير البيان شكيب أرسلان على قول الكاتب الأمريكي «لوثروب. ستودارد» LOTHROP STODDARD مؤلف «حاضر العالم الإسلامي» حينما استعمل عبارة «رجال الدين» بالنسبة للمسلمين في الفصل الأول من الكتاب عن «اليقظة الإسلامية»، فعقب عليه قائلا : «كره صاحب الرسالة أن يعين وظائف دينية، يتولى القيام بها رجال مخصوصون، فالإسلام من حيث الأصل، لم تنص كتبه الشرعية مَن من المسلمين يتولى القيام بالوظيفة الدينية، على حد ما هو الأمر في النصرانية واليهودية والبرهمية وغيرها... فأي مسلم كان، يستطيع أن يقوم في المصلين إماما... بيد أنه على توالي الأيام، نشأت طائفة من القوم العارفين بالأصول الشرعية والفقه الإسلامي، ودرجت تولى المناصب الدينية، حتى عرفت، بالتالي، برجال الدين، ثم نشأت طوائف أخرى كطائفة «الدراويش» وأمثالها... على أن الإسلام لم يكن يعرف شيئا من هذا في أول عهده(4)...

على أننا قد نجد بعض الطوائف الإسلامية تخالف المبدأ العام فتخصص لشؤون الدين طائفة معينة...

ويعجبني كلام الكاتب الفرنسي الكونت دو غوبينو» Conte De GOBINEAU. صاحب كتاب : «الأديان والفلسفات في آسية الوسطى (5) «Les religions et les Philosophies dans l'Asie Centrale» الذي يقول عن الشيعة الإيرانيين : «...ولما كان وجود طبقة دينية خاصة ـ كما في الدين المسيحي مثلا ـ غير متفق مع مبادئ القرآن، ولا مع سنة الرسول، وكان كل من المسلمين بحسب الكتاب والسنة غير مقيد في عقيدته بأوامر رجال الدين، نزع هؤلاء المسلمون من العجم إلى طريقة جديدة، وهو أن يقولوا : إن القرآن لا تسوغ تلاوته ولا تفسيره إلا لعلماء الدين الذين يقال لهم اليوم «ملا» وهذا منزع أخذه الإيرانيون عن فلاسفتهم القدماء وعن موابذتهم المجوس، وهي حصر الخدمة الدينية في طبقة معينة لا تتعداهم، وهكذا تجددت «الديانة الساسانية» بشكل إسلامي، هو مذهب الشيعة (6)...

جنود التبليغ :

فسدنة المساجد، ومؤذنوها ووعاظها وخطباؤها، هم جنود التبليغ لرسالة الله... وهم مدعوون إلى أن يواصلوا، بإيمان وعقيدة نشاطهم الديني والتربوي بمواظبتهم على العمل، وإلى حسن القيام بما عهد به إليهم حسبة لله تعالى...

والأوقاف، اليوم، إذا استطاعت أن تكون، كما بدأت في سالف عهدها رداء المجتمع يلتمس في داخله الدفء، فإنها ستعيد للجمعات سابق عهدها، وتعيد للإسلام مجد المسجد، وأمكن للوظيفة الدينية أن تقوم بدورها، وأداء رسالتها، وأمكن، أيضا، لرجل العلم أن يدخل بيوت الحياة من أبوابها، وهو يشعر بأهميته الطبيعية... وما عليه إلا البلاغ...

وقد كانت الحالة في فجر الإسلام، وصدره الأول أن جمهور المسلمين يتوجهون إلى المسجد، لإقامة شعائر الله، ولأداء الصلاة، فتغص رحابه، وتكتظ جنباته، وتضيق

---

4) «حاضر العالم الإسلامي» ص : 1/270.

5) هذا الكتاب هو ثالث ثلاثة لكتابين آخرين، أحدهما : «ثلاث سنوات في آسية» والآخر : «الأخبار الأسيوية»... والكاتب «دوغوبينو» يعد في مقدمة العلماء الذين أجادوا التأليف في أحوال إيران وأواسط آسيا، ولقد ظهر هذا الكتاب عام 1865، ثم أعيد طبعه عام 1866، ثم أعيد طبعه عام 1900، ونال شهرة عظيمة في ألمانيا، ولا سيما أن الأستاذ : شيمان SCHEMAN الألماني صدره بمقدمة اعترف فيها بأن الكونت دوغوبينو هو من أكبر مفكري العصر، وقد عده كثير من الألمان بأنه من أعاظم كتاب القرن التاسع عشر.

6) «حاضر العالم الإسلامي» ص : 1/186.

أكنافه، ويمتلئ بالمسلمين المخبتين، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، فلا يعدم المسلمون من يصلي بهم، أو يقيم لهم الصلاة، أو يؤذن لهم، أو يهتم بنظافة المسجد، أو يتكلف بإيجاد الماء ومتحه من الآبار لمن يروم الوضوء، تقربا إلى الله وزلفى...

ولم يكن أحد من هؤلاء المتطوعين يطلب أجرا، أو ينتظر ثوابا، بل يحتسب عمله لله، ويقرض الله قرضا حسنا، لأنه يعتقد، أن كل أجر يوخذ على عبادة، فهو أكل لأموال الناس، فأبرز ما اتصف به الصدر الأول، خلق العفة والنزاهة والاحتساب...

وفي تفسير الإمام الشيخ محمد عبده لقوله تعالى : ﴿**ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل، وتدلوا بها إلى الحكام، لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم، وأنتم تعلمون**﴾ (7)... قال : إن كل أجر يوخذ على عبادة، فهو أكل لأموال الناس بالباطل، وقد مضى الصدر الأول، ولم يكن أخذ الأجرة على عبادة ما، معروفا، ولا يوخذ في كلام أهل القرن الأول والثاني كلمة تشعر بذلك... ثم لا يعقل أن تحقق العبادة وتحصل الأجرة، لأن تحققها إنما يكون بالنية، وإرادة وجه الله تعالى، وابتغاء مرضاته، بامتثال أمره، ومتى شاب هذه النية شائبة من حظ الدنيا، خرج العمل عن كونه عبادة خالصة لله تعالى... والله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصا من الحظوظ والشوائب (8).

... وقد تعرض الشوكاني لهذه القضية في : «نيل الأوطار» عند حديثه عن الأذان والأجرة عليه، ودار في هذا الفلك، وهو أن المرء حين يؤذن، أو يقرأ القرآن، أو يصلي بالناس إماما أو حين يخطبهم، أو يعظهم يجب أن يقصد بذلك وجه الله... وليس مجرد تحقيق الوفاء بما استؤجر له، للحديث : «إنما الأعمال بالنيات».

من كان يقوم بالوظيفة الدينية في الصدر الأول ؟...

يعتقد، اليوم، كثير من الناس أن من تسند إليه مهمة الوظيفة الدينية كالأذان والإمامة والخطابة والوعظ والتوجيه والإرشاد وباقي الوظائف الدينية، يجب أن يتفرغ لهذه الوظيفة دون سواها، فلا يشتغل بتجارة أو صناعة أو غيرهما لكسب رزقه وتأمين معيشته... إذ التجارة والصناعة تنافي هذه المناصب الدينية، وتزري بقيمتها، مع أن الصدر الأول من الإسلام، والذي يليه، حفل برجال كانوا هامة الشرف، وغرة المجد، وعنوان الرجولة، قاموا بالشعائر الإسلامية، والتوجيه الديني لا تلهيم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، فبمجرد ما ينتهون من تجارتهم وحرفهم يقبلون على العبادة والتعليم والتثقيف، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون...

وقد استقر في أذهان كثير من العلماء والفقهاء من المثقفين في العصور الأخيرة أن اشتغالهم بالصنائع والحرف والتجارة ينافي أبهة العلم، ويجافي كرامة العلماء... إذ العالم ينبغي أن يكون بمعزل ومنأى عن تلك الحرف والصنائع، بل يعتمد في سد معيشته، وقضاء حاجياته على وظيفة قارة تدر عليه ما يقيم به الأود، ويقي العوز، ويسد الرمق، فهم أناس بالسلامة يفرحون... فالصنائع والحرف والتجارة في نظرهم هي لأقوام مخصوصين ممن لا علاقة لهم بالعلم والمعرفة.

وقديما، أيضا، وجدنا بعض العلماء يمتهنون حرفا عالية، وبالرغم عن قيمتها الفكرية والعملية، كانوا، في قرارة أنفسهم يحسون بأنهم في منأى عن رحاب طبيعتهم وأعمالهم الفكرية التي هي أخلق وأعود بالنفع لمن يشتغل بالعلم، وألوان الفكر والثقافة...

وقد ذكر أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء (464 ـ 557 هـ ـ 1072 ـ 1162م) من بيت زهر ولعه الشديد بالأعمال اليدوية في كتابه : «التيسير في المداواة والتدبير» (9) حتى إن هذا الولع بلغ حد الحرص، إذ قال

---

7) سورة البقرة : الآية رقم : 188.

8) المنار : تفسير للشيخ رشيد رضا ص : 2/191.

9) نفح الطيب ص : 3/185، كشف الظنون ص : 1/520. وقد ألفه استجابة لطلب القاضي الفيلسوف ابن رشد، وقد ترجم الكتاب إلى اللاتينية، وكان في المغرب يقابل كتاب «القانون» لابن سينا في المشرق، أهمية ونفعا ومكانة، وقد حقق الكتاب الدكتور ميشيل الخوري عضو مجمع اللغة العربية بدمشق ونشر عام 1983 برعاية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.
وتعمل أكاديمية المملكة المغربية اليوم على إعادة تحقيقه وطبعه...

ص : 320 : «... وأما أنا، فإن في نفسي مرضا من أمراض النفوس من حب أعمال الصيدلانيين، وتجربة الأدوية، والتلطف في سلب بعض قوى الأدوية وتركيبها في غيره، وتمييز الجواهر وتفصيلها، ومازلت مغرما بذلك، مبتلى بحبه، فسلكت هذا المنهاج شهوة فيه، وإن كان على ما هو من الامتهان، غير أني ألتذ بعمله، كما يلتذ غيري بالفلاحة والقنص».

فإشارة أبي مروان إلى امتهان هذا العمل، إنما هي من حب الترفع عن الأعمال اليدوية، والاقتصار على الأعمال الفكرية.

وقد سحبت هذه الفكرة الجامدة ذيلها بكل أسف شديد، على كل المثقفين عموما، وباتت تهيمن على أذهان كثير من الناس، فهم يقرأون ليتوظفوا، ويتعلمون، ليحتلوا المناصب السامية، حتى اعتقدوا أن الركون إلى الوظيفة هو ثمرة القراءة والكتابة، وغاب عن أذهانهم أن سيد الناس من كان رجل أعمال حرة يفيد بلاده بعرق جبينه، وكديمينه، وأن عليه أن يتعلم العلم لذاته، لا لشهادات وآراب أخر، كما قال شوقي رحمه الله.

وفي مقدمة ابن رشد ص : 16 : «يجب على طالب العلم الا يريد بتعلمه الرياء والسمعة، ولا غرضا من أغراض الدنيا» فالعلم بهذا الاعتبار يجب أن يطلب لذاته، ويكون تعليمه ابتغاء مرضاة الله...

وقد فصل الإمام الغزالي في «الإحياء»، و«ميزان العمل» وظائف المرشد والمعلم بما لا يخرج عن ذلك، وقد ذكر كثير من الفقهاء، قبل ذلك، ما ينبغي أن يكون عليه المرشد المعلم، وكلهم مجمعون على أنه لا ينبغي أن يطلب سمعة أو جاها، أو مالا، أو مصلحة...

ففي «اللؤلؤ النظيم، في روم التعلم والتعليم» لشيخ الإسلام أبي زكرياء الأنصاري في بيان شروط تعليم العلوم وتعليمها : «أن يقصد به ما وضع ذلك العلم له، فلا يقصد به غير ذلك، كاكتساب مال، أوجاه، أو مغالبة خصم، أو مكابرة».

ويقول العلامة عصام الدين الشهير «بطاش كبرى زاده»، البروساوي (تـ 968 هـ) في كتابه : «مفتاح السعادة، ومصباح السيادة» (10) : «ينبغي أن يكون تعليم المعلم لوجه الله تعالى، ولا يريد بذلك رياء ولا سمعة، ولا رسما، ولا عادة، ولا زيادة جاه ولا حرمة، وإنما يريد ابتغاء مرضاة الله، والامتثال لأوامره، والاجتناب عن نواهيه، ويريد نشر العلم، وتكثير الفقهاء، وتقليل الجهلة، وإرشاد عباد الله إلى الحق، ودلالتهم على ما يصلحهم في النشأتين، وإظهار دين الله، وإقامة سنة الرسول ﷺ، وتشييد قواعد الإسلام، والتفريق بين الحلال والحرام، ويكون مخلصا في ذلك، راغبا في الآخرة».

وقد كان العلماء، قديما، وإلى عهد غير بعيد، أهل تجارة وحرف وصناعات يصونون بها ماء الوجه، ويحفظون كرامة الخلق، فيبحثون عن أرزاقهم بطرق مشروعة شريفة، وباسترشاد العلم والمعرفة التي تساعدهم على تنمية اقتصاد البلاد، وطلب الرزق، وانتجاع المعيشة، فهم ينحتون الصخر بأظافرهم، ليستخرجوا منه الماء العذب الزلال... ثم بعد ذلك العمل الشريف، الحر النظيف، ينقلبون، مسرورين، إلى جماعة المسلمين في مساجدهم يعمرونها، أئمة كرماء، ووعاظا حكماء، ومحدثين صلحاء، فهم يزاوجون بين الاحتراف الحر، واتخاذ الأسباب، والقيام بشعائر الله، وطلب العلم...

وقد بقي دين الإسلام، بحمد الله، مع هؤلاء النفر، متين العرى، شامخ الذرى، ثابت الأس، لا يزيده استكشاف الحقائق إلا رسوخا... ووجوب الإقبال على علوم الشريعة

(10) ص : 1/33، طبع في ثلاث مجلدات بحيدر آباد الدكن بأمر السلطان أصف جاه السابع فقيد نشر العلم والأدب، وقد ذكر فيه مائة وخمسين فنا، وأجاد، ثم ترجمه ابنه كمال الدين محمد (تـ : 1032 هـ) بالحاقات كثيرة في مجلدة كبيرة، فبلغ فيه من العلوم خمسمائة فن...

وشؤون الدين، لا يمنع أن نلتفت إلى غيرها من الوجوه الدنيوية الأخرى بقدر الحاجة...

إذا ما بكى من خلفها، التفتت له
بشق، وشق نحونا لم يبدل

وفي الصحيح عن النبي عليه السلام، قال : «إن خير ما أكل المرء من عمل يده، وإن نبي الله داود كان ياكل من عمل يده» (11).

وفي عمدة الطالب (12) : «أفضل مكسوب التجارة، ثم الصناعة، ثم طلب العلم... ثم قال : «فلو كان العلماء يتعلمون الحرف ما افتقروا حتى يطمعوا في أموال الناس...» (13).

ولأمر ما كان الأنبياء والرسل، يشتغلون، لكسب أرزاقهم، بحرف ومهن وصناعات وتجارات قبل بعثتهم...

يقول القرطبي في هذه الآية الكريمة : ﴿**وألنا له الحديد...**﴾ (14) دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع، وان التحرف بها لا ينقص من مناصبهم، بل ذلك زيادة في فضلهم وفضائلهم، إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم، والاستغناء عن غيرهم، وكسب الحلال الخلي عن الامتنان... (15).

ويقول في شرح الآية الأخرى : «وعلمناه صنعة لبوس» (16) هذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب، وهو قول أهل العقول والألباب، لا قول الجهلة الأغبياء، القائلين بأن ذلك إنما شرع للضعفاء، فالسبب سنة الله في خلقه، فمن طعن في ذلك، فقد طعن في الكتاب والسنة، ونسب من ذكرنا إلى الضعف وعدم المنة... (17).

فالحرف والصنائع والتجارة تحتاج، فيما تحتاج إليه، في تدبيرها وتسييرها إلى العلم والعلماء، ولا سيما، في هذا العصر الغني الرائع بالكشوف العلمية، والتطورات التقنية العالية... لا أن تترك في أيدي الذين لا يفقهون الفرق بين الحرام والحلال... (18).

ولقد كان عمر بن الخطاب يضرب بالدرة من يقعد في السوق، وهو لا يعرف الأحكام، ويقول : «لا يقعد في سوقنا من لا يعرف الربا... (19).

فالتجارة والصناعة والأعمال الحرة، لابد أن يكون لها علماء يسيرونها، يعرفون الحلال من الحرام، «فمن اتجر بغير فقه ارتطح في الربا» كما قال الإمام علي كرم الله وجهه، لأن مسائل الدين مشتبهة بمسائل البيع، ولا يفرق بينها إلا الفقيه كما يقول ابن أبي الحديد في شرحه لمقولة الإمام علي السابقة...

ولقد كان الإمام مالك يأمر الأمراء، فيجمعون التجار والسوقة، ويعرضونهم عليه، فإذا وجد أحدا منهم، لا يفقه أحكام المعاملات، ولا يعرف الحلال من الحرام، أقامه من السوق، وقال له : «تعلم أحكام البيع والشراء، ثم اجلس في السوق، فإن لم يكن فقيها، أكل الربا... (20).

قال المجاجي في شرح مختصر ابن أبي جمرة : قال علماؤنا : «لا يجوز أن يتولى البيع والشراء، ويجلس في السوق لذلك، إلا من هو عالم بأحكام البيوع والشراء، وأن تعلم ذلك لمن أراده فرض واجب متعين عليه... وحكى علي هذا الإجماع... وبهذا قال مالك في كتاب القراض...

---

11) باب البيوع من صحيح البخاري ص : 2/5، والحكمة في تخصيص داود بالذكر أن اقتصاره في الأكل على ما يعمله بيده، لم يكن من الحاجة، لأنه كان خليفة في الأرض، وإنما ابتغى الأكل من طريق الأفضل (الشيخ محمد الشنواني على مختصر ابن أبي جَمْرَة"ص : 102).

12) بواسطة «هداية الضال، المشتغل بالقيل والقال» للمؤرخ أبي محمد المامون بن عمر الكتاني.

13) أورد رفاعة الطهطاوي في : «مناهج الألباب المصرية، في مباهج الآداب العصرية» ص : 51، البيتين الآتيين :

إن حزت علا، فاتخذ حرفة ☆ تصون ماء الوجه لا يبدل
ولا تهنه، أن ترى سائلا ☆ فشأن أهل العلم أن يسالوا...

14) سورة : «سبأ» رقم الآية : 11.

15) تفسير القرطبي ص : 14/267.

16) سورة الأنبياء، رقم الآية، 80.

17) تفسير القرطبي ص : 11/321.

18) دعا الرئيس الليبي العقيد القذافي في خطاب فاتح شتنبر الأخير 1985، الشباب الليبي إلى الانصراف عن المناصب الإدارية في الحكومة والاتجاه نحو العمل في القطاعات الانتاجية في محاولة منه لحث الليبيين على العمل.

19) المدخل لابن الحاج، وانظر ما قاله، أيضا، أبو عبد الله بن الحاج في مدخله، في فضل خروج العالم إلى قضاء حاجته في السوق ـ وانظر : «مواهب الجليل» للحطاب «كتاب البيوع» ص : 4/221.
«يونيتيدبرس»، أي حوالي أكثر من 12٪ من سكان القارة البالغ

20) التراتيب الإدارية ص : 2/19.

وفي المدونة : ولا أحب مقارضة من يستحل الحرام، أو من لا يعرف الحلال من الحرام، وإن كان مسلما... (21).

وقد روي أن عمر بعث من يقيم من الأسواق من ليس بفقيه (22)...

وحيا الله تجارنا المغاربة وبياهم في الخارج، قديما وحديثا، الذين ضربوا في الأرض، ومشوا في مناكبها، وغرفوا من حياض العلم والمعرفة، يتاجرون ويحترفون، وهم حفظة لكتاب الله، ووعاة للحديث الشريف، يؤكدون حضورهم في كل المجالات الدينية والدنيوية في شرف وإباء، وهمة وشموخ... فقد نشرت صحيفة «مانشستر سيتي نيوز» MANCHESTER CITY - NEWS، اللندنية مقالة بتاريخ 1936/10/2، تحدثت فيها عن المغاربة الذين كانوا يقيمون بأنجلترا منذ قرون، والذين عرفوا بسمعتهم الطيبة، وقالت : «بأنه لم تكن هناك غرابة تثير الانتباه في عادات الجالية المغربية، باستثناء أن شخصا تخصص في بيع اللحم المجهز حسب الشريعة الإسلامية... فقد تولى أحد القصابين في منطقة «روشولم» تجهيز لحم الغنم «الويلزي» للجالية، وأنشأ لهذه الغاية مسلخا في الباحة الخلفية من منزله، يذبح فيها صباح كل يوم العدد المطلوب من الأغنام، وهذا الشخص نفسه كان الإمام لهم والخطيب في صلاة الجمعة من كل أسبوع... والتي كانت تقام في دار «بشارع باركفيلد» (23)...

ولعل الإمام الخطيب الواعظ الذي يغشى الأوساط الاجتماعية، ويشتغل بأعمال حرة شريفة، يكون أقرب من غيره إلى القلوب، لأن الناس خالطوه، ومازجوه، فعرفوا، بعدما بلوا أمانته وصدقه وعفته وصيانته واستقامته وفقهه، فأقبلوا عليه مطمئنين راضين...

فما أنجع المجتمع الحي الراقي الذي يملأ جنباته رجال أعمال مسلمون أحرار في حرفهم وصناعاتهم وتجاراتهم... وهم في نفس الوقت يحرسون العقيدة، ويحمون الشريعة، ويأسون الأرواح..!!

وما أروع تلك السوق الاقتصادية التي تزخر أكنافها بعلماء عاملين، وتتوفر على نخبة واعية، وصفوة ممتازة من رجال العلم الأوفياء الأقوياء الأمناء الذين يعملون للدنيا والآخرة..!!

فكم من أقطار وبلدان، في الشرق والغرب، والشمال والجنوب، دخلها الإسلام عن طريق تجار بسطاء عاملين عالمين بدينهم، لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة...

إن الأصول النظرية للإسلام، تؤكد بوضوح على عدم وجود هياكل دينية رسمية تخضع لمقاييس وطقوس معينة... فلا رهبانية في الإسلام...

فالإسلام لا ينظر إلى الصور والأجسام، والسمات والشيات، وإنما ينظر إلى الأعمال والقلوب، كما نجد ذلك في بعض الديانات العالمية... يقول «ديورانت» (24)، متحدثا عن الفلسفة الصينية الإيجابية : أنه قد أصبح من أبرز سمات الفلسفة الصينية أنها إيجابية وعملية، وبات من أخص خصائص المفكرين الصينيين أنهم لا يتحدثون عن القديسيين، بل يتحدثون عن الحكماء، وأنهم لا يتحدثون عن الصلاح، بقدر ما يتحدثون عن الحكمة... فليس الرجل المثالي في نظر الصينيين هو التقي العابد، بل هو إلى جانب ذلك صاحب العقل الناضج الهادئ، الذي يعيش عيشة البساطة والسكون، وإن كان خليقا بأن يشغل مكانا ساميا في العالم..؟!

وقد علق أحد الكتاب على هذه الفكرة، وعن هذا الرفض الصيني لدور القديسين، وترحيبهم بالحكماء... هذا الموقف يتفق تماما مع التصور الإسلامي الصحيح الذي يسقط فكرة منح القداسة لأي فرد عادي، مهما بلغت قيمته ومعرفته، إذ الكل سواسية كأسنان المشط، ولا فضل لإنسان، كائنا من كان، على إنسان آخر إلا بالتقوى في الآخرة، والعمل في الدنيا... (25).

21) نفس المصدر والصفحة...
22) نظام الحكومة النبوية ص : 17 ـ 2/18.
23) جريدة الشرق الأوسط : ع : 2426 / السبت : 1985/7/20.
24) «قصة الحضارة» الصين : صفحتا : 37 ـ 52.
25) «الإسلام في الصين» ص : 239، للأستاذ فهمي عويدي.

وإن نشر الإسلام لم يتم عن طريق الفتح إلا في مرحلة صدر الإسلام عندما خرج العرب حاملين لواء الدعوة الجديدة... ولكن الإسلام انتشر بعد ذلك بين شعوب عريقة في الحضارة بفضل ما يحمله من قيم ومبادئ... ويجب أن نلاحظ، هنا، أن الدينامية التجارية التي عرفها المجتمع الإسلامي في القرون الخمسة الأولى كان لها شأن كبير في انتشار الإسلام في مناطق نائية... مثل الصين، أو شبه القارة الهندية، أو في البلدان الإفريقية جنوب الصحراء كما يقول الصحفي التونسي المشهور : الحبيب بو الأعراس الأستاذ بمدرسة اللغات الشرقية في باريس في كتابه القيم : «الإسلام... الخوف والأمل» « L'Islam, La Peur, et L'Espèrance »

ويجب أن نعلم علم اليقين، عند اعتبار شأن انتشار الإسلام، ذلك الانتشار، أن كل مسلم هو بغريزته وفطرته، مبشر بدينه، ناشر له بين الشعوب غير المسلمة، ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

وعلى ذلك، أن نشر الرسالة المحمدية، لم يقم به رجال التبشير، ولا علماء الدين وحدهم، ولا قصر الأمر عليهم دون سواهم، هكذا، بل شاركهم فيه جماعات عديدة من التجار الحجاج والسياح على اختلاف الأجناس (26)...

ولم تكن التجارة وعلاقاتها، مهما كثرت وانتشرت لتكفي في نيل العرب هذه السيادة الأدبية والاجتماعية على تلك المناطق الشاسعة، بل كانت معهم قوة أعظم من هذه، وهي قوة العقيدة المحمدية التي هي من الجلاء والبساطة بحيث يفهمها الجميع...

فالمسلم التاجر السائح، في أي بلد وجد، وقرآنه بيمينه، يمكنه أن يعلم من اختلط بهم، ديانة سهلة الفهم، سهلة الدخول في العقل، من شأنها بث الدعوة، ومن فضائلها النشاط والعمل والاختلاط مع سائر البشر... (27).

كما كانت الطرق الدينية في بداية القرن الحالي كالسيل الطامي، فإنها ما أدركت أمة مسلمة، إلا استولت على مشاعرها وقلوبها، وسيرتها سهلة الانقياد إلى تعاليمها... وترى دعاة هذه الطرق يقومون بوظائفهم على أساليب عديدة غريبة... فهم يجوبون الأقطار بألوف الأزياء المتنكرة تجارا، ووعاظا، ومرشدين، وطلبة، وعلماء وأطباء، وعملة ومتسولين وفقراء ومساكين، حتى، ومشعوذين ودجالين، وحيثما وصلوا ترى الناس قد تسارعوا لاستقبالهم على الرحبة والسعة، وأخفوهم عن عيون رقباء الحكومات الاستعمارية... (28).

فمريدوا الطرق الصوفية هم الذين سعوا في نشر الإسلام، ووفقوا إليه في إفريقيا وغيرها...

قال «كوبلاني» COPPULANI : «ان هؤلاء تارة بهيئة تجار، وطورا بهيئة مبشرين يهدون إلى الإسلام الأقوام الفتيشيين، وتجدهم يبنون زوايا جديدة في هذه الأقطار الواسعة الشاسعة الممتدة من شمال إفريقية إلى أقصى أقاصي السودان... وأحيانا يؤسسون ممالك مثل سلطنة رابح، وأحمدو، وساموري... (29).

وأظهر المستشرق المحقق «ماكس مايرهوف (30) في كتابه : العالم الإسلامي» Le Monde Islamique إعجابا شديدا بمهارة العرب المسلمين في الأخذ والعطاء، وبعد

---

26) هل تعلم أن عدد المبشرين المسيحيين في العالم الآن، أكثر من 220 ألف مبشر، منهم 138، ألف كاثوليكي، و82 ألف بروتستاني، وفي أندونيسيا وحدها يتركز أكثر من 10 آلاف مبشر، يواجههم خمسة آلاف داعية مسلم... ويقول المتحدث باسم الفاتيكان أنه في عام 1901، لم يتجاوز تعداد المسيحيين الكاثوليكيين في إفريقيا : 1 و1 مليون إفريقي مسيحي، أما الآن فيبلغ تعداد المسيحيين الكاثوليكيين حوالي 77 مليون مسيحي كما تقول وكالة «يونيتيدبرس»، أي حوالي أكثر من 12٪ من سكان القارة البالغ تعدادها حسب إحصاء عام 1984 حوالي 622 مليون نسمة... وزعمت مصادر الفاتيكان أن المسيحيين الكاثوليكيين يزيد تعدادهم في إفريقيا بحوالي مليوني مسيحي كل عام، وأن عددهم سوف يصل في نهاية القرن إلى 100 مليون...!!

27) حاضر العالم الإسلامي ص : 1/348.

28) نفس المصدر ص : 1/323.

29) «حاضر العالم الإسلامي» ص : 2/400.

30) من نظار المؤرخين، ومن كبار الأطباء، وهو ألماني الجنسية، مشهور بطب العيون، وله اليد الطولى في الاستشراق، وقد أثنى عليه وعلى معارفه كثيرا المستشرق الأشهر : سنوك. هيركرونييه» الهولاندي... وكان مقيما بالقاهرة.

همتهم في التجارة، وقال : «إنهم كانوا يستجلبون الجلد، والفرو من أقاصي البلاد الشمالية كالروسية، وبلاد «السكنديناف»، يستدل على ذلك بكثرة ما وجد من النقود العربية في تلك البلاد... قال : «وإنهم كانوا يركبون البحار، ويبلغون أقاصيها... فقد وصلوا إلى أقصى جنوبي إفريقيا جنوبا، وإلى جزائر الخالدات غربا... وإلى الهند والصين شرقا... (31).

لقد دخل الإسلام بلاد الروسيا المعروفة إذ ذاك ببلاد البلغار (القرن الرابع)، وكان دخوله في تلك النواحي للعلائق التجارية التي كانت بين المسلمين، وبين أهل هذه البلاد... فاعتنقوا الإسلام بمحض إرادتهم ورغبتهم، وأول من فعل ذلك منهم ملكهم الوثني «بركة خان» (654 ـ 664 هـ) الذي كان معاصرا وحليفا للظاهر بيبرس سلطان مصر لذلك العهد...

ولقد كانت النهضة الإسلامية في الصين عجيبة، لا مثيل لها، كان بلوغ الإسلام الصين منذ عهد بعيد على يد التجار العرب، وكتائب جنود عربية، فصار على توالي الأيام يختلط العرب الغرباء بالصينيين تزاوجا وتعاونا في أمر المعايش وغير ذلك... ولم يبرح المسلمون الصينيون يتميزون عن سواهم تميزا حافظا لأنسابهم العربية التي يختلفون بها ميولا وأخلاقا عن عامة الصينيين اختلافا بعيدا... (32).

والعجيب أن حضر موت... تلك البقعة الصغيرة الفقيرة قد غزت بأبنائها الشرق كله... فما في الملايو، ولا في أندونسيا بلد ليس فيه ناس منهم، وهم تجار بارعون، وأمناء صادقون، ودعاة مخلصون، ومغامرون شجعان...

ومنذ خمسة وعشرين عاما، وفي «سلطنة جوهور» التقى الشيخ على الطنطاوي، وهو في رحلته من الهند إلى أندونيسيا «لمسجد جوهور» بالمفتي السيد علوي بن طاهر الحداد الحضرمي، وهو رجل عصامي عالم مطلع، حاضر النكتة، عذب الحديث، قال عنه علي الطنطاوي بأنه أعلم من لقيه منذ خرج من الهند متجولا في جنوب آسيا إلى أن رجع إليها... (33).

وكان أول من نزل «كانتون» أو بلاد الخطا (34) من التجار المسلمين العرب القدامي الذي وصلوا الصين بالبحر تاجر عماني الأصل، هو أبو عبيدة عبد الله القاسم الذي أقلع من عمان إلى «كانتون» حوالي 133 هـ 750م لشراء الصبار والأخشاب، ولم يكن غريبا أن تعتبر «كانتون» مجمع تجارات العرب وأهل الصين... (35).

فالوجود المبكر للمسلمين في قلب الصين كان محدودا، فضلا عن أن أكثرهم كانوا تجارا متمركزين في وسط البلاد وجنوبها، وكانت كلمة «داشي» كافية للتعريف بهم... فالمسلمون التجار يذكرون في السجلات الصينية العتيقة باسم «داشي»، وهي كلمة معناها في اللغة الصينية : «التاجر»، ولأن التجار هم أول الوجود المسلمة التي رآها أهل الصين، فقد اختلطت المهنة بالملة، وأطلق على كل مسلم اسم «التاجر» منذ تلك العصور المبكرة حتى أصبحت كلمة : داشي لصيقة بالمسلمين فيما بعد... (36).

ويذكر «توماس أرنولد» في كتابه : أن المؤرخ المروزي أكد أن الشيعة العرب الهاربين من خراسان قد وصلوا إلى بلاد الصين، وأن هذه الجماعة من الشيعة، كانت موجودة في الفترة التي عاصرها ـ أوائل القرن السادس الهجري، والثاني عشر الميلادي ـ وأضاف أنهم كانوا كوسطاء تجاريين بين الصينيين والأجانب... فقفزة الإسلام في الصين هذه، إنما هي تعبير عن اتساع حجم المصالح التجارية بين بلاد العرب والصين، أي أنها كانت تعكس مدى تنامي العلاقات الاقتصادية بين الجانبين... (37).

31) حاضر العالم الإسلامي ص : 1/115.
32) المصدر السابق ص : 1/303.
33) الشرق الأوسط : ع : 2473 ـ 85/5، مذكرات الطنطاوي، والحضارمة طبقات منهم العلويون الذين يقولون أنهم سادة أشراف، ومنهم من ليس له هذه الدعوى.

34) صبح الأعشى «للقلقشندي ص : 4/308.
35) «عمان وتاريخها البحري» ص : 33، صادر عن الحكومة العمانية.
36) «الإسلام في الصين» للأستاذ فهمي عويدي. ص : 36.
37) المصدر السابق : ص : 51 ـ 59.

وفي هذه الفترات بنى العرب مسجد «تبي تون» الكبير ـ في شارع «تونغهواي» الآن ـ الذي تنتصب بوابته على ارتفاع 20 مترا، وقد بني على طراز المسجد الأموي بدمشق. وفي جداره نحتت لوحة تقول : «إن العرب بنوه في عام 400 هـ (1009م) ثم قام بترميمه أحد المسلمين القادمين من القدس، اسمه : أحمد عام 710 هـ 1310م.

وفي جنوب شرق المدينة خصص تاجر عربي مسلم ـ اسمه الشناوي، قطعة أرض لدفن موتى المسلمين، مازالت باقية إلى الآن بشواهدها التي تحمل كتابات عربية ـ آيات، وأحاديث، ومرثيات ـ وخضرة تكسوها، وبعدما تحولت إلى حديقة أثرية... (38).

وهكذا نجد المسلمين في هذه المناطق النائية في الصين وفي الملايا من أكثر المسلمين يقظة وانتباها، إلى يوم الناس هذا، يقومون في الملايا بالدعوة إلى الإسلام... وقدر أي الشيخ علي الطنطاوي في رأسة الشؤون الدينية في «جوهور» دائرة خاصة للدخول في الإسلام... ورأى الصينيين يزدحمون على بابها، ليعلنوا دخولهم فيه... وهم مقبلون على إنشاء المدارس والمساجد والكليات الإسلامية، ويبذلون لذلك الأموال الوفيرة...

ولقد كان انتشار الإسلام في جزائر الأوقيانوس واستيلائه على جزيرتي جاوى وسومطرة العظيمتين بواسطة تجار مسلمين طرأوا عليها من الهند، مقتفين آثار تجار الهندوس الذين كانوا يترددون إلى تلك البلاد، ويطبعون أهلها بطابع مدينتهم البرهمية، كما قال العلامة «هورغرونيه (39) SNONEK HURGRONIE فجاء الإسلام واستمالهم إليه بواسطة أولئك التجار، ومازال يتقدم بينهم حتى غلب على جميعهم تقريبا، كل ذلك بطرق سلمية، وبدون أدنى قهر ولا عنف منها...

ويكفي أن ابن بطوطة الرحالة امتدح ملك سومطرة في القرن الرابع عشر بأنه جاهد الكفار...

وقد انبثق نور الإسلام في قرية «كراشيك» القديمة القائمة على تل عال قرب «سورابايا» في أقصى الشرق من جاوة...

ففي أحد قبورها قبر للشيخ إبراهيم المتوفى عام 1419م، وهو الذي تشرف بحمل الإسلام إلى تلك البقاع الأندونيسية، وقد سأل الشيخ علي الطنطاوي عن تاريخه وترجمته، فلم يجد علم ذلك عند أحد، وغاية ما قالوه إنه مغربي الأصل، حدثه بهذا الشيخ المكي الكتاني رحمه الله، فقال : إن هذا الشيخ من آل الكتاني، كما كتب بهذا الأستاذ المنتصر في مقال قديم في الرسالة... وقال : إنه سمعه من الناس.

☆ ☆ ☆

فالذين أدخلوا الإسلام إلى أند ونسياهم العرب بواسطة التجارة والملاحة فإنهم نزلوا، أولا، بالثغور البحرية وبالمراسي الشهيرة، وأخذوا ينتشرون منها شيئا فشيئا إلى الداخل، وكانوا لا يلوون على شيء، سوى الأخذ والعطاء، ولم يظهر أنهم قصدوا بادئ ذي بدء، تأسيس ملك، ولا فتح بلدان، ولكن عندما صارت الأمة الماليزية تناظرهم، وتسد عليهم طريقهم التجأ هؤلاء العرب الملاحون المرابحون إلى القوة المسلحة حفظا لحريتهم، ووقاية لمرفقهم... وقد خلق العربي تاجرا بفطرته، خبيرا بالعمليات المالية والحسابية، وبأساليب الأخذ والعطاء... (40).

وقد قال «ماركو پولو» الذي صرف خمسة أشهر في الشاطئ الشمالي من سومطرا عام 1292م، أن كل السكان كانوا مجوسا وعباد أصنام عدا سكان البلدان في مملكة «بارلك» PARLAK الصغيرة الموجودة في الشمال الشرقي من سومطرا، لأنهم اعتنقوا الإسلام بواسطة تجار العرب...

---

38) «أقدم مساجد الصين» ـ دارسة قامت بها وكالة أنباء الصين «شينخوا».

39) علامة مستشرق هولاندي ـ مستشار نظارة المستعمرات الهولاندية في المسائل الإسلامية والعربية، وهو من الأفذاذ الذين وقفوا على أحوال الإسلام عموما، وبلاد الجاوى خصوصا، وأقام بها 17 عاما، قتل فيها أمورها قتلا، ويقال بأنه دخل مكة والمدينة في موسم الحج، متنكرا، وقد نشرت (مجلة العالم الإسلامي) الفرنسية عام 1911 أربع محاضرات على سياسة هولاندة الإسلامية...

40) حاضر العالم الإسلامي ص : 345 ـ 1/349.

وقال «كورديه» في إسلام الفلبين : (41) «إن ظهور الإسلام في تلك الجزائر (42) التي يقال لها : «ميندانـاو» وفي أرخبيل «سولو» كانت في وقت ظهور الإسلام في «بورنيو»، يقال إن تجار العرب نشروا الإسلام هناك، فقيل لهم «المورو» (43) كما كان يقال لمسلمي الأندلس... وعم من بعدها مسلمي الفلبين، وقد بدأ وجود الإسلام في هذه الأماكن من قبل عام 1500، وكان سلطان «بورنيو» تزوج بابنة سلطان «ميندناو»، فأسس سلطنة «سولو» التي استفحل أمرها... (44).

ولقد دخل الشيخ الحافظ أبو البركات يوسف البربري (45)، وهو من بلاد المغرب إلى «المالديف (46) في منتصف القرن السادس الهجري مع بعض التجار العرب الذين كانوا في ذلك الوقت يقومون برحلات تجارية منظمة بين الجزيرة العربية من جهة، وبين موانئ الهندوسيلان والمالديف من جهة أخرى، ووجد أهلها على الديانة البوذية، فطلب مقابلة السلطان، ودعاه إلى الإسلام، إلا أن السلطان أبى في أول الأمر على الرغم من ضيافته لحامل الدعوة وتقريبه إليه... وما زال الشيخ الحافظ أبو البركات يجادل السلطان بالحكمة والموعظة الحسنة إلى أن اقتنع، فأسلم، وأمر شعبه باعتناق الدين الجديد، وكان هذا الحدث الذي قوى من شوكة المسلمين في اليوم الثاني من شهر ربيع 2، في عام 548 هـ (1153م) وما تزال هذه المعلومات المكتوبة في اللوحة الموجودة بالمسجد الذي أمر ببنائه السلطان، بعد إسلامه، وهي مكتوبة باللغة العربية، والكتابة التي عليها ما زالت واضحة كل الوضوح (47)، وقد كان هذا السلطان يدعى : «درمس كالامنجا» قبل الإسلام، فاستبدل اسمه بعد إسلامه إلى «درمس محمد بن عبد الله»، ومسجده الذي بناه مازال شاهقا إلى وقتنا الحاضر... (48).

وقديما جدا، كان قد كثر تجار الدكن DACCAN الذين احتكروا التجارة بين الممالك الإسلامية الهندية، وبين الجزائر الهندية الشرقية ـ في موانئ هذه الجزائر، وفيها زرعوا حبوب هذه الديانة الإسلامية السمحة...

فإلى هؤلاء التجار المبشرين النازحين من بلاد العرب والهند والمغرب يرجع الفضل في تأسيس أول الجاليات الإسلامية من الأهالي، وفي تحويلهم من عبادة الأصنام إلى عبادة الله الواحد الرحمن، فهم لم يدخلوا محاربين، ولم يعلقوا السيوف فوق الرقاب لإكراه الناس في الدين، بل استخدموا اللطف والظرف، والسياسة والكياسة، والفكر والمعرفة في سبيل نشر الدين الإسلامي أكثر من استخدامهم إياها لطلب السعة في الرزق والغنى في المال...

---

41) الفلبين : سميت هذه الجزر بالفلبين نسبة إلى «فيليب» الثاني ملك إسبانية الذي في أيامه جرى اكتشافها... ودان أكثر أهلها بالنصرانية وذلك عام 1568م.

42) انظر محاضرة أدبية عن الجزائر الهندية الشرقية للسيد إسماعيل العطاس من الحضارم الذين كانوا مقيمين بجاوى ـ ألقاها في نادي الشباب المسلمين بالقاهرة في 6 يناير 1929.

43) المورو : لقد أخطأ بعض الكتاب حين ظن أن المسلمين من سكان الفلبين هم من أصل مغربي أندلسي، أخذا ذلك من كلمة «مورو»، وفسر وجود «المورو» في هذه الجزر الفلبينية بأنهم هاجروا فرارا بدينهم من حروب الإبادة الإسبانية، وأن الإسبان تعقبوهم.... ولكن الواقع أنه لا علاقة بين «المورو» في الفلبين، و«المورو» في المغرب والأندلس إلا الدين الواحد والموقف الواحد من الجهاد ضد الإسبان... أما أصل مسلمي الفيلبين فهم من جنس الملايو. (انظر تحقيقا في الموضوع للدكتور عبد العظيم الديب في جريدة المسلمون ع : 31/30 غشت 6 شتنبر 1985).

44) حاضر العالم ض : 2/260.

45) وقيل الشيخ يوسف شمس الدين التبريزي أشهر الدعاة في منطقة المحيط الهندي ـ هكذا تقول الوثيقة التاريخية في «مركز البحوث التاريخية» بالمالديف والذي يديره اليوم العلامة محمود صالح... وبهذه الوثيقة، أيضا، يوجد مكتوبا على أحد جدران المسجد الجامع الذي يواجه مقر الرئيس والذي بني منذ ثمانية قرون.

46) قال ابن بطوطة عن «جزر المالديف» المتناثرة على المحيط الهندي، وتتكون من 1087 جزيرة، والتي زارها في القرن الرابع عشر الميلادي : «أنها تشتهر بالجمال الطبيعي الساحر، والهدوء الشامل، والنساء الجميلات، إنها إحدى عجائب الدنيا السبع» وعاصمتها : مالي... وتوجد لوحة زيتية على أحد جدران المتحف الوطني للرحالة ابن بطوطة رسمت عام 1982 أحياء لذكراه، لأنه أول من كتب عن «المالديف».

47) إلى يسار مقر رئيس الجمهورية، اليوم ضريح أبو البركات البربري الداعية المغربي، والذي يتبرك به المسلمون في المالديف باعتباره أول من حمل دعوة الإسلام إلى البلاد واسم صاحب الضريح مكتوب بالعربية، وإلى جواره اسم الملك الذي أسلم على يديه، فأسلم معه أهل البلاد...

48) انظر : مجلة «دعوة الحق» س : 13/ع : 5 ـ 6 مزدوج، وانظر مقالا عن انتشار الإسلام في جمهورية المالديف للدكتور عبد الله الطرازي، مجلة : «البعث الإسلامي» التي تصدرها ندوة العلماء «لكناو» الهند ـ مج : 30 ع : 2/ص :88 ـ يوليوز 1985 / «مجلة العربي» ع : 1984/10/311.

وقد نقل المستر «ستودارد» في كتابه : «حاضر العالم الإسلامي» بعض أشياء عن السيد «بونه موري G. Bonet MAURY في كتابه : «الإسلام والنصرانية في إفريقية L'Eslamisme et Le Christianisme en Afrique فقال : «إن الإسلام انبسط على إفريقية الشمالية الغربية، فتحولت هذه الأقطار دار إسلام رغبة أو كرها... ولكنه افتتح إفريقية الشرقية سلما... وكان ذلك بواسطة تجار العرب والهنود الذين كانوا يفدون على تلك الديار زرافات، فوصلوا إلى رأس CUARDAFUI وإلى جنوبي Capricorne ولقد وجد منذ القرن الألف بعد المسيح مسلمون في «كيلوان» على أكثر من 20 من العرض الجنوبي أدنى من «زامبازه» Zambeze ثم قال : «بعد أن وطد دعاة الإسلام دعائم هذا الدين في جميع سواحل إفريقية الشمالية قصدوا داخل البلاد، ضاربين إلى الصحراء التي يسكنها البربر، وفاقوا في ذلك أساقفة إفريقية اللاتينية الذين، في أوج عزهم وسلطانهم، لم يفكروا في نشر الدين المسيحي في تلك الجهات... فزنوج السودان تلقوا القرآن من جهتين : إحداهما : البربر المسلمون، والثانية : القوافل التجارية العربية التي كانت تخترق فزان والواحات إلى «تمبكتو»، فسلاطين دولة المرابطين، وكانوا متحمسين جدا في الإسلام، خرجوا في مراكش قاصدين أواسط إفريقية لحمل أهالي بلاد غانة ومالي على الإسلام، فظهر أبو بكر بن عمر من أعوان الملك سنى على، وهو بربري الأصل، وشيد مملكة «السونغاي» في غانة عام 1087م.

وكانت هذه السلطنة تنقسم إلى أربع ممالك. وكانت قاعدتها «جنة» Djenne التي كنت ترى فيها التجار والعلماء من المغرب الأقصى ومصر والجزائر... وكانت سفائن هذا السلطان تسري في النيجر، وقوافل الصحراء تحمل البضائع إلى أطراف هذه السلطنة، فتنقل الذهب والعاج والنحاس والمسك... ودين محمد.

وانبث المرابطون في القرى، يعلمون القرآن والكتابة بالعربية، وكان أبناء المشايخ يأتون إلى «تمبكتو» لتحصيل العلم، فلم تكن «تمبكتو» سوقا لتجارة أواسط إفريقية فقط، بل كانت دار علم انتشر ذكرها حتى سواحل البحر المتوسط... ولما مات أبو بكر بن عمر في عام 1102م، كانت بلاد النيجر إلى حدود «الكونغو» إسلامية (49).

أطيب المكاسب ما كان بعمل اليد :

حدثنا التاريخ الأمين أن كثيرا من العلماء والفقهاء الذين شغلوا مناصب دينية، من وعظ وتعليم وخطابة وأذان، طلبوا أرزاقهم من جهات حرة، ووجوه شريفة... بل إن النظم الجامعية الإسلامية لم تحل دون الجمع بين الالتحاق بالجامعة، والسعي في طلب الرزق، وأكثر ما كان ذلك في الجامعات المسجدية...

بل إن الأنبياء والرسل كانوا ذوي صناعات وتجارات يبتغون المعايش في الدنيا، ويمشون في الأسواق... (50) فسيدنا آدم كان حراثا، وطالوت دباغا، وقيل سقاء (51)، وشيت كان يشتغل بالنسيج، وسيدنا نوح بالنجارة (52)... وكان أئمة الهندسة اليونانيون كلهم أئمة في صناعة النجارة، فكان «إقليدس» EUCLIDES صاحب كتاب : «الأصول» في الهندسة الذي شرحه الفلكي نصير الدين محمد الطوسي، نجارا، وبها كان يعرف... وكذلك «أبلونيوس» صاحب كتاب «المخروطات»، «وميلاوش»... وغيرهم...

وفيما يقال : إن معلم النجارة في الخليقة، هو نوح عليه السلام، وبها أنشأ سفينة النجاة التي كانت بها معجزته عند الطوفان...

قال ابن خلدون : وهذا الخبر، وإن كان ممكنا، أعني كونه نجارا، إلا أن كونه من علمها أو تعلمها لا يقوم دليل من النقل عليه لبعد الآماد، وإنما معناه، والله أعلم، الإشارة، إلى قدم النجارة (53)... وقد عرف سيدنا لوط

49) الأمير شكيب أرسلان حاضر العالم الإسلامي ص : 360 ـ 2/361.
50) «الجامع لأحكام القرآن» القرطبي ص : 13، ج : 13.
51) نفس المصدر ص : 11/321.
52) «قصص الأنبياء» ص : 34، عبد الوهاب النجار وانظر : حاشية الشيخ محمد الشنواني على مختصر ابن أبي جمرة ص : 102.
53) مقدمة ابن خلدون ـ ص : 3/939.

بالصيانة، وداود عليه السلام بصناعة الحديد، قال سعيد بن المسيب : كان لقمان الحكيم خياطا، وقيل كان إدريس عليه السلام خياطا (54)... وقد زعم جماعة من العلماء أن إدريس أول من بنى الهياكل، ومجد الله فيها، وبنى الأهرام، والبرابي في صعيد مصر الأعلى، وصور فيها جميع الصناعات والآلات، ورسم فيها صفات العلوم حرصا منه على تخليدها لمن بعده خيفة أن يذهب إسمها في العالم (55)...

جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿**وعلمناه صنعة لبوس لكم، ليحصنكم من بأسكم**﴾ (56) من الحديد، أن داود عليه السلام لما ملك بني إسرائيل لقى ملكا، وداود يظنه إنسانا وداود متنكر خرج يسأل عن نفسه وسيرته في بني إسرائيل في خفاء، فقال داود، لذلك الشخص الذي تمثل له : «ما قولك في هذا الملك داود ؟» فقال له الملك : «نعم العبد، لولا خلة فيه، قال داود : «وما هي ؟» قال : يا كل ويطعم عياله من مال المسلمين (57)، ويرتزق من بيت المال، ولو أكل من عمل يده لتمت فضائله» فرجع... فدعا الله في أن يعلمه صنعة ويسهلها عليه، يستغني بها عياله، فعلمه صنعة لبوس، فعمل الدروع، وهو أول من عملها (58)... والآن له الحديد فعمل السابغات (59)...

قال النووي : الصواب أن أطيب المكاسب ما كان بعمل اليد، ولما فيه النفع للآدمي وللدواب... ولأنه لابد فيه في العادة أن ياكل منه بغير عوض، ومن لم يعمل بيده... فالزراعة في حقه أفضل (60)... فمن فضل العمل باليد، الشغل بالأمر المباح عن البطالة واللهو وكسر النفس بذلك، والتعفف عن ذلة السؤال، والحاجة إلى الغير (61).

54) «المستطرف» لأبي الفتح الابشيهي ص : 2/58. ولقدم هذه الصناعة ينسبها العامة إلى إدريس عليه السلام، وهو أقدم الأنبياء، وربما ينسبونها إلى هرمس HERMÈS. وقد يقال إن هرمس الهرامس هو إدريس (مقدمة ابن خلدون ص : 3/940).

55) «قصص الأنبياء» عبد الوهاب النجار ص : 29.

56) سورة الأنبياء، رقم الآية : 80.

57) تفسير أبي الفدا إسماعيل بن كثير ص : 5/533.

58) تفسير القرطبي : ص : 11/320 فكان داود يعمل الزرد ويبيعه ويجعل الثلث لنفسه، والثلث لأمه، والثلث يتصدق به، (الشنواني على مختصر ابن أبي جمرة ص : 102).

محمد رسول الله يحمل الصخر بيده الشريفة :

ويحفظ عن النبي ﷺ أن أجر نفسه قبل النبوة في رعاية الغنم... وأجر نفسه من خديجة في سفره بما لها إلى الشام... وإن كان العقد مضاربة، فالمضارب أمين، وأجير، ووكيل، وشريك...

فأمين إذا قبض المال...

ووكيل إذا تصرف فيه...

وأجير فيما يباشره بنفسه من العمل...

وشريك إذا ظهر فيه الربح...

فرسول الله أجر نفسه من خديجة بنت خويلد سفرتين إلى جرش (62)، كل سفرة بقلوص (63)...

وشارك رسول الله ﷺ... ولما قدم عليه شريكه، قال : «أما تعرفني» قال : «أما إن كنت شريكي، فنعم الشريك، كنت لا تداري ولا تماري (64)...

وكان شراؤه بعد أن أكرمه الله تعالى برسالته أكثر من بيعه، وكذلك بعد الهجرة، لا يكاد يحفظ عنه البيع إلا في قضايا يسيرة أكثرها لغيره، كبيعه القدح والحلس فيمن يريد، وبيعه يعقوب المدبر غلام ابن مذكور، وبيعه عبدا أسود بعبدين، وأما شراؤه فكثير...

ولقد أشار أمير الشعراء أحمد شوقي رحمه الله إلى نشاط رسول الله التجاري، في كتابه : «دول العرب وعظماء الإسلام» فقال :

كان رسول الله في شبابه
لا يدع الرزق وطرق بابه

59) المصدر السابق : ص : 14/266. «المستطرف» : ص : 2/56. ابن كثير : ص : 1/578.

60) نقلا عن التراتيب الإدارية ص : 2/9.

61) حاشية الشنواني على مختصر ابن أبي جمرة ص : 101.

62) في النهاية : جرش، بضم الجيم وفتح الراء : من مخاليف اليمن... وهو بفتحها : بلد بالشام... قال : ابن الجوزي : إنما هو المفتوح الذي بالشام...

63) أخرجه الحاكم في صحيحه من حديث الربيع ابن بدر عن ابن الزبير عن جابر.

64) «زاد المعاد في هدي خير العباده ص : 40 ـ 1/41.

أي رســـــــول أو نبي قبلـــــــــه

لم يطلب الرزق ويبــــغ سبلـــــــه

مـــوسى الكليم استـــؤجر استئجـــــارا

وكـــــان عيسى في الصبـــــا نجـــــارا

من أحسن الأمثـــــال فيمـــــا أحسب :

الخبـــــــــز لا يعطى، ولكن يكسب

والرزق لا يحرمـــــــه عبـــــــد سعى

مضيقـــــا عليـــــه أو مـــوسعــــــا

كـــــان قبيـــل البعث رب مـــــال

وتــــــاجرا، ميسر الأعمـــــــــال

يضرب في حـــزن الفـــلا وسهلـــه

بمـــــال عمــــه، ومـــــال أهلـــــه...

وقد وضع رسول الله ﷺ خلال بضع عشرة ليلة قضاها بالمدينة بناء المسجد، يشاركه في البناء والتشييد كرام الصحابة كأبي بكر والأنصار والمهاجرين، وكان عبد الله بن أبي رواحة يحدو العمل الإيماني بنشيده :

أفلـح من يعـــالـج المســاجـــد

يقرأ القرآن قـــائمـــا وقـــاعـــدا

والرسول يردد معه : المساجدا... قاعدا... والجماعة الإسلامية تردد النشيد، وتعمل بجد وحزم ونشاط...

وتصف إحدى الصحابيات ذلك المشهد فتقول : «رأيت رسول الله ﷺ يؤسس المسجد بقباء، فيأتي الصخرة أو الحجر، فيحمله بيده حتى يصهره الحجر، أنظر إلى بياض التراب على سرته أو بطنه، فيأتي الرجل من قريش والأنصار، فيقول : «يا رسول الله : أعطني الحجر أو أحمله، فيقول ﷺ : لا، خذ حجرا مثله...

فهو عليه السلام يبني مع الصحابة وينقل اللبن والحجارة بنفسه، ويقول :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة

فـــاغفر لــلأنصـــار والمهـــاجرة

وكان يقول :

هـــذا الحمـــال، لا حمـــال خيبر

هـــــذا أبر ربنـــــا وأطهر

وجعلوا يرتجزون، وهم ينقلون اللبن، ويقول بعضهم في رجزه :

لئن قعـــــدنـــــا، والنبي يعمـــل،

لـــذاك منـــا العمـــل المضلـــل (65)

فضلاء الصحابة... اتجروا في البر والبحر :

كانت البلاد العربية طريقا عظيما للقوافل التجارية، وقد قبض على ناصية التجارة عرب الحجاز، وذلك منذ القرن السادس الميلادي... فكان هؤلاء الحجازيون يشترون السلع من اليمنيين والأحباش، ثم يبيعونها على حسابهم في أسواق مصر والشام، وقليلا ما يبيعونها في أسواق فارس، وقد جعل عرب الحجاز مكة قاعدة لتجارتهم، ووضعوا الطريق تحت حمايتهم...

وقد بلغ المكيون، قبيل الإسلام، درجة عظيمة في التجارة، فالتجارة حرفة قريش المختارة، بل قيل بأن قريشا سميت هكذا، لاشتغالها بالتجارة، وفي لسان العرب : «قيل سميت بذلك لأنهم كانوا أهل تجارة، ولم يكونوا أصحاب ضرع وزرع، من قولهم فلان يتقرش المال : أي يجمعه.

وعلى تجارة مكة كان يعتمد الروم، في كثير من شؤونهم حتى فيما يترفهون به... وحتى يستظهر بعض مؤرخي الفرنج، أنه كان في مكة نفسها بيوت تجارية رومانية يستخدمها الرومانيون للشؤون التجارية... وللتجسس على أحوال العرب (66)...

وكان السوق في مكة، وغيرها يتعهدها فضلاء القوم من الصحابة لتحصيل الرزق والمعاش للكفاف، والتعفف عن الناس...

كما كان الصحابة، الأئمة الأعلام يتجرون في البر والبحر، ويعملون في نخيلهم، وهم العلمـــاء، وخريجوا المدرسة المحمدية، وبهم القدوة... قال ابن الحاج في المدخل : «أصحاب رسول الله ﷺ كانوا في الأسواق يتجرون، وحوائطهم وبساتينهم يعملون...

---

65) زاد المعاد، لابن القيم ص : 2/56.

66) «فجر الإسلام» ص : 13، نقلا عن : أوليري : Arabie before Mohamed.

قال قتادة : كان القوم يتبايعون ويتجرون، لكنهم إذا نابهم حق من حقوق الله، لم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله حتى يؤدوه إلى الله...

قال ابن بطال : رأيت في تفسير قوله تعالى : «رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة (67)، كانوا حدادين، وخرازين، فكان أحدهم إذا رفع المطرقة، أو غرز الإشفى، فسمع الأذان، لم يخرج الإشفى من الغرزة، ولم يوقع المطرقة، ورمى بها، وقام إلى الصلاة (68)...

روى ابن ماجه وغيره من حديث أم سلمة أن أبا بكر خرج تاجرا إلى بصرى في عهد النبي عليه السلام... وفي ترجمته من الإصابة : كان أبو بكر معروفا بالتجارة... قال ابن سعد : لما استخلف أبو بكر أصبح غاديا إلى السوق على رأسه أثواب يتجر بها، فلقيه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة عامر ابن الجراح فقالا : كيف تصنع هذا... وقد وليت المسلمين، قال : فمن أين أطعم عيالي ؟ قال : نفرض لك، ففرضوا له كل يوم شطر شاة...

قال ابن زكري على البخاري : وكل من شغلته مصالح المسلمين من قاض ومفت ومدرس كذلك (69)...

وكان عمر يقول : الهاني الصفق في الأسواق، يعني الخروج للتجارة قال القسطلاني : كان احتياج عمر إلى السوق لأجل الكسب لعياله والتعفف عن الناس (70)...

وقد تاجر سيدنا عثمان رضي الله عنه في الجاهلية والإسلام، وقد كان بزازا... قال ابن قتيبة في المعارف في : «صنائع الأشراف» : واكتسب من البزازة مالا بهذه الحرفة...ومن البزازين طلحة بن عبد الله،وسويد بن قيس العبدي، وعبد الرحمن بن عوف (71)، وأبو حنيفة رضي الله عنه الذي كانت له دائرة مالية توزع رواتب شهرية على كثير من فقراء العلماء...

وفي تلبيس إبليس «للشيخ أبي الفرج عبد الرحمن بن علي (ت 597 هـ) : كان الزبير بن العوام (72)، وعمر بن العاص، وعامر بن كريز خزازين، أي يعملون الخز، وهي نساجة تنسج من صوف وابريسم...

فحاطب ابن أبي بلتعة سفير رسول الله ﷺ إلى المقوقس كان يبيع الطعام، وأبو طالب كان يعالج العطر، وسعد ابن أبي وقاص كان يعدق النخيل، وعتبة بن أبي وقاص كان نجارا، والعاص بن هشام كان جزارا... والوليد بن المغيرة كان حدادا، وعثمان بن أبي طلحة كان خياطا، وأمية بن خلف كان طيانا، وعبد الرحمن بن جدعان كان نخاسا، والعاص بن وائل السهمي كان يعالج الإبل والخيل...

وكان الإمام النجاري صاحب تجارة وزرع... وكان إبراهيم ابن أدهم يسقي ويرعى، ويعمل بالكراء، ويحفظ البساتين والمزارع، ويحصد بالنهار... ويصلي بالليل (73)...

وقد استوطن محمد بن نصر المروزي نيسابور، ولم تزل تجارته بنيسابور، أقام مع شريك له مضارب، وهو يشتغل بالعلم والعبادة، ثم خرج سنة خمسة وسبعين ومائتين إلى سمر قند، فأقام بها، وشريكه بنيسابور... وكان وقت مقامه هو المفتي والمقدم بعد وفاة محمد بن يحيى.

قال أبو بكر الصيرفي : لو لم يصنف المروزي إلا كتاب القسامة لكان من أفقه الناس، فكيف وقد صنف كتبا سواها (74)...

وكان أبو خزيمة يعمل الأرسان، ويبيعها قبل أن يلي القضاء، فمر به رجل من أهل الاسكندرية، وهو في مجلس الحكم، فقال : لأختبرن أبا خزيمة، فوقف عليه، فقال له : «يا أبا خزيمة احتجت إلى رسن لفرسي، فقام أبو

---

67) صحيح البخاري ص : 2/4. باب التجارة في البر، وقول قتادة...

68) التراتيب الإدارية ص : 2/4.

69) التراتيب الإدارية ص : 2/25. وانظر : صحيح البخاري : كتاب البيوع : ص : 2/5.

70) صحيح البخاري ص : 4، ج : 2.

71) قال عنه ابن عبد البر : كان تاجرا مجدودا في التجارة... واكتسب مالا كثيرا... قال عليه السلام : «خير تجارتكم البز، وخير صنائعكم الخز» قال العراقي لم أقف له على إسناد، وذكره صاحب الفردوس من حديث علي (ض) (كشف الخفا ص : 1/467).

72) كان الزبير بن العوام تاجرا مجدودا في التجارة كما قال ابن عبد البر...

73) المستطرف ص : 2/55.

74) «طبقات الشافعية» للإمام تقي الدين السبكي ص : 2/21.

خزيمة إلى منزله، فأخرج رسنا، فباعه منه، ثم جلس (75)...

ذلك هو تقدير العمل وأهميته في الفكر الإسلامي...

وأولئك هم العالمون العاملون حقا وصدقا، الذين أفئدتهم كأفئدة الطير، كرمهم الرسول في شخص سيدنا سعد، الذي روي أنه عليه السلام خرج لملاقاته حين قدومه من خيبر أو غيرها من غزواته... فرأى عليه السلام أثرا بيده، فقال : «ما ذاك ؟» قال : «أثر عمل، منه أطعم عيالي... فأخذ سيدي رسول الله عليه السلام يده فقبلها، وقال : «يد» لا تمسها النار...».

بل إن ملوك بني أمية وبني العباس وغيرهم كانوا يعلمون أولادهم الحرف خشية نكبات الدهر، فالرشيد مثلا، كان يتقن صناعة الحرير، وعنه ينقل : «الصناعة تغني من الفقر، وربما تزيد في العمر...

فالصنائع تكسب صاحبها عقلا، ولذلك يحصل عنها وعن ملكتها قانون علمي مستفاد من تلك الملكة... فلهذا كانت الحنكة في التجربة تفيد عقلا... والملكات الصناعية تفيد عقلا، والحضارة الكاملة تفيد عقلا... لأنها مجتمعة من صنائع في شأن تدبير المنزل، ومعاشرة أبناء الجنس، وتحصيل الآداب في مخالطتهم، ثم القيام بأمور الدين، واعتبار آدابها وشرائطها، وهذه كلها قوانين تنتظم علوما، فيحصل منها زيادة عقل (76)...

فللعلماء والفقهاء صناعات وتجارات وأعمال حرة شريفة، ومن قرأ كتاب : «صناعة الأشراف»، ومن تتبع أخبار أهل التجارة والصناعة، من الفقهاء والعلماء والأدباء والخلفاء في كتب الأدب وجد منهم جماعة لاتحصى كثرة من الصحابة، ومن التابعين، ومن الأئمة المتبوعين كأبي بكر وعمر وعثمان وعبد الرحن وعمر بن العاص الذي كان جزارا وعمر بن الخطاب الذي كان سمارا (77)، ومن التابعين سعيد بن المسيب الذي كان يتجر بالزيت، والليث بن سعد الذي شهد له الشافعي... وحسبكم به شاهدا بأنه أفقه من مالك، ولكن أصحابه لم يقوموا به، والذي كان دخله الصافي ثمانين ألف دينار من الذهب في السنة ولم تجب عليه زكاة قط، لأنه لا يتبقى منها ما يحول عليها الحول... وعبد الله بن المبارك (78)... وكثير من نوابغ الفكر الإسلامي كانوا يجمعون بين التعلم والعمل كالزجاج والعلاف والباقلاني... وغيرهم كثير...

قال ابن عباد : امتاز بالعلم من أهل اصفهان ثلاثة : حائك، وحلاج، وإسكاف... فالحائك، أبو علي الرزوقي، والحلاج، أبو منصور حاشد، والاسكاف، أبو عبد الله الخطيب (79)...

كتب ورسائل في الصناعة والتجارة والفلاحة...

تعرض رجال الفكر والاقتصاد في الساحة الإسلامية، قديما، لكثير من الحرف والصنائع التي يجب الاهتمام بها، والإقبال عليها، فكتبوا فيها كتبا خاصة، وألفوا أبوابا وفصولا، وقد عقد أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته فصولا في معنى التجارة ومذاهبها وأصنافها، وأي أصناف الناس يحترف بالتجارة ؟ وأيهم ينبغي له اجتناب حرفها (80)... كما عقد فصلا في الصنائع، وأنها إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته، وأن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة، وطول أمدها، وقد أطال في هذا الموضوع (81)...

---

75) «حسن المحاضرة» للسيوطي ص : 2/88.

76) مقدمة ابن خلدون : ص : 3/972.

77) لست أدري كيف تعمد الشيخ علي الطنطاوي أن ينعت، في إحدى مذكراته الأنيقة الرشيقة سيدنا عمر بأنه كان سمارا، مع أن النبي ﷺ سماهم بالتجار، فاسم التجار أحسن من السماسرة، لأن التجارة مذكورة في مواضع عديدة من القرآن في مقام المدح... فعن قيس بن أبي عرازة، قال : كنا نسمى في عهد رسول الله ﷺ السماسرة، فمر بنا رسول الله، فسمانا باسم هو أحسن منه... فقال : يا معشر التجار، إن البيع محضرة الحلف واللغو، فشوبوا بالصدقة، فكان أول من سمانا التجار، وقد ألف في مسألة السماسرة وأحكامهم أبو العباس الأبياني التونسي.

78) «الشرق الأوسط» مذكرات الطنطاوي، ع : 2298 ـ 14 ـ 3 ـ 1985.

79) معجم البلدان، لياقوت الحموي ص : 18/215.

80) مقدمة ابتداء من ص : 915 ـ 3/923.

81) المصدر السابق : ص : 923 ـ 3/972.

وقد ألف ملك العلماء الإمام أبو بكر بن مسعود الكاشاني (ت : 587 هـ) كتابه : «بدائع الصنائع، في ترتيب الشرائع»، وهو شرح عظيم في ثلاث مجلدات لـ : «تحفة الفقهاء» في الفروع، للشيخ الإمام علاء الدين محمد بن أحمد السمر قندي الحنفي (82)... كما ألف المعلم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللخمي شهر بابن الرامي التونسي كتابا في صناعة البناء (83)، وأحكامها، والذي قال : وهو يقدم نفسه في مقدمة كتابه بأنه بناء أجير (84)... والشيخ أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي (85)... وشهاب الدين محمد بن حسن بن الصائغ الدمشقي (86)... والجاحظ (87)... والشيخ جمال الدين محمد بن عبد الرحمن الحبشي اليمني (88) (ت : 782 هـ)... والشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي الخير الأرميوني الحسني (89)... وأبو عبد الله محمد بن إسحاق ابن سعيد بن إسماعيل السعدي الهروي (90) والحافظ أبو بكر أحمد بن محمد الخلال (91)... وابن الحاج في مدخله (92)... وأحمد بن علي ابن المختار النبطي المعروف بابن وحشية (ت : 296) (93)... وأحمد بن محمد بن الحاج الأندلسي (94)... وعبد الله بن بصال الطليطلي (95)... وأبو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد العوام الاشبيلي، المعروف بابن العوام، من علماء القرن السادس (96)... وأبو عثمان بن أبي جعفر التجيبي (97) (ت : 1177 هـ) وتدل مؤلفات ابن بصال، وابن أبي الخير الإشبيلي، والطغزي على مبلغ تقدم الأندلسيين في ميدان الفلاحة (98)، والعلامة أحمد بن عبد المنعم الدمنهوري (99) أحد شيوخ الأزهر الكبار في المائة الثانية عشرة (18 م) (ت : 1192 هـ)...

المال عندي على حاله...

العفة عن المال سبب لاستنارة البصائر، وانبساط اللسان بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ووضع القبول

---

82) لما عرض الكاشاني شرحه على المصنف السمر قندي، استحسنه، وزوجه ابنته فاطمة الفقيهة، فقيل : «شرح تحفته، وتزوج ابنته» وهذا الشرح تأليف يطابق اسمه معناه... والكاشاني رتب المسائل في هذا الشرح بالترتيب الصناعي الذي يرتضيه أرباب الصنعة... (كشف الظنون ص : 230 ـ 1/371).

83) «كتاب الإعلان، بأحكام البنيان» مخطوط : وقد عمل، أخيرا، على نشره وتحقيقه وتقديم ترجمة لمؤلفه ابن الرامي الأستاذ العالم الفقيه السيد عبد الله الداودي.

84) الإعلان، بأحكام البنيان ص : 2. وهو من أهم ما يقرأ في بابه...

85) له : «الإشارة، إلى محاسن التجارة».

86) له : قصيدة ميمية في ألف بيت في الفنون والصنائع...

87) له : كتاب : «الأخطار والمراتب والصناعات» وكتاب «غش الصناعات»، وله رسالة في مدح التجارة (انظر مجموعة من رسائل الجاحظ ط : مصر : 1324 هـ.

88) له «البركة، في مدح السعي والحركة» في مجلد، اشتمل على خمسة أبواب : الأول في فضل الحرف والزرع وغرس الأشجار وحفر الآبار... (إيضاح المكنون ص : 4/278).

89) له : «النجوم الشارقات، في بعض الصنائع المحتاج إليها في بعض الأوقات» قال الشيخ عبد الحي الكتاني : وقفت على هذا الكتاب في زاوية «الهامل» ببو سعادة بصحراء الجزائر...

90) له كتاب : «الصناع من الفقهاء والمحدثين» ذكره الحافظ أبو سعيد عبد الكريم السمعاني المروزي في حرف السين في كتابه الأنساب (نظام الحكومة النبوية ص : 2/16).

91) له : كتاب في البحث على التجارة» كذا ذكره الروداني في صلته في حرف الخاء...

92) وقد اختصر كلامه، وزاد وبسط ما على المسلم في استعمالها من النيات الفقيه الصوفي أبو العباس أحمد بن عجيبة التطواني في تأليف مخطوط... كما ذكره الشيخ الكتاني.

93) نقل إلى العربية كتاب «الفلاحة النبطية» الذي يعد من أهم الكتب الفلسفية والطبية التي نقلت من اليونانية إلى العربية عن طريق اللغة السريانية... وقد ظل هذا الكتاب معتمد أهل الزراعة إلى أمد غير بعيد، ونقل إلى اللغات الأجنبية، ولولا نقله إلى العربية لضاع، وخسره العالم (دائرة المعارف الإسلامية، مادة ابن وحشية وبروكلمان : تاريخ الأدب العربي ص : 242 ـ 1/243) وقد أنهى الدكتور توفيق فهد الأستاذ بجامعة ستراسبورغ الفرنسية تحقيق هذا الكتاب، ومن المتوقع أن يعمل المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق على طبع الكتاب.

94) له كتاب : «المقنع في الفلاحة» كان حيا عام 447 هـ، طبع الكتاب بالأردن عام 1982.

95) له كتاب : «الفلاحة» أقام ابن بصال برحلات طويلة إلى شمالي إفريقية، كما وصل شرقا إلى مكة والقاهرة، وقد نشر الكتاب وترجمه وعلق عليه «خومي مارية مياس بييكروسا» TOSO Mª MILLAS VALLICROSA ومحمد عزيمان، معهد مولاي الحسن : جاد ووطني...
تطوان 1955 والمعلومات عن الكتاب الكامل أنه مفقود، والمنشور هو ملخصه...

96) له : «الفلاحة في الأرضين» طبع بمدريد عام 1802، وصدر في جزأين.

97) له : «أرجوزة في الفلاحة».

98) ذكر محمد بن غالب في : «فرحة الأنفس» الذي ينقل عنه المقري في مواضع : «أن أهل الأندلس أحكم الناس لأسباب الفلاحة» رقم 493.

99) له : «عين الحياة، في إنباط المياه» وللأستاذ بهجت الأثري عناية بدرس هذا الكتاب وتحقيقه... وللفقيه عبد الحميد الروندي الأندلسي الرباطي : «بيان المراد من علم الاقتصاد «تحدث فيه عن الحرف والمهن والحث على الإقبال على الأعمال الحرة في أسلوب

في الأرض... فالحلال الطيب القليل، أرضى لله، وأبرك على صاحبه، وأصلح في سلوكه من الكثير المدخول...

فالذي يتعفف عن الحرام أو المشبوه مع شدة الفقر والحاجة يعوضه الله الطيب الطاهر الحلال، فياكل طيبا، ويقول طيبا، ويجعل الله في كلامه النفع والقبول، والخير المثمر للناس، ويكون كلامه شفاء للقلوب، وبلسما للأرواح...

وقد بلغ أولئك الأئمة الأعلام الذروة في العلم دون تشجيع يصنع إليهم، أو مكافأة مادية تدر عليهم، أو منزلة حكومية يرتقبونها، أو وظيفة دنيوية يتشبثون بها... إنما كان همهم وقصارى مرادهم، مما ركبوا فيه الصعب والذلول، خدمة دينهم، وإرضاء ربهم، ونصر كتابهم...

ويجب أن نقف على أنفة العلماء الشديدة التي عز نظيرها، وعطروا بها دنيا الناس في الخالدين (100)، فكانوا لسان صدق في الآخرين... قال نصر بن علي الجهضمي : حدثني حسين بن عروة، قال : «قدم المهدي، فبعث إلى مالك بألفي دينار، أو قال : «ثلاثة آلاف دينار، ثم أتاه الربيع فقال : «إن أمير المومنين يحب أن تعادله إلى مدينة السلام... فقال مالك : «قال النبي ﷺ : «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، والمال عندي على حاله (101)...

قال الحارث بن مسكين : «رحم الله مالكا، ما كان أصونه للعلم، وأصبره على الفقر، ولزوم المدينة، أمر له بجائزة ثلاثة آلاف دينار، فما استبدل منزلا غير المنزل الذي كان فيه، ولا استفاد غلة، ولا ضيعة، ولا تجارة... قال ابن القاسم : كان لمالك رحمه الله أربعمائة دينار يتجر له بها، فمنها كان قوام عيشه ومصلحته (102)...

ولعل من أعجب أعمال أساة الأرواح، وحماة الدين، وحراس العقيدة من العلماء المتقدمين اشتغالهم بالحرف والصناعات والتجارات، مع الاعتناء الحقيقي بالإفادات العلمية، والانشادات الأدبية، والتعليمات الشرعية فطابت لهم هذه الأشغال السنية، وحسنت لهم المقامات العلمية...

قال الذهبي : أبو الوليد الباجي سليمان بن خلف القرطبي، صاحب المنتقى، في شرح الموطأ (103)، أقام بالموصل سنة على أبي جعفر السمناني، فأخذ عنه علم العقليات، فبرع في الحديث وعلله، وفي الفقه وغوامضه، قال القاضي عياض : «آجر أبو الوليد نفسه ببغداد لحراسة درب... وكان لما رجع إلى الأندلس يضرب ورق الذهب للغزل، ويعقد الوثائق، قال أصحابه : «كان يخرج إلينا للإقراء، وفي يده أثر المطرقة إلى أن فشا علمه (104)...

قال القاضي عياض : «قال لي أصحاب أبي الوليد : كان يخرج إلينا للإقراء، وفي يده أثر المطرقة من ضرب ورق الذهب للغزل، إلى أن فشا علمه، ونوهت الدنيا به، فعرف حقه، وعظم جاهه، وأجزلت صلاته، حتى مات عن مال وافر (105).

ولما ناظر ابن حزم، قال له الباجي : أنا أعظم منك همة في طلب العلم، لأنك طلبته، وأنت معان عليه، تسهر بمشكاة الذهب، وطلبته وأنا أسهر بقنديل بائت (106) السوق... فقال ابن حزم : «هذا الكلام عليك، لا، لك، لأنك طلبت العلم، وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي، وأنا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته، فلم أرج به إلا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة... فأفحمه (107)...

يقول العلامة الجليل الشيخ محمد أبو زهرة (108)، بعد ذكره هذا الخبر بين الباجي وابن حزم : «يرى ابن حزم أن كثرة المال، وطيب العيش تسد مسالك العلم إلى النفوس، فلا تتجه إلى العلم، فإن الجدة قد تسهل اللهو، وتفتح بابه، وإذا افتح باب اللهو سد باب النور والمعرفة...

100) روي عن سفيان، وكانت له بضاعة يقلبها، ويقول : «لولا هذه، لتمندل بي بنو العباس.
101) تذكرة... ص : 1/196.
102) ترتيب المدارك. لعياض، ص : 2/57.
103) ذهب فيه مذهب الاجتهاد وإيراد الحجج، وهو ما يدل على تبحره في الفنون.
104) تذكرة، ص : 349 ـ 3/350 عن ابن جماعة ـ نفح الطيب ص : 2/76، وانظر ترجمة أبي الوليد الباجي في : معجم الأدباء 11/246، الديباج المذهب 120، «المرقبة العليا» ص : 95. شذرات الذهب : ص : 3/334، القلائد : 188...
105) نفح الطيب ص : 2/77.
106) يريد أنه يسهر على قنديل الدراب، وهو الحارس الليلي.
107) نفح الطيب : ص : 2/77.
108) في كتابه : «ابن حزم» ص : 56.

فلذائذ الحياة، وكثرتها تطمس نور القلب، وتعمي البصيرة، وتذهب بحدة الإدراك...

أما الفقير، وإن شغله طلب القوت، قد سدت عليه أبواب اللهو، فأشرقت النفس، وانبثق نور الهداية... هذا رأي ابن حزم... أما نظر الباجي، فإنه متجه إلى الأسباب المادية من حيث تسهيل الحياة المادية، من غير نظر إلى الأسباب النفسية التي تتضمن أن الغنى يكون في كثير من الأحوال معه الانصراف عن العلم إلى اللهو...

قال الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة : «والذي أراه أقرب إلى الصواب هو اعتذار الباجي، فقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه، وقوله القول الفصل : «لا تستشر من ليس في بيته شيء، لأنه موله العقل (109).

قال الحافظ عبد الكريم : إن أبا بكر الخزرجي محمد بن عيسى المالقي المالكي دخل اشبيلية، واشتغل بالعربية على الشلوبين، وقرأ القراآت السبع، ثم قدم مصر، واشتغل بمذهب مالك، وكان والده نجارا... وكان لا يأكل إلا من كسب يده، يخيط الثياب، فازدحم الناس عليه تبركا به، فترك ذلك، وصار يدق القصدير، ويأكل منه، ويتصدق بما فضل عنه، وكان شديد الزهد، كثير العبادة (111)...

وفي بستان العارفين : (112) كان أبو العباس الأصم، وهو من كبار علماء خراسان ومحدثيهم، لا يأخذ شيئا على التحديث، وإنما كان يورق، ويأكل من كسب يده...

ولهذا نبغ كثير من الأدباء والعلماء من طبقات فقيرة، كأبي العتاهية فقد كان خزافا، وكان أبو تمام يسقي الناس بالجرة، في جامع عمرو بن العاص بمصر... وكان أبو يوسف القاضي في صباه قصارا، وكان يهرب من القصار، ويذهب إلى حلقه أبي حنيفة وأمثال هذا كثيرة...

---

109) كما في «الانتقاء» للحافظ ابن عبد البر ص : 87.

110) ترجم له السيوطي في بغية الوعاة : ص 88، باسم محمد بن عيسى، ونفح الطيب ص : 2/212 تحقيق إحسان عباس.

111) نفح الطيب ص : 2/213.

112) للشيخ الإمام الفقيه أبي الليث نصر بن محمد السمر قندي الحنفي (ت : 375 هـ) وهو كتاب مختصر مفيد على مائة وخمسين بابا في

أنفة... وعزة... وشموخ :

قال ابن أبي زنبر : أجاز هرون الرشيد مالكا بثلاثة آلاف، فقال له رجل من الزهاد... يا أبا عبد الله !! ثلاثة آلاف تأخذها من أمير المومنين ؟ كأنه يستكثرها، فقال مالك : «إذا كان مقدار مالو كان إمام عدل، فأنصف أهل المروءة، أصابه شبيه لذلك، لم أر به بأسا، وإنما أكره الكثير الذي لا يشبه أن يستحقه صاحبه...

وسأله غير واحد عن جائزة السلطان، فقال : لا تأخذها ! فقال له : فأنت تقبلها... فقال : «أتريد أن تبوء بإثمي وإثمك... وقال الآخر : جئت تبكتني بذنوبي !! (113).

وقال سليمان بن سالم : أخذ سحنون بمذهب أهل المدينة في كل شيء، حتى في العيش، كان يقول : «ما أحب أن يكون عيش الرجل إلا على قدر ذات يده، ولا يتكلف أكثر مما في يده... وأكل أموال الناس بالمسكنة والصدقة خير من أكله بالعلم والقرآن (114).

وقال جبلة : كان سحنون لا يأخذ لنفسه رزقا، ولا صلة من السلطان في قضائه كله، ويأخذ لا عوانه وكتابه وقضاته من جزية أهل الكتاب.

قال ابن سحنون : وسمعته يقول للأمير : والله لو أعطيتني ما في بيت مالك، أو قال له : لو ملات مجلسك هذا لي دراهم أو دنانير، ما سألني الله أن أقبل منك ذلك، ولا آخذ منه شيئا، ويقول : لو أخذته لجاز لي، ولكنه تورع (115).

وكان ابن الأغلب يقول في قضيته مع سحنون : «إن سحنون لم يركب لنا دابة، ولا اتقل كمه بصرة، فهو لا يخافنا (116)...

الأحاديث والآثار الواردة في الآداب الشرعية والخصال والأخلاق، وبعض الأحكام الفرعية.

113) المدارك : 109.

114) المدارك : ص : 4/54.

115) نفس المصدر والصفحة.

116) مدارك القاضي عياض : ص : 4/67.

ويبدو أن سحنونا ظل في المدة التي كانت بين عودته، وبين توليه القضاء يحدث ويفتي، ويعمل في مزرعة له غرسها زيتونا حتى نمت وانتجت له من محصول الزيتون، ما كان يكفي حاجته وحاجة أسرته، ولهذا حين تولى القضاء، لم يقبل أن يأخذ لنفسه من الأمير رزقا ولا صلة في قضائه كله، أما أعوانه وكتابه، فكانت تجرى أرزاقهم عليهم من قبل الأمير... ولهذا كان الأمير محمد بن الأغلب يقول في موقفه مع سحنون : «إن سحنونا لم يركب لنا دابة، ولا عقل كمه بصرة، فهو لا يخافنا...

ولم يكن يمتنع عن أخذ الراتب تحريما له، وإنما زهادة في الدنيا وتورعا، وهو يقول : «لو أخذته لجازلي».

وأما مزرعته من الزيتون فكانت تغل له في العام ما يبلغ ثمنه حوالي خمسمائة دينار، ومع ذلك كان يتصدق منها على قدرما يستطيع...

قال الحارث : كان عبد الرحمن بن قاسم العتقي لا يقبل جوائز السلطان، وكان عليه دين إلا أنه كان له من القروض ما يفي (117).

بل حتى تلك الصلات والهدايا كان كثير من العلماء يستنكفون منها، ويتحاشونها... قال إسماعيل بن قعنب : كنت مع عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي عند مالك، فكانت الهدية تأتي إلى مالك بالنهار، ويهديها إلى ابن وهب بالليل (118).

☆ ☆ ☆

لم يأته ! ولم يصله !!

لقد كان الموظفون الدينيون من رجال الوعظ والإرشاد، والإقراء والتعليم يعملون لكسب أرزاقهم عن طريق أعمال حرة طليقة شريفة يقومون بها، ويسعون في طلب معيشتهم عن طريق المال الحلال، بل إنهم كانوا يعفون حتى عن الخوض في ميدان التجارة تعففا وورعا...

ونقرأ عن الإمام الجليل العابد الناسك الذي جمع بين العلم والعمل عبد الله بن المبارك الذي عمل في ميدان التجارة، بقصد القيام بمئونة من قصر نفسه على بث العلم والحديث، ولم يتفرغ من أجل ذلك للتكسب لعياله كما قال الحافظ، السخاوي، وكان يقول : «لولا خمسة ما اتجرت... السفيانان، وفضيل، وابن السماك، وابن علية، أي ليصلهم، فقدم سنة، فقيل له : «قد ولى ابن علية القضاء !! فلم يأته، ولم يصله بشيء... فأتى إليه ابن علية، فلم يرفع رأسه إليه، ثم كتب إليه ابن المبارك يقول :

يا جاعل العلم له بازيا
يصطاد أموال المساكين
احتلت للدنيا ولذاتها
بحيلة تذهب بالدين
فصرت مجنونا بها بعد ما
كنت دواء للمجانين
قد يفتح المرء حانوتا لمتجره
وقد فتحت لك الحانوت بالدين
صيرت دينك شاهينا تصيد به
وليس يفلح أصحاب الشواهين
أين رواياتك فيما مضى
عن ابن عوف، وابن سيرين
إن قلت أكرهت فذا أباطل
زل حمار العلم في الطين (119)...

فلما وقف إسماعيل بن علية على الأبيات، ذهب إلى الرشيد، ولم يزل به إلى أن استعفاه من القضاء... فأعفاه...

لقد كان عبد الله بن المبارك الإمام الفذ مع علمه يحترف التجارة طوال حياته، ولعله أخذ هذه الحرفة عن

---

117) نفس المصدر.

118) ترتيب المدارك ص : 3/236، ولما أراد نابليون أن يكرم رجالات مصر عندما احتل البلاد، خلع على الشيخ الشرقاوي الزعيم الكبير طيلسانا فرنسيا فرماه الشيخ إلى الأرض مشمئزا... وظهر انفعاله وغضبه... فاغتاظ نابليون، وقال : إنه لتشريفكم ولتعظيم الجنود لكم، فقال الشيخ : «ولكن إنعامك علينا يسقطنا أمام شعبنا («ظلام السجن» ص : 430، للمجاهد محمد علي الطاهر الذي أهدى إلي نسخة بخط يده رحمه الله وأثابه.

119) «حياة الحيوان» لكمال الدين الدميري ص : 1/108، «وفيات الأعيان» ص : 2/239، طبقات الشافعية، ص : 1/149.

أبيه، فقد كان تاجرا، أو عن أستاذه أبي حنيفة حيث تعلم منه العلم والتجارة (120)...

لقد كان عبد الله بن المبارك غنيا واسع الغنى، وأنه كانت له تجارة واسعة يدور بها في البلدان، وأن رأس ماله كان أكثر من أربعمائة ألف، وأن كسبه كان يربو في كل سنة على مائة ألف... ولم يكن غناه هذا إرثا عن أبيه... فأبوه كان ناطورا في بستان... ولم يكن من أرباب الأموال... ولم ينله من هبات الحكام، فما كان لمثل ابن المبارك أن يقبل عطايا الناس، ولكنه جمع هذا المال من كد جبينه، وعمل يده... جمعه لا ليخلفه إرثا لمن بعده، ولا ليركمه في الصناديق، ولا ليبذره في الحصول على الأثاث والرياش الفاخر، والتحف النفيسة، والا علاق الكريمة... لقد كان ابن المبارك أعقل من ذلك، فما كان له، وهو العاقل والورع الزاهد التقي الذي باع دنياه بآخرته، وآثر ما يبقى على ما يفنى أن يعود فيجمع المال ليكون عليه وزرا وأن لا يسارع إلى إنفاقه في سبيل الله، وسائر وجوه الخير، فقد جعل غناه طاعة لله، وباع نفسه لله، مجاهدا في سبيل الله...

وأنه كان يخصص مائة ألف درهم في كل سنة ينفقها كلها في أهل العبادة والزهد والعلم... وهذا كل ما يربحه من تجارته (121).

☆ ☆ ☆

وهذا مثال فذ آخر، من الأئمة الأعلام، وهو الإمام الشافعي الذي ملأ طباق الأرض فقها وعلما، وإخلاصا وتضحية طوال أربعة وخمسين عاما... وفي عمر قصير، لقد كان رضي الله عنه مخلصا لرسالة العلم...

فأي أجر كان يتقاضاه طوال هذه الفترة، وهو يلقن العلوم والفنون ؟.

وأي ثواب كان يناله، إلا ثواب الله، لقاء ما ينشره من درر، وغرر، وفلسفة عالية عميقة في الفقه والأصول، وعلوم الآداب والمعارف الإنسانية على طلابه وقصاده ؟

لقد وضع لنفسه رضي الله عنه نظاما لم يحد عنه... إنه يبدأ أدروسه بعد صلاة الفجر بعلوم القرآن... فإذا انتهى منها جلس إلى دروس الحديث، ثم يجلس بعد هذا مجلسا لم يجلسه من قبل في حلقة قط، ولكنه تمنى أن يجلسه، وهو مجلس علوم اللغة والشعر (122) وشتى المعارف الإنسانية الأخرى، وفي هذا المجلس الأخير كان يعظ من يستمع إليه أو يحاوره... إنما العلم علمان : علم الدين وعلم الدنيا... فأما الذي هو علم الدين، فهو الفقه... والعلم الذي للدنيا هو الطب، فلا تسكنن بلدا ليس فيه عالم يفتيك عن أمر دينك، ولا طبيب ينبئك عن أمر بدنك...».

وكان الإمام الشافعي في مجلسه الثالث إذا لم يجد بين الحاضرين من يحسن مذاكرته في الأدب والشعر والعلوم الإنسانية طلب من صحبه أن يبحثوا له عن أدباء وعلماء وشعراء مصر، فما يزالون يتذاكرون حتى تحين صلاة الظهر، فيصلي بهم، أو يصلي خلف واحد منهم... وينصرف الجميع... ويعود الإمام الشافعي إلى داره... وقد يصطحب بعض صحبه وطلبته للغذاء معه، ثم ينصرف إلى العمل...

---

120) «العبر في أخبار من غبر» للذهبي ص : 280، «شذرات الذهب، في أخبار من ذهب» لابن العماد الحنبلي، ص : 1/197.

21) عبد الله بن المبارك، الإمام القدوة / محمد عثمان جمال : ص : 180، وللأستاذ علي الطنطاوي كتيب عن عبد الله بن المبارك في سلسلة أعلام التاريخ، كما أن له كتابات عنه في كتابه : «رجال من التاريخ».

122) ظهرت محاولتان لجمع ديوان الشافعي، أولاهما : لأحمد بن أحمد العجمي (ت : 1029 هـ) وسمى كتابه : «نتيجة الأفكار، فيما يعزى إلى الإمام الشافعي من الأشعار» واختار منها محمد مصطفى مجموعة من أشعاره سماها : «الجوهر النفيس، في أشعار الإمام محمد بن إدريس» ط : 1321 هـ...
ومن جمع شعره في العصر الحديث في ديوان : القاضي زهدي يكن، ط : بيروت سنة 1961، وعبد العزيز سيد الأهل، ط : بالقاهرة : 1966، ومحمد عفيف الزعبي، ببيروت 1971، وهناك كتاب قيم بعنوان : «دراسة فنية في شعر الإمام الشافعي» للأستاذ حكمت صالح، ويتضمن دراسة نقدية قيمة تقوم على التذوق والمقارنة وقام الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي هذا العام بتحقيق أشعار الإمام الشافعي لتصدر في كتاب بعد رحيله بأكثر من 1200 سنة، ولتضيف إلى عطائه الغزير في مجالات الفكر من إمامة في الدين والفقه والأصول والحديث واللغة والأدب والنقد المنهجي.

وكان دائما ينشد من كلامه هذين البيتين :

حسبي بعلمي إن نفع.
ما الذل إلا في الطمع !!
ما طار طير، وارتفع.
إلا كما طار، وقع !!

أو ينشد، وهو يستهين بسطوة الفاقة، ويكسر جبروتها بصبره الجميل، وجلده الثابت الذي كسر صفاتها، فيقول فيما نسب إليه :

أمطري سماء سرنديب (122) مكرر
واخرجي آبار تكرور تبرا
أنا إن عشت لست أعدم قوتا
وإذا مت لست أعدم قبرا
همتي، همة الملوك، ونفسي
نفس حر، ترى المذلة كفرا

وهكذا كان الإمام الشافعي يجلس طوال اليوم، يعلم الناس، ويشافهم، ويحاورهم في حلقاته الثلاث : حلقة القرآن، وحلقة الحديث، وحلقة الأدب والشعر والمعارف الإنسانية في ذلك الجو العربي العبق الساحر المصري...

وقد حدثنا التاريخ بأن الإمام الشافعي لخص في هذه الحلقات قواعد أصول الفقه بقوله : «نحكم بالكتاب والسنة المجمع عليها التي لا اختلاف فيها، فنقول لهذا حكمنا بالحق في الظاهر والباطن، ونحكم بنسبة رويت عن طريق الانفراد لا يجتمع الناس عليها، ونحكم بالاجماع ثم بالقياس، وهو أضعف من هذا، ولكنه منزلة ضرورية، لأنه لا يحل القياس، والخبر موجود...

وهكذا كان الإمام الشافعي يظل يومه جاهدا متعبا في نشر العلم وتقعيد قواعده، ويكلف نفسه من العناء والمشقة ما لا تحتمله طاقة بشر...

ويذكر عنه رضي الله عنه أنه لما قدم مصر قال له عبد الله بن الحكم : «إذا أردت أن تسكن هذا البلد، فليكن لك قوت سنة، ومجلس الأمير تتعزز به... فقال له الشافعي : «يا أبا محمد، من لم تعزه التقوى، فلا عز له، ولقد ولدت بغزة، وربيت بالحجاز، وما عندنا قوت ليلة، وما بتنا جياعا قط.!!.

ومع ذلك أعاد الإمام الشافعي في نحو خمسة أعوام كتابة ما ألفه في نحو ثلاثين عاما، وزاد على ذلك، وهو في مصر كتبا (123) جديدة كتبها أو أملاها حتى أجهده طول الجلوس للكتابة والتدريس، فاشتدت عليه علة البواسير، وغلبه نزيفها، فقد بلغ به الجهد الذي بذله، وأثر فيه العناء المخلص الذي يقدمه بين يدي نجواه... ولقد حكي عنه أن قال لمن حوله أنه ليعرف علته، ولكنه يخالف فيها الطب والطبيب !! فقد كانت علته تتطلب

(122) مكرر : «سرنديب» إحدى جزر جنوب شرق آسيا، تقع على بعد 30 كلم من جنوب شرق سواحل الهند... هكذا عرفها العرب بهذا الاسم، وعُرفت بعد ذلك، باسم جزيرة «سيلان».. ومنذ عام 1972، أصبحت تعرف باسم : «سري لانكا» ويشكل المسلمون اليوم حوالي 10٪ من السكان البالغ عددهم 15 مليون نسمة... وثيقة مع العرب من خلال التجارة.
وعدد المساجد في «سري لانكا» اليوم يبلغ حوالي ألفي مسجد موزعة على المدن والقرى التي ينتشر فيها المسلمون..
وتزداد الحملات العنصرية ضد المسلمين في الفترة الأخيرة، وتسعى الأغلبية البوذية من طائفة السنهال، والهندوس من طائفة التاميل إلى خوض حملة إبادة عنصرية ضد المسلمين.

(123) من العلماء الأفذاذ الذين تعاصروا جميعا، وضربوا بسهم كبير في وفارة الإنتاج الفكري والتأليف، فالجاحظ الذي خرج من الدنيا عن زهاء ثلاثمائة وستين مؤلفا في ضروب شتى من العلوم... وأبو الحسن علي بن محمد المدائني (135 ـ 225) الذي ألف نحو مائتين وأربعين مصنفا كما ذكر ابن النديم، وهشام بن محمد الكلبي الكوفي (206 هـ) الذي ألف نحو مائة وتسعة وثلاثين مؤلفا، وأبو عبيدة معمر بن المثنى الذي تقارب تصانيفه مائتي مصنف كما قال صاحب الوفيات، وكان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وقد اجتمع عنده بخط من تواليفه نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من نحو ثمانين ألف ورقة (نفح الطيب ص : 2/83) كذا منقول عن تاريخ صاعد الحافظ، الذهبي... وقد بلغت تواليف عبد الملك بن حبيب السلمي عالم الأندلس (نفح الطيب 1/46) ألفا من أشهرها كتاب الواضحة (ص : 2/6، المصدر السابق) في مذهب مالك... انظر، ضخامة التراث الإسلامي الذي خلفه المسلمون دون غيرهم، فلا العبرانيون والسريان، ولا الفرس واليونان ولا غيرهم ممن ظهر في أوربة بعد عصر النهضة لهم مثل تراث العرب في ص : 457 ـ 2/463 من كتاب : نظام الحكومة النبوية.

منه الراحة، وعدم إطالة الجلوس في الكتابة أو الحلقات، وقد زاره طبيب مصري، فتناظرا في الطب، فأعجب به الطبيب المصري، وتمنى عليه أن يشتغل بالطب، فقال الشافعي ضاحكا، وهو يشير إلى أصحابه المنتظرين خارج غرفته : «هؤلاء لا يتركونني...» وخرج الشافعي من داره بعد أيام إلى حلقته من جديد...

فأي ثواب كان ينتظره الإمام الشافعي لقاء هذه الجهود المضنية ؟ وأي شهادة عليا كان ـ رضي الله عنه، يسعى للحصول عليها لينال بها ترقيات إدارية أو حكومية ؟

وأي أجر مادي كان يجهد فيه نفسه، ويعمل كي يناله ممن وضع الله بيدهم مقاليد الأمور، وأرزاق الناس ؟ (124).

☆ ☆ ☆

الناس أكيس من أن يمدحوا رجلا...

وما لنا نذهب بعيدا في التاريخ ننقب صفحاته، وفي صدر هذا القرن رأينا أعلاما كبارا، وعلماء مصلحين، ودعاة مهتدين أرصدوا الأهب، وعقلوا نشاطهم لتربية الأرواح، وتهذيب النفوس، والأخذ بضبع أممهم التي تدلي قدرها بين الأمم، فنفخوا فيها روح العزة والشهامة، ورسموا أمامها آيات المجد، وطريق الشرف والعز اللاحب...

فهذا الإمام الشيخ جمال الدين الافغاني، والشيخ الإمام محمد عبده وشكيب أرسلان، والشيخ أبو شعيب الدكالي، والعلامة الأستاذ المدني بن الحسني، والمصلح الوطني الشيخ محمد بن العربي العلوي ومحمد عبد السلام السائح وغيرهم من زعماء الإصلاح الذين طار صيتهم أي مطار، وعلا نجمهم في الدنيا والآخرة إن شاء الله، واخلصوا دينهم لله، مما ترك الألسنة تلهج بالثناء والعطر على إخلاصهم وتفانيهم، فما عرفنا أحدا من هؤلاء، وغيرهم كثير جدا، كان يتقاضى أجرا ماديا، وثوابا مجزيا لقاء قيامه بتدريسه ووعظه وجهده وجهاده، فكانوا محمدة في الأفواه، تعطر بذكرهم المجالس...

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلا
حتى يروا عنده آثار إحسان...

☆ ☆ ☆

ولا يقال بأن الشريعة الإسلامية جاءت بذم الدنيا، فنفر منها العلماء الصالحون، وأعرضوا عنها، لأن الذم والمدح يختلفان باختلاف الاعتبار... فذمها باعتبار من رضيها لنفسه حظا وغاية مع التفريط في الدين لقوله تعالى : ﴿**ورضوا بالحياة الدنيا، واطمانوا بها**﴾ وقوله ﷺ : «الدنيا قنطرة، فاعبروها ولا تعمروها».

وأما مدحها فاعتبار تناولها من الوجوه المشروعة وإنفاقها في الوجوه المحمودة، لقوله تعالى : ﴿**قل بفضل الله وبرحمته، فبذلك فليفرحوا**﴾ وقوله عليه السلام : «من غرس غرسا لم يأكل منه طائر ولا بهيمة إلا كان له صدقة» وقال سيدنا علي كرما لله وجهه : «الدنيا دار نجاة لمن فهم عنها. ودار غنى لمن تزود منها، والناس فيها رجلان بائع نفس موبقها، ومبتاع نفس فمعتقها (125)...

إعراض... ونفور... من المناصب الخطرة :

وقد نفر كثير من العلماء من المناصب الخطيرة كالقضاء وغيره، فكانوا يعرضون عنها ويفرون منها... قال

---

124) يذكر التاريخ أن محمد بن إبراهيم بن وضاح اللخمي (ترجمته في التكملة ص : 544، والذيل والتكملة ص : 6/39) أقرأ بجزيرة «شقر» القرآن نحوا من أربعين عاما، لم يأخذ من أحد أجرا ولا قبل هدية، وولي الصلاة والخطبة بجامعها. (نفح الطيب ص : 2/160).

125) «خطوة الأقلام» لأحمد بن السواز مخطوط رقم : 40، حرف الحاء... كناش من صندوق محمد الحجوي، الخزانة العامة ـ الرباط.

الزبير : وعرض على الإمام مالك أمير المومنين هرون الرشيد قضاء فقال : والله يا أمير المومنين، لأن يخنقني الشيطان أحب إلي من أن ألي القضاء... قال الرشيد : «ما بعد هذا شيء» وأعفاه، وأجازه بألفي دينار (126).

ويقال إن القاضي ابن عاصم إنما ألف كتاب «الحدائق» الذي يشتمل على أمثال أهل غرناطة ليكون مدعاة إلى القدح فيه، وذريعة إلى إعفائه من خطة القضاء التي كان يتهرب منها.

وفي حوليات نشر المثاني للقادري (127) نقرأ أنه في عام خمسة ومائة وألف (1105 هـ) ولي قضاء فاس الإدريسية الفقيه العلامة الأروع أبو العباس أحمد الجرندي، فلم يقبل، واستعفى، فأعفي...

وذكر بعضهم أنه تحامق، وجعل يفعل بنفسه فعل من لا يعقل، ويرتكب المحقرات من الأعمال حتى تركوه، وذلك منه رحمه الله فرارا بدينه، وتفاديا من تقليد حقوق المسلمين، واختيارا لطلب السلامة.

وقد روى «ريتشارد بيرتون» (128) قصة تأليف الشيخ الإمام أبي عبد الله محمد بن محمد بن عمر النفزاوي الذي كان من علماء القرن الثامن كتابه : «الروض العاطر، ونزهة الخاطر» (129) الذي يعد كتابا - إذا أردنا تصنيفه، اليوم، بمنطق العلوم الحديثة - في علم الجنس أو في علم النفس الجنسي قال : «إن حاكم تونس المولى عبد العزيز الحفصي عرض على الشيخ النفزاوي منصب القضاء لما عرف من علمه بالدين والأدب والقانون والطب، ولم يرغب الشيخ في هذا المنصب، ولكي لا يرفض للحاكم أمرا، فقد طلب تأجيل توليه مهام القضاء حتى يتمكن من الانتهاء من كتاب يعمل به، فأجيب إلى طلبه، واستطاع إنهاء كتابه، وأهدى منه نسخة إلى وزير الدولة آنذاك محمد بن عوانة الزواوي، ولفت الكتاب الانتباه، ولطبيعة موضوعه أصبح من المستحيل أن يسند إلى مؤلفه منصب كمنصب القاضي (130).

ويذكر أن عبد الواحد بن أحمد الحميدي قاضي فاس، وحامل لواء المذهب، والذي كان إليه المرجع في المسائل الفقهية في المغرب مع المشاركة في كثير من الفنون، كان يتطلب العلم في ابتداء أمره، ثم تركه... واتخذ حانوتا للتجارة يبيع فيها الثياب الخلقة بالسوق المعروف لذلك بفاس (131).

كما كان القاضي أبو القاسم أحمد بن خلف الحوفي الإشبيلي محمود السيرة والنزاهة، ويقال إنه ما أخذ مرتبا على القضاء، بل كان يصطاد الحوت مرة في الأسبوع يقتات بثمنه حتى خلصه الله من القضاء (ت : 588 هـ) (132).

---

126) المدارك : س : ص : ج : 9.

127) حسب مخطوطة فريدة بمكتبة : «البودليان» بجامعة اكسفورد ص : 21.

128) «ريتشارد بيرتون» كان على معرفة وثيقة وعميقة بالأدب العربي والهندي والفارسي وتعتبر ترجمته الإنجليزية «لألف ليلة وليلة» من أكثر الترجمات دقة، وقد بدأ بيرتون 1888 ترجمة جديدة للكتاب في أصل عربي كامل انتهى منها عام 1890 قبل وفاته مباشرة، زودها بهوامش وتعليقات كثيرة مع مقدمة جديدة وافية، ثم قام شخص إنجليزي يدعى شالرزكارنجتون» في باريس، عاقدا العزم على طبع الأعمال النادرة التي يمكن أن تمنع في إنجلترا الفيكتورية، وقد عثر على نسخة عربية واحدة أصيلة تتكون من أربعة أجزاء بواسطة أحد علماء الأزهر يدعى عبد الفتاح، ومنسوخة بيد خطاط سوري، وقام بقراءة المخطوطة ومراجعتها المستشرق الروسي : سيليسون الذي أبدى رأيه بأن هذه أكثر النسخ العربية التي عرفت من هذا الكتاب اكتمالا.

129) الحقيقة أن هذا الكتاب للشيخ النفزاوي كتاب جاد، ذو هدف جاد، وإن كان قد مزج الفكاهة بهذه الجدية، فهي طريقة كان يتبعها الكثيرون قبله، وهو من الكتب النادرة، وقد علق بيرتون : قائلا : ولا يجب أن نفترض أن كتبا كهذه قصد منها الاثارة، فالنفزاوي مثلا كان بعيدا كل البعد عن مثل هذا الهدف، وهناك حقيقة واضحة جدا وإن كانت غير واضحة تماما في الغرب، وهي أن الناس في الشرق أقل كبحا لأنفسهم جنسيا من الغرب، لكنهم في نفس الوقت أكثر تدينا وإحساسا بالقيم الدينية والخلقية، وهم ينظرون إلى الحب ليس فقط كعامل طبيعي وصحي وضروري للحياة، ولكن كفن يهدف إلى إرساء قواعد أساسية للزواج الناجح والحياة الزوجية السعيدة، وأن الكاتب الذي استطاع أن يلمس شيئا من روح الشرق هذه هو بلزاك HONORÉ DE BLZAC خاصة في كتابه : «فسيولوجيا بلزاك **Physiologie du Mariage**. والكتاب ذو أجزاء غير، تلك الأوراق المتداولة في السوق.

130) ويقال بأن الوزير هو الذي اقترح وضع الكتاب... تكلم عنه بروكلمان في ملحقه ص : 368 2/369، ونقل إلى عدة لغات، منها الفرنسية باعتناء البارون، الضابط في الجيش الفرنسي، وطبع بالجزائر عام 1850 وطبع بباريس 1952.

131) نشر المثاني للقادري ص : 1/44.

132) الفكر السامي للعلامة محمد الحجوي ص : 4/62.

وكان سيدي عبد القادر الفاسي أكبر شخصية في الأسرة الفاسية الشهيرة التي انجبت كثيرا من الأعلام يعيش من كسب يده في استنساخ الكتب، وبيع نسخ صحيحي البخاري ومسلم.

أن معظم علماء المغرب كانت لهم هوية إجتماعية... فهم شرفاء أو ملاكين... فنجد المفتي سيدي المهدي الوزاني، وهو شريف إدريسي، وشيخ الزاوية يشغل منصب قاض رسمي وأستاذ بالقرويين فضلا عن كونه ملاكا عقاريا وتاجرا بلا ريب (133).

وقد تحدث صاحب الرحلة العياشية أبو سالم العياشي (تـ : 1090 هـ) (134) عن العلامة الجليل المحدث المفتي، فرد الدنيا في العلوم كلها الجامع بين منطوقها ومفهومها محمد بن محمد بن سليمان بن طاهر السوسي الروداني المالكي نزيل الحرمي (تـ : 1094 هـ) الذي كان ميمون النقيبة، وله ورع تام، قال عنه العياشي : «ما رأيته في عصرنا لأحد لا يقبض من أحد شيئا إلا قليلا ممن علم وجوه مكاسبه، وتحقق استقامته فيها... وقد انتهى به الورع إلى ترك أكل ثمار المدينة بالجملة لفساد معاملة أرباب الحوائط لعمالها في الغالب، فإن رب الحائط يعامل المساقي على أسوق معلومة في كل سنة يدفعها له وهذا فاش عندهم قل من يعامل المساقي بالجزء المشاع، السائغ شرعا...

ومن ورعه أنه لا يتقوت في الغالب إلا من كسب يده، وكانت له يد صناع، يحسن غالب الحرف المهمة... لا سيما الرقيقة العمل، الرائقة الصنع كالطرز العجيب والصياغة المتقنة، وتسفير الكتب والخرازة (135)، قال أبو سالم العياشي : «وقد أخبرني أنه لما كان بمراكش كان لا يتفرغ في الأسبوع إلا يوم الخميس، فيطلع فيه ثلاثة أزواج من السباط وأكثر، فيبيعها، ويتقوت بها إلى الخميس الآخر...».

هذا هو العالم المغربي القح صاحب التآليف العديدة «كصلة الخلف بموصول السلف»، وهي فهرسة جمع فيها مروياته وأشياخه...

وهذا هو العالم المغربي الذي أقام بدمشق، واشتغل مدة إقامته بتأليف كتاب الجمع بين الكتب الخمسة والموطأ على طريقة ابن الأثير في جامع الأصول، إلا أنه استوعب الروايات من الكتب الستة، ولم يختصر كما فعل ابن الأثير...

وهذا هو العالم الذي له من التآليف الشاهدة بتبحره ودقة نظره : مختصر التحرير في أصول الحنفية «لابن الهمام، وشرحه، ومختصر «تلخيص المفتاح» وشرحه، والمختصر الذي ألفه في الهيئة، والحاشية على التسهيل، والحاشية على التوضيح، وله منظومة في علم الميقات وشرحها...

وهذا هو العالم الذي له جدول جمع فيه مسائل العروض كلها، واخترع كرة عظيمة، فاقت على الكرة القديمة واسطرلاب، وانتشر في الهند واليمن والحجاز، وغير ذلك من الرسائل.

وهذا هو العالم المحترف، الخراز، الذي كانت له اليد الطولى في عمل الاسطرلابات وغيرها من الآلات التوقيتية كالأرباع والدوائر والأنصاف، والمكانات...

وهذا هو العالم الذي كان في العلوم الغريبة كالرمل والأوفاق والحروف والسيميا والكيميا حاذقا اتم الحذق، وبالجملة فقد كان كما قال الشاعر :

وكـــان من العلـــوم بحيث يقضى
لـــه في كـــل علم بـــالجميـــع

133) إدموند بورك.

134) ماء الموائد ص : 2/38.

135) تُرجم ابن سعد في الطبقات وابن حجر في الإصابة لزينب بنت جحش، فذكر أنها كانت امرأة صناع اليد فكانت تدبغ وتخرز، وتتصدق به في سبيل الله قال مثل هذا الحافظ السيوطي في التوشيح ص : 150 من اختصاره (2/52/التراتيب).

فهذه العلوم والمعارف لم تمنعه من أن يأكل من كديده، ويحترف عدة مهن كان فيها مجليا...

بل إنه من أعجب ما حكاه عنه أبو سالم العياشي أنه قال عنه : « ومن أعجب ما رأيته من صناعته أنه يجبر قوارير الزجاج المنصدعة بحسن احتيال، ولطف تدبير إلى أن لا يكاد صدعها يبين، ويصير مثل الشعر الرقيقة، ومن الطف ما أبدعه، وأدق ما صنعه، وأجل ما اخترعه، الآلة الجامعة النافعة في علمي التوقيت والهيئة، ولم يسبق إلى مثلها، ولاحاذى أحد على شكلها، بل افتكرها بفكره الفائق، وصنعه الرائق، وهي كورة مستديرة الشكل، منعمة الصقل، مغشاة ببياض الوجه المموه بدهن الكتان، يحسبها الناظر بيضة من عسجد لإشراقها، مسطرة كلها، دوائر ورسوم، قد ركبت عليها أخرى مجوفة، منقسمة نصفين، فيها تخاريم وتجاويف لدوائر البروج وغيرها، مستديرة كالتي تحتها مصقلة مصبوغة بلون أخضر، فيكون لها، ولما يبدو من التي تحتها، منظور رائق، ومخبر فائق، وهي التي تغني عن كل آلة تستعمل في فني الهيئة والتوقيت مع سهولة المدرك، لكون الأشياء فيها محسوسة، والدوائر المتوهمة في الهيئة والتقاطع الذي فيهما مشاهد فيها، وتخدم لسائر البلاد على اختلاف أعراضها وأطوالها...

قال العياشي : إن الوصف لا يكاد يحيط بها. ولا يعلم قدرها ومزيتها إلا من شاهدها، وكانت له معرفة بالعلمين، فيرى ما يذهل الفكر، ويحير النظر...

ولما انتقضت عرى الدولة الحفصية في تونس في مدة الحسن بن محمد أواسط القرن العاشر، ونشأت الحروب إلى أن صارت تونس ولاية تركية عام 981 هـ أو آخر ذلك القرن بقي العلم مع استمرار دولة مماليك الترك الدايات في حضيض السقوط، فانتثر سلكه، وانزوى الناس في بيوتهم اتقاء الفتن، فذوت شجرة العلم، وصار ضئيلا لإقبال أهله على أسباب الارتزاق بأنواع الحرف، فقد كان الشيخ محمد قويسم العالم الشهير صاحب : «سمط اللآل» يحترف بيع الزهور، وكان المدرس الشيخ محمد الريكلي دباغا، وهو الذي ولي قاضيا مالكيا في دولة الباشا على بن محمد.

وقد كان في هذا العصر أفراد يذكرون مثل الشيخ محمد براو، والشيخ عاشور القسطيني العلامة، والشيخ القبي، والشيخ ابن الحسن النعاس، والشيخ محمد بن مصطفى مفتى الحنفية (136).

ويجب أن نذكر في الأخير، أن من عظماء سلفنا من قاد الجيوش، وهو في خطة القضاء مثل أسد بن الفرات (137)... ومن داخل السياسة، فأتقن المدخل والمخرج، وعرج أي عروج، وخطأ نظرية ابن خلدون القاضية على طبع العالم بالبعد عن السياسة... ومن جمع في شخصيته بين الوزارة والقضاء مثل القاضي الفاضل، والوزير ابن عاصم، وابن هبيرة وابن خلدون (138)...

ولا ريب أن هذا النظام الإسلامي الواقعي أكثر واقعية وإدراكا لظروف الحياة وأحوالها في النظم الحديثة...

ومن بين سائر الأديان نجد الإسلام وحده يتيح للإنسان أن يتمتع بحياته الدنيا إلى أقصى حد من غير أن يضيع اتجاهه الروحي (139).

وبهذا الإدراك الشامل، فهم المسلمون الأولون دينهم، واتسع ميدان نشاطهم وعملهم، فشمل كل ما يتعلق بالدين والدنيا... وهذا الإمام محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة في القرن الثاني الهجري يقول : «طلب الكسب فريضة، كما أن طلب العلم فريضة (140).

الرباط : محمد بنعبد الله

---

136) «أليس الصبح بقريب» ص : 89، للمرحوم محمد الطاهر بن عاشور.

137) انظر «المدارك» لعياض ص : 1/291، «المرقبة العليا» ص : 54، الأعلام : ص : 1/291، الديباج 1/305 شجرة النور ص : 1/75، بغية الملتمس 223. قاد الجيوش في غزو صقلية، فظفر بكثير منها، وتوفي وهو محاصر سرقوسة منها (ولد حوالي 145 - وتوفي 213 - 214).

138) «أليس الصبح بقريب» ص : 229.

139) «ليوبولد فايس» الإسلام في مفترق الطرق ترجمة عمر فروخ ص : 19.

140) عبد الرحمن بن داماد : «مجمع الأنهر، في شرح ملتقى الأبحر» ص : 2/527.

منهج الأستاذ عباس الجراري من خلال كتابه :

موشحات مغربية

للدكتور عبد السلام الطاهري

إن الحضور الفكري والبحث العلمي الذي حققه د. عباس الجراري في حقل التأليف والممارسة التعليمية، لها أثر عميق في حياتنا الفكرية، لا يقابله عند الباحثين المغاربة اهتمام جدي، يعكس نشاطه وتفاعله الديناميكي الدائم مع الأدب العربي المغربي وظواهره وقضاياه، ويبلور انطلاقته النقدية، وخلفية رؤيته الوطنية والقومية، ويجسد أبعادها المنهجية، وكل بادرة في هذا الشأن تعد مغامرة، لأنه من الصعب الإلمام بمنهجه العام، وتضيفه في خانة معينة، لنشاطه الثقافي المتنوع، والمتجدد باستمرار على مستوى اللقاءات والمحاضرات والندوات والتأليف، وهذه الاهتمامات لها انعكاسات إيجابية على حياته الفكرية وعطاءاته الكتابية، ومنطق المغامرة يشترط أن يتسلح الباحث برؤيا موضوعية، تستمد مشروعيتها من قراءة أعمال الكاتب ومعرفة أبعاده وإدراك منهجه، وهذه النزعة حدت بي إلى اختيار كتابه : «موشحات مغربية» كحلقة أولى في هذا المجال لأعرف بما يطرحه من مضامين فيه، وأبرز أدواته النقدية المسخرة وخصوصيتها وعلاقتها بمنظوره الفكري والنقدي وقناعته العلمية بجدة بحثه، خاصة وأن الدراسات الأدبية والنقدية التي انصبت على الأدب المغربي، ظلت آفاقها غير محدودة المعالم، إذ كان يغلب عليها الطابع المدرسي والأحكام المسبقة والذاتية إلى غاية الستينات، وقد أشار الكاتب إلى هذه الأطروحة بقوله : «غالبا ما تطرح إشكالات تتجلى في الأحكام المسبقة التي قد يصادف فيها، وهي في بعضها صادرة عن بحث موضوعي محدود، بما كان يمكن الوصول إليه في المكتبة المغربية، ولكن أمر هذه المكتبة لم يعد كما كان، وظهر فيها جديد

لا يستهان به، فغدا واجبا علينا أن نعيد النظر في تلكم الأحكام، كما كان في بعضها الآخر صادرة بعيدا عن الموضوعية، وتحت تأثير دوافع ذاتية، تختلف اتجاهاتها عند الباحثين، إذ كانوا مغاربة أو أجانب، وقد زالت كثير من الظروف التي حركت هذه الدوافع، فأصبح لزاما علينا أن نراجع ما نشأ عنها من أحكام»، (1) وهذا التحول افرز رؤية حديثة في التعامل مع الأدب المغربي، تستمد روحها من الشعور الإقليمي والرغبة الصادقة في خدمة هذا الأدب، حين اختفت هذه الاشكالات وتوقعت مع تطور الدراسات والمناهج، وقلت الأحكام المسبقة، وخفت حدة الذاتية، وصارت من تاريخ الأدب إلى دراسته، وأصبحت الأمانة العلمية تحتل مكانة بارزة في الدراسات المغربية، وتأهلت على يد الجامعيين إلى رسالة سامية تخدم الأدب والمجتمع، وتتناول بالدرس مظاهر الحياة الفكرية في المغرب عبر عصوره المختلفة، وأظهرت ما له من قيم أدبية وفكرية وحضارية، ومازالت البحوث تعرف طريقها إلى النور على شكل كتب ورسائل. ومشروع التفكير في منهجه له ما يبرره موضوعيا، لأنه يمثل نزعة وطنية وإقليمية، تسعى إلى لم شتات الفكر والأدب في كل المناطق المغربية سواء منه المدرسي أو الشعبي، لتكوين صورة متكاملة على أدبنا، ولتقريب هذه الفكرة سأقسم محاوره إلى العناصر التالية :

المحور I ـ التعريف بالكتاب :

1 ـ دواعي التأليف : إن عناية المؤلف بالأدب العربي في المغرب جعلت وجهة نظرة تنطلق من خلال المشكلات والقضايا والظواهر التي قد تكون سائرة سيرا طبيعيا، وقد تكون سائرة سيرا غير طبيعي، فيتناولها بالدرس والبحث، وهذه الرغبة هي التي دفعته إلى إعادة النظر فيما كتب عن الموشحات المغربية يقول في مقدمة كتابه : «أصل هذه الدراسة بحث، كنت نشرته عن الموشحات منذ أزيد من عشر سنوات (بدعوة الحق ع : 2 - 3 ـ 4 / س : 5 ـ ش : 11 ـ 61/12 ـ 62/1) وأنا ما أزال حديث العهد بالتخرج من الجامعة، لا تربطني بالمكتبة المغربية ـ لبعدي عن الوطن ـ إلا صلات محدودة غير وثيقة، وكنت انتهيت فيه، نتيجة ذلك إلى حكم سلبي بالنسبة لإنتاج المغاربة في فن التوشيح، ولكني ما كدت أعود من الخارج وأنغمر في الدراسات المغربية بحثا وتدريسا، حتى تأكد لي خطأما انتهيت إليه، فصممت العزم على أن أراجع ما كتبت، وأضيف له حتى اكتملت لدي مادة في الموشحات عامة، والنصوص المغربية خاصة، لم أردد في طرحها على طلابي في الدراسات العليا خلال السنتين المنصرمتين ـ 71 و72، واقتناعا مني بأن هذا موضوع بكروغتي في نفس الآن، ولقد فكرت في إخراجه ونشرة» (2)، وتبعا للحظة الاستجابة الفكرية والفاعلية النفسية، وتطور الرؤيا، فإن اختياره لهذا الموضوع لم يكن اعتباطيا، وإنما يعود إلى إحساسه بالواجب الوطني والعلمي الذي يفرض عليه أن يدافع عن تراثه بموضوعية، وأن يجنبه الأحكام الارتجالية التي تتهم المغاربة بالقصور في فن التوشيح، وانعدام باعهم في هذا الميدان، وهذه المشكلة لم تجد من الدارسين من التفت إليها، وهي في نظره مشكلة تحتاج إلى الدرس (3)، لذلك خص لها هذا الكتاب «موشحات مغربية» فما هي يا ترى مضامينه ؟

2 ـ مضامين الكتاب : إن الكتاب يضك 255 صفحة من الحجم المتوسط، مطبوع بدار النشر المغربية في أبريل 1973 بالبيضاء، وهو يتكون من مقدمة قصيرة استغرقت صفحتين (7 ـ 8) يعكس فيها الأسباب التي دفعته إلى تأليف كتابه، كما يشير فيها إلى تقسيم مادة بحثه إلى قسمين رئيسيين :

أ ـ القسم الأول : خاص بالدراسة، وهو يبتدئ من الصفحة 13 إلى صفحة 144 وقد رتبت فصوله على الشكل التالي :

1 ـ تعريف الموشح من ص : 13 إلى ص : 15.
2 ـ شكل الموشح من ص : 19 إلى ص : 31.
3 ـ موضوعات التوشيح من ص : 35 إلى

1) الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ص : 6 مطبعة النجاح.

2) موشحات مغربية ص : 7 ـ 8 مطبعة دار النشر المغربية ـ البيضاء.
3) محاضرة في الأدب المغربي / قضية المنهج بالسلك الثالث د. الجراري الجمعة 29 ـ 1 ـ 1982.

ص : 40.

4 ـ نشأة الموشح من ص : 43 إلى ص : 55.

5 ـ بين التوشيح والزجل من ص : 59 إلى 65.

6 ـ أهمية الموشحات من ص : 69 إلى ص : 76.

7 ـ الموشحات في الأندلس من ص : 79 إلى ص : 90.

8 ـ الموشحات في المشرق من ص : 93 إلى ص : 101.

9 ـ الموشحات في المغرب من ص : 105 إلى ص : 144.

وهذا الفصل الأخير قسمه الكاتب إلى مجموعة من العناصر تنحصر في :

- وشاحون جزائريون وتونسيون.
- الوشاحون الوافدون إلى المغرب.
- الموشحات المغربية في المصادر المشرقية.
- الموشحات المغربية في المصادر الأندلسية المغربية.
- فترة ازدهار في التوشيح في المغرب.
- استمرار وتطور.
- خصائص الموشحات المغربية.

ففي الفصل الأول استعرض التعاريف المختلفة التي تتصل في مجموعها ببنية الموشح، في «دار الطراز» و«توشيع التوشيح»، و«تاريخ الفكر الأندلسي»، و«دائرة المعارف»، ولم يقتنع بها، لأنها تخرج أنماطا متعددة من الموشحات، ونظرا العدم وجود مفهوم محدد ومضبوط، يجمع شتات هذا الاختلاف، قد انتهى إلى تقديم حد جامع عن فن التوشيح ليميزه كفن قائم بذاته عن القصيدة العربية من حيث تحرره، وعدم تقيده بالشكل التقليدي وتنوع أوزانه... وفيما يتعلق بمصطلح هذا الفن وتسميته، أورد جميع الاحتمالات التي قد تفضي إلى سبب تسميته، محللا ومناقشا ومعلقا.

وفي الفصل الثالث : تحدث عن موضوعات الموشحة، التي تناولت نفس الموضوعات التي عرفتها القصيدة العربية من مواضيع غنائية، ثم لم يلبث الوشاحون أن اتخذوا المدح والتصوف والزهد والهجاء مواضيع لها، وقد خص لكل غرض أمثلة تمثله.

وفي الفصل الرابع : تناول نشأة الموشحات والإشكالية التي طرحتها الآراء المتضاربة حول نشأتها وأول مخترع لها، ورجح نشأتها بالأندلس، ودحض ادعاءات المدعين بشرقية نشأة الموشحات، بمجموعة من الشواهد تثبت أن الموشح من اختراع أهل الأندلس، ورأى أن قضية اختلاف المؤرخين حول أول مخترع للموشح، قضية هامشية لا تمس جوهر فن التوشيح، وأما عن أسباب اختراع الموشحات أورد مجموعة من الآراء المتباينة تدور كلها حول استحداث فن التوشيح وعلة ظهوره وتسميته، محللا ومناقشا ومستشهدا.

وفي الفصل الخامس : ناقش علاقة الموشح بالزجل، والظروف التي ساعدت على ظهور الزجل، ورأي بعض الدارسين فيه، وهو في نظره كبير الشبه بالموشح في تنويع أوزانه وقوافيه، وفي الاعتناء بالخرجة مع وجود فارق بين الفنين، ففي الموشح يلتزم الوشام اللغة المعربة، وفي الزجل ينظم الزجال باللغة العامة، ومشكل أول ناظم للزجل في نظره يشبه مشكل أول مخترع للموشح، ولكنه تلافيا لهذه القضية أورد نص أحمد الرباطي في هذا الشأن.

وفي الفصل السادس : يرى أن للموشحات قيمتها وأهميتها، وأن تأثيرها لم يقف عند حدود الأدب العربي، بل تعداه إلى الآداب الأوربية (الأدب الإسباني والفرنسي والإيطالي) عن طريق الاحتكاك «بالتروبدور» ومسلمي الأندلس وصقلية، واستعرض أمثلة على هذا التأثر مع مجموعة من الآراء المشيرة إلى هذه النقطة، وأسماء الأدباء الذين نظموا في التوشيح نتيجة هذا التأثر.

وفي الفصل السابع : يؤكد أن الموشحات من اختراع أهل الأندلس وأن الارهاصات الأولى لهذا الفن ضاعت، وأن هذه الصناعة استطاعت أن تكتمل وتزدهر على يد وشاحين يشهد التاريخ بشاعريتهم، ولاحظ أن شعراء الأندلس الممتازين ظلوا محافظين على طريقتهم التقليدية، ولم ينظموا في الموشحات، لاستصغارهم لهذا الفن، واعتبر العصر المرابطي عصرا ذهبيا عرفه فن التوشيح في الأندلس، وذكر بعض الاعلام مع أمثلة من موشحاتهم والذين لمعت شهرتهم في هذا الفن، وحين تناول العصر

الموحدي أشار إلى أشهر وشاحيه، ثم ما حدث لهذا الفن من تدهور حين انتهى أمر المسلمين بالأندلس، وإلى انتقاله إلى البلاد العربية.

وفي الفصل الثامن : يعلل كيفية انتقال هذا الفن إلى المشرق، وينفي أن يكون ابن سناء الملك أول من أدخل فن التوشيح إلى المشرق، بدليل ما كتبه في مقدمة كتابه : «دار الطراز» التي يبطل فيها ادعاءات بعض الباحثين، وهذا ما دفع الأستاذ الجراري إلى تقديم الاحتمالات الممكنة عن كيفية دخوله إلى المشرق، وخلاصة رأيه أن مصر كانت سباقة إلى تقبله والعناية به، ثم بعدها احتضنته الشام والعراق، وما أبدعه المشارقة في نظره لا يصل إلى مستوى إبداع الأندلسيين، وفي هذا الصدد استشهد برأي ابن سعيد، ليوضح من خلاله أن ما أنتجه المشارقة يصبح شاحبا إذا قورن بإنتاج أهل الأندلس والمغرب.

وفي الفصل التاسع : يتناول كيفية دخول فن التوشيح إلى المغرب العربي مع استعراضه لمجموعة من الوشاحين الجزائريين والتونسيين ثم تساءل عن دور المغاربة الذين تربطهم بالأندلس صلات قوية، وهذا التساؤل المشروع أفضى به إلى تقديم عاملين أساسيين كان لهما أثر كبير في نقل الموشحات إلى المغرب هما :

1 - العامل الأول : يتمثل في وفود بعض الوشاحين الأندلسيين إلى المغرب في عهود مختلفة.

2 - العامل الثاني : يتمثل في الموشحات التي كان بعض كبار الوشاحين الأندلسيين يمدحون بها حكام المغرب وولاته وقضاته.

هذان العاملان في نظره كان لهما تأثير مباشر في انتشار الموشحات بين المغاربة، والالمام بفن التوشيح ثم يتساءل عن موقف المصادر المشرقية عن الموشحات المغربية، وكانت نتيجة تساؤله أنها لم تهتم بالموشحات المغربية، ولم تذكر ما كان للمغاربة من مساهمة في هذا الفن، وقد صدرت المصادر الأندلسية المغربية في نفس الخطة، ولم تعر الموشحات المغربية حقها من العناية والموضوعية ويمكن أن نجد نوعين من المصادر :

النوع الأول : لم يهتم بالموشحات ولم يدونها ومن هذه المصادر : «المطرب من أشعار أهل المغرب» و«المعجب» و«الدخيرة» و«القلائد»، فلم يذكر مؤلفوها شيئا عن الموشحات المغربية.

النوع الثاني : اهتم بالموشحات ودونها نذكر منها : «نفح الطيب» و«أزهار الرياض» و«المسهب» و«مشاهير الموشحين بالأندلس» و«المغرب / قسم الأهداب» و«المقتطف من أزاهر الطرف» و«جيش التوشيح» وهذه المصادر لم تهتم بالموشحات المغربية أيضا، وإنما اهتمت بالموشحات الأندلسية باستثناء «نفح الطيب»، وهذا الإهمال من طرف المشارقة والأندلسيين للموشحات المغربية، دفعت الكاتب المغربي عبد العزيز الفشتالي إلى تأليف كتاب : «مدد الجيش» كتذييل على كتاب : «جيش التوشيح» ولكنه مع الأسف ضاع، وأشار الأستاذ الجراري إلى أن هناك أوراقا بالمكتبة الناصرية بلا يظن أنها من هذا الكتاب المفقود، وهي تضم إحدى عشرة موشحة، كما أورد ما قدمه المقري في «روضة الآس» حين ذكر معظم هذه الموشحات التي توجد بهذه الأوراق، وأضاف إليها أربع موشحات أخرى لوشاحين مغاربة، والنتيجة التي توصل إليها الأستاذ الجراري من خلال هذه النماذج المستخرجة من المصادر أنها تصور مدى ازدهار فن التوشيح بالمغرب، وأرجع عوامل هذا الازدهار إلى :

1 - حياة البلاطات في عهد السعديين وعنايتهم بمجالس الأدب وتشجيعهم للأدباء.

2 - تأثير الأندلسيين الوافدين على المغرب، ومدى مساهمتهم في النهضة الأدبية.

وبرر هذا الازدهار بوجود شاعر كبير كابن زاكور الذي نظم في التوشيح وأكثر منه، وليس بغريب في نظره أن يكون في هذا العهد وبعده وشاحون ظهروا على غرار ابن زاكور، كمحمد بن الطيب العلمي وحمدون بن الحاج ومحمد الحراق، كما أضاف سببا آخر لهذه النهضة، وهو الازدهار الذي عرفته الموسيقى المغربية القائمة على الطرب الأندلسي، المعتمد على الموشحات والأزجال، أما فيما يتعلق **بخصائص الموشحات** المغربية، أبدى جملة من الملاحظات حول شكلها وقوافيها وأبياتها وقفلها وجرجتها.

ب - **القسم الثاني :** أما القسم 2 من هذا الكتاب فقد خصصه للنصوص المتعلقة بالموشحات وهو يبتدئ من صفحة 147 إلى صفحة 223، وقد تناول فيه «إحدى وخمسين موشحة لخمسة وثلاثين شاعرا من مختلف العصور، ابتداء من عهد الموحدين حتى العصر الحاضر» (4)، قدمها موثقة ميسرة استخرجها بعد عملية مسح محكمة للمصادر والمراجع والكنانيش والمخطوطات، مشيرا إلى صفحاتها وأرقامها وعلاماتها، وأصحابها وأماكنها، وهذه النصوص المستخرجة تكمن أهميتها أكثر عند باحثي ومحبي الموشحات المغربية، لأنها تمكنه من مادة أساسية وتوفر له عناء البحث في أمهات المصادر والمراجع، ثم ذيل الكتاب بفهارس مهمة تساعد القارئ وترشده، وهي تبتدئ من صفحة 227 إلى صفحة 255 تضم فهرس الاعلام، وفهرس المصادر والمراجع وفهرس الموضوعات.

كيف وثق نصوص كتابه ؟

3 - **المصادر المعتمدة :** إن إعادة النظر فيما كتب حول الموشحات المغربية، دفع المؤلف إلى البحث في أمهات المصادر والمراجع، واستفاد منها بطريقة موضوعية، وليست استفادته من هذه المصادر ذوبان شخصيته التأليفية فيها، وليس معناه أيضا السير على نهجها أو تشابه عمله معها، ولكنه أراد من باب العلمية أن يوثق ما يقدمه من معلومات، وأن يصحح المفاهيم المغلوطة وأن يعرف بها ويستشهد على ما يناقشه، وهذا يدل على اطلاعه الواسع وجعل المصادر والمراجع التي اعتمد عليها تفوق 143، أضف إلى ذلك المخطوطات والكنانيش، والأمانة العلمية تفرض على كل باحث أن يطلع على المصادر والمراجع التي تتعلق بمادة بحثه، ويعرف كل ما كتب حول موضوعه، وأطروحة الكاتب تتناول موضوعا بكرا، وغنيا في نفس الوقت، وليست هذه مبالغة، لأنه استطاع أن يظهر حقيقة الموشحات المغربية ومكانتها بين الموشحات العربية، وأزال التباس الدارسين، وصحح المفاهيم المغلوطة التي روج لها المتحاملون على الأدب المغربي عامة والموشحات خاصة، ونلاحظ في اعتماده على هذه

4) موشحات مغربية ص : 8 مطبعة دار النشر المغربية - البيضاء.

المصادر، أظهر مقدرة خاصة، ودراية عميقة بوسائل البحث وكيفية استغلال المصادر، وكيفية الاستفادة منها، وتسخيرها فيما يعود بالفائدة على موضوعه المعروض، والسؤال المطروح ما هو المنهج الذي استخدمه في هذه الدراسة ؟

المحور II - منهج المؤلف :

من المؤكد أن العامل المشترك الذي يجمع بين سائر الدراسات النقدية هو سعيها للحصول على منهج معين، إما عن طريق التقليد أو التجريب أو الاجتهاد، وهذا السعي يعد الأرضية «القاعدة» اللائقة التي ينطلق منها كل تأمل حول قيمة المعرفة في حالة توفر الموضوعية، لمحاولة إدراك الوظيفة التي تلعبها الخطابات المنهجية التي تتقيد بمواضعات وشروط المجتمعات النهوضية، و«يمكن - نظريا - تمييز نوعين من مناهج النقد الممكنة من خلال السؤال الذي يطرحه على نفسه كل منهج نقدي، وهناك من جهة منهج يحاول الإجابة عن سؤال كيف ؟ (السائد عندنا غالبا) وآخر عن سؤال لماذا ؟ (وهو ما نحن أحوج إليه)، إن مناهج البحث عن الكيف وليس عن الماذا، تنطلق بدءا بقبول المعطى على المستوى الفكري والتاريخي، ولا تبحث عن سؤال لماذا كان كذلك ولم يكن غيره، بل عن كيف هو وحسب، منهج تبريري منذ المنطلق مهما كانت نتائج أحكام ذلك الناقد قابلة أو رافضة، مادحة أو شاتمة أو محايدة مدعية، موضوعية ووسطية فجة، هذا المنهج مهما تعددت سبله وأدواته... يلتقي في نتيجة واحدة : تحليل شكلي، تعقيدات تفسيرية وتأويلية تبريرية.

والمنهج الثاني منهج الماذا لا يطرح حقا منهج البحث في الكيف نهائيا، ولكنه لا يستعمله للدوران في فراغ الجدال وهدف التكييف، بل كمساعد فقط للجواب عن السؤال الرئيسي دائما، وهو لماذا كان هذا العطاء (أي عطاء) هكذا ولم يكن غيره، هذا السؤال وطرحه يحملان بحد ذاتهما إمكانية الرفض، بل وفكر التغير حول شكل الثقافة في العالم العربي... هذا المنهج هو المنهج النقدي الجدلي والفعال الذي يعيد خلق العطاء، ويبدعه من جديد عن طريق إعطائه مدلوله التاريخي الحق، وموقعه الاجتماعي التاريخي، في حياة الناس العملية للتطلع إلى

آفاق أصح وأفضل (5)، والسؤال الذي يفرض ذاته هو : هل البحث عن المنج يتم من داخل المادة الممنهج لها أم من خارجها ؟ وهل الاسقاطات الخارجية (من النصوص الغائبة) تساهم في تحديد معالم المنهج ؟ وهل المؤلف وضح منهجه في مقدمة كتابه ؟

هذه التساؤلات تضطرني لاعترف بصعوبة الانطلاقة، قد يكون من السهل قراءة أعمال أدبية أو نقدية، ولكن من الصعب رصد ووصف معالم منهج معين بدقة لشخصية أدبية ونقدية بارزة في أدبنا كشخصية الأستاذ الجراري، أيسعف في معرفتها منهج الكيف أو الماذا ؟.

قد يكون من السهل توظيف هذا النهج إذا توفرت بعض الشروط منها :

1 ـ على الباحث أن يقوم بعملية مسح مركزة لأعمال المؤلف ومحاولة قراءتها بتمعن لإيجاد الخيط الرابط بين شبكية منهجه العام، وموضع كتابه المطروح للدرس داخلها.

2 ـ عليه أن يرجع إلى الدراسات التي تناولت أعمال المؤلف بصفة عامة.

3 ـ عليه أن يطلع على الكتابات التي اهتمت بإشكالية المنهج في الدراسات العربية الحديثة، خصوصا وأن العالم العربي شهد منذ سنة 1943 صدور أعمال تحمل عناوين مختلفة لمسمى واحد هو إشكالية المنهج في الدراسات العربية الحديثة نذكر منها :

ـ منهج البحث التاريخي لحسن عثمان دار المعارف مصر 1943.

ـ مناهج الدراسة الأدبية لشكري فيصل مكتبة الخالجي مصر 1953.

ـ مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب لأمين الخولي دار المعرفة مصر 1961.

ـ البحث الأدبي، طبيعته، مناهجه، أصوله ومصادره لشوقي ضيف دار المعرفة مصر 1972.

ـ أصول البحث العلمي ومناهجه لأحمد بدر وكالة المطبوعات الكويت 1973.

5) وضعنا النقدي ـ وضعنا الثقافي س : 63/62 الثقافة الجديدة ع 10 ـ 11 / س 3 ـ 78.

ـ نظرات في مناهج التاريخ الأدبي لمحمد الكتاني مجلة كلية الآداب فاس ع 1 ـ س 1978/1.

ـ المنهج الأدبي بين جيلين لسعيد علوش مجلة الزمان المغربي ع 6 ـ 7 / س 1981/3.

وهذا الاهتمام يلخص هموم البحث عن ديناميزم الحركة التي تكمن وراء قرن ونيف من الممارسات الأدبية، التي تتوزعها تقليعات وتجريبات عدة تتفاوت ما بين وعي منهجي ممكن ووعي فاسد ساقط، يكرس لما هو آني وغير مستقبلي (6) فإلى أي حد ساهم المؤلف في ترسيخ منهج علمي يخدم الأدب المغربي انطلاقا من كتبه بصفه عامة وكتابه : «موشحات مغربية» بصفة خاصة ؟ واعتبر هذا الطرح للقضية سبيلا لاستخراج منهج المؤلف والتعريف به ومناقشته يقول شارحا منهجه العام : «بدأ تناولي للأدب المغربي سواء في تدريسه بالكلية أو في الأبحاث التي نشرت بمنهاج تشكل عندي في إطار ومحتوى أو نوع وكيف.

أما الإطار فيتمثل في الإقليمية التي تعتمد البيئة ومقوماتها ومؤثراتها أساسا للدراسة... وأؤكد أنني حين أقول الإقليمية وتأثير البيئة في الأديب، لا أنسى الشخصية الذاتية والموهبة الفردية، ولا أعني تضيق الأفق والانحصار في إطار المحلية، ولكني أعتبرها الوسيلة الوحيدة للم شتات الأدب العربي في الأقطار التي أبدعته، والوسيلة كذلك للعالمية والإنسانية، بل إني أرى أنه كلما قسم نطاق الإقليم في الدراسة إلى بيئات صغيرة، كانت دراسة الإقليم مكتملة ومستوفاة... ويكتمل الإطار عندي بعناصر ثلاثة :

1 ـ النظر إلى الأدب من خلال توعيه المدرسي والشعبي.

2 ـ اعتبار مفهومه شاملا لكل الإنتاج الفكري لأمتنا دون حصره في نطاق الشعر والنثر الفني كما يحدده الاصطلاح المدرسي الضيق لمدلول الأدب.

3 ـ تناوله سواء في قديمه أو حديثه عن طريق طرح ظواهره وقضاياه...

6) مجلة الزمان المغربي ع 7/6 س 3 ـ 1981.

وأما المحتوى أو الكيف، فيقضي معالجة هذه الظواهر والقضايا بفكر نقدي يستند إلى الواقع والمعاصرة، وبجدلية وموضوعية تعتمد أن على معطيات استقرائية واستنتاجات منطقية بعيدا عن أي توثن أو معتقدية متزمتة أو موقف تبريري، إذ أنه في ظني لا يمكن **فصل المنهج عن المضمون**، كما أنه لا يمكن ممارسة نقد قبلي، أي لقد سابق على المعرفة. ويقضي محتوى المنهج عندي كذلك أن أنظر إلى تلك القضايا والظواهر من زاوية تعطي الأسبقية للتمثل العقلي على النقد التأثري، أي بنظرة فكرية وعقلانية، وليس إلى مجرد التذوق الفني النابع من الإحساس الجمالي والتأثر العاطفي والانفعال الانطباعي بالأثر المدروس (7) وهذا المنهج الذي يقترحه عوض المنهج التاريخي الذي لا يسعف في تلبية ما نطمح إلى تحقيقه في مضار الدرس الأدبي، وكذا النقد التأثري الذي قد يفيد في نوع معين من الموضوعات، وهذا المنهج المقترح في نظره يحقق جملة أهداف في طليعتها الكشف عن مواطن الجمال، وعن الدلالات الفنية وما ينبثق عنها... من مظامين فكرية... وإثبات الوقائع وربطها بالأسباب ووصف الظواهر وتعليلها، والبحث عن بواعثها الخفية والظاهرة، القريبة والبعيدة، واستخلاص العلاقات التفاعلية بينها وبين غيرها (8) ودعوته إلى هذا المنهج الفكري العقلاني يضم منهج الماذا ؟ أكده في عدة ممارسات نظرية وتطبيقية يقول في مقدمة كتابه : «الزجل في المغرب» : المنهاج الذي سرنا عليه في البحث هو نفس المنهاج الذي ندعو له في دراسة أدبنا وتراثنا عامة، ويتلخص في أربع مراحل يحتاج إنجازها ـ كلها أو بعضها ـ إلى جهود فردية وجماعية، تعمل في تكتل وتناسق وتكامل وهي :

1 ـ التعرف إلى المصادر والتعريف بها بوضع فهارس لمخطوطات الخزائن العامة والخاصة.

2 ـ إخراج النصوص مجردة أو محققة إن أمكن.

3 ـ دراسة هذه النصوص دراسة تحليلية تقوم على الوصف والتقرير.

4 ـ دراستها دراسة نقدية ومقارنة (9).

ويؤكد هذه الدعوة صراحة في كتابه «صفحات دراسية من القديم والحديث» بقوله : «أما بالنسبة لما نحن بصدده من بحث في الأدب المغربي، فإننا نؤمن بضرورة وجدوى الدراسة الإقليمية كمرحلة أولى لجمع شتات الأدب العربي في مختلف أنحاء الوطن العربي، وننطلق من النظر إلى الأدب وإلى التراث عامة باعتباره ذا شقين أحدهما مدرسي والثاني شعبي عن طريق طرح مشكلاته وقضاياه، وبمنهاج يعالجها بفكر نقدي، وبجدلية وموضوعية تعتمدان على معطيات استقرائية واستنتاجات منطقية تستندان إلى نظرة فكرية عقلانية، وليس إلى مجرد التذوق الفني النابع من التأثر العاطفي والانفعال الانطباعي بالأثر المدروس» (10) فإلى أي حد طبق هذا المنهج في كتابه : «موشحات مغربية» ؟ وهل ساعفه هذا المنهج لتحقيق الهدف من تأليف الكتاب ؟ وهل كان وفيا له ؟ هذه التساؤلات سأجيب عنها ضمنيا أثناء معالجتي لها، لأن الجهود العربية إذا كانت «لحد الآن هي جهود فردية جادة، فإن العصر هو عصر البرمجة والتنظيم والاختصاصات المختلفة والمتداخلة، إذ لايتأتى منذ الآن لأي باحث أن يحقق شرطه العلمي خارج مواضعات عالمية» (11)، والمؤلف لكي يحقق شرطه العلمي داخل هذه المواضعات، فإن نشاطه يتم داخل حلقة ـ سوسيوسيميائية ـ حسب تعبير كريماس ـ لأنه يهدف إلى إثبات الذات المغربية على صعيد الفكر والأدب العربي، وهذا ما أكده في محاضرته «قضية المنهج» التي يرى فيها أن اختياره لموضوع الموشحات لم يكن اعتباطيا، لأنه صادف في الدراسات سواء المغربية أو غيرها أحكاما ارتجالية وأحيانا سلبية، ولم يجد من الدارسين من التفت

7) الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ص 8 ـ 9. مطبعة النجاح ـ البيضاء.

8) الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ص : 9 مطبعة النجاح ـ البيضاء.

9) الزجل في المغرب ص : مطبعة الأمنية ـ الرباط 1970.

10) صفحات دراسية من القديم والحديث ص : 34 ـ 35 دار الثقافة ـ البيضاء 1976.

11) زمن المنهج الأدبي بين جيلين ص : 11 مجلة الزمان المغربي ع 7/6 ـ ص 3 ـ 81.

إلى هذه الظاهرة (12)، وهذه الفكرة تولد عنها تصوره العلمي الذي بنى عليه منهجه الذي يجمع بين الوصف والتقرير والتحليل، وهو يستند على هذه المحاور التالية :

أ - لاحظ المؤلف الظاهرة الأدبية التي تحتاج إلى الدرس وإعادة النظر فيها وهي تتلخص في :

1 - النتيجة السلبية التي انتهى إليها بعد كتابته عن الموشحات المغربية.

2 - الآراء التي تدعي مشرقية الموشحات نشأة الموشحات بالمشرق.

3 - عدم اهتمام الدارسين بهذه الظاهرة الأدبية «الموشحات المغربية».

4 - نكران أهمية الموشحات المغربية على المستوى الإبداعي.

ب - بحث عن فرضيات جديدة كبديل لدراسة هذه الظاهرة الأدبية «الموشحات المغربية» وحصرها في :

1 - أندلسية الموشحات.

2 - دور الوشاحين المغاربة.

3 - ازدهار فن التوشيح بالمغرب.

4 - خصائص الموشحات المغربية.

جـ - جرب هذه الفرضيات عن طريق الوصف والتقرير والتحليل والمناقشة لتصحيح المفاهيم المغلوطة، معتمدا على المصادر والمراجع والتاريخ والمخطوطات والكنانيش، التي تناولت الموشحات من بعيد أو قريب، وكذا تاريخ الأدب الأندلسي والمشرقي والمغربي، مستشهدا ومحللا ومقررا، لترسيخ الظاهرة المجربة.

د - استخلص من نتائج هذه الظاهرة المدروسة حقيقة الموشحات المغربية وجسد عناصرها في :

1 - دحض ادعاءات المغرضين والمتحاملين على الأدب المغربي عامة والموشحات خاصة.

2 - إثبات قيمة الموشحات المغربية وما للمغاربة من يد بيضاء على هذا الفن.

3 - تبيان خصائص الموشحات المغربية والتعريف بنصوصها وأعلامها ومصادرها.

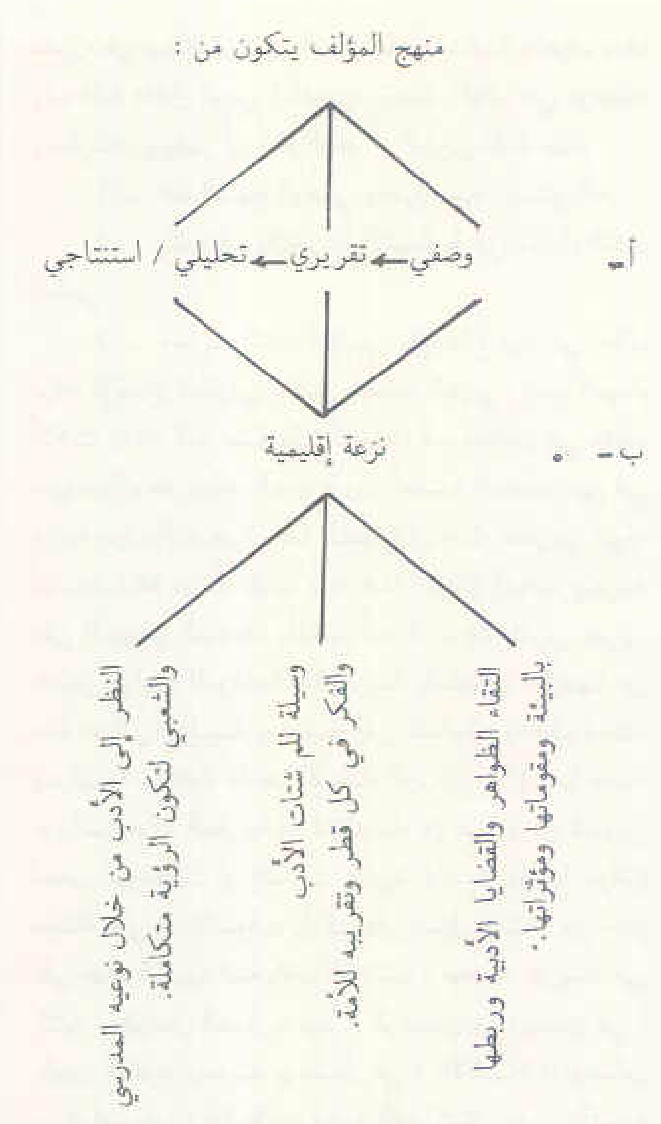
وهذه النتيجة التي انتهى إليها تشبه إلى حد كبير القانون العام في العلوم، وهذا ما يضفي على منهجه صفة العلمية، وأعتقد أن التساؤلات التي طرحتها فيما سبق قد تحققت من خلال هذا المنهج الذي اختاره الأستاذ الجراري، لا سيما وأن هذا المنهج الوصفي المعياري أفضى به إلى النزعة الإقليمية التي وظفها في منهجه، واقتنع بإيجابيتها مؤقتا «وقد يبدو للوهلة الأولى أن النظرية الإقليمية أقرب إلى واقع الأدب العربي، ذلك أن هذا الأدب كما رأينا واسع عريض يمتد على أقطار فسيحة ويتطاول مع قرون مديدة، وينشر جناحيه، فإذا جناح يطول أسوار الصين من نحو، وجناح تبله أمواج الأطلسي من نحو آخر، ولقد طوى شعوبا وشمل قوميات وتتالت عليه أزمنة، ودانت له بقاع وأقاليم... وكان هو نتاج ذلك كله، فليس شيء آخر أقدر على تفسيره ولا منهج ثان أكثر تمكنا من تأريخه من هذه النظرية الإقليمية بما ترصد من خلاف بين البينات ماديا كان أو معنويا» (13) وقناعة الكاتب جاءت كنتيجة حتمية لاستقرائية منهجه الذي استغله في دراسة الموشحات، لأنه يؤمن أن «لكل بيئة منفردة مزاياها وخصائصها التي تنفرد بها عن الأقاليم، وتلك المزايا والخصائص هي التي توجه الحياة الأدبية فيها وتؤثر في سيرها، وباختلاف هذه المميزات المادية والمعنوية تختلف حياة الأقاليم الأدبية (14) وهذه المنجية صالحة لتصوير البيئة الأدبية المغربية، وما تنفرد به من مزايا وخصائص، تمكن الباحث من إلقاء الأضواء عليها، ونزعة الأستاذ الجراري بهذه الوسيلة معناه الاعتماد على الأسلوب الوصفي التقريري، والتحليل الاستقرائي والاستنتاجي، وهذا لا ينفي وجود نزعة تاريخية وتأثرية في تنايا المنهج الذي عالج به الموشحات، وهدفه من هذا الخطاب المنهجي.

---

12) محاضرة في الأدب المغربي - قضية المنهج س 3 ذ. الجراري الجمعة 29 - 1 - 82 كلية الآداب - الرباط.

13) مناهج الدراسة الأدبية ص : 189 - 190 شكري فيصل دار العلم للملايين ط 4 - 1978.

14) إلى الأدب المصري ص : 20 أمين الخولي.



هو خدمة الأدب المغربي عامة والموشحات خاصة، والملاحظ أن منهجه توفرت فيه صفة العلمية، والنزعة الإقليمية التي لا تعني التعصب والنظرة الشوفينية للإقليمية، ولا يقصد بها نظرية «تين» Taine الطبقة التي تعتمد على الجنس والبيئة والعصر، ولكن إقليمية المؤلف أكثر شمولية وسعة وعلمية، لأنه يعتبر أن العناصر التي تبناها «تين» رغم أهميتها، فإنه أهمل عناصر أخرى لها جدواها يقول : «وعلينا ألا ننسى أن لكل أديب شخصيته الذاتية ومواهبه الفردية ومقوماته المميزة، وهذا ما أغفلته هذه النظرية (15) وهذه الميزة التي تتصف بها دراسته

15) صفحات دراسية من القديم والحديث ص : 20 د. الجراري مطبعة النجاح البيضاء.

جعلت منهجه ينفرد بالخصائص التالية :

1 ـ إن محاولة إخضاعه للظاهرة الأدبية «الموشحات المغربية» إلى الدرس والبحث عن طريق هذا المنهج الذي انتقاه لمعالجة هذه الظاهرة، يعكس خلفية مهمة، وهي أن المؤلف أدرك تخلف المناهج الأخرى التي كانت سائدة في دراسة الأدب المغربي، لأنها أهملت هذه الظاهرة الأدبية، وهي بالتالي لا تسعف على تناولها.

2 ـ إن تنبيه لعلمية المنهج، جعل الظواهر والقضايا الأدبية التي يتناولها، واضحة ذات طابع تقني تقنيني، وهذا لا ينفي جودتها وأدبيتها.

3 ـ إن نظريته الإقليمية، وسيلة جادة لخدمة أدبنا وجمع شتاته، وتسليط الأضواء على قضاياه وظواهره، واظهار مميزاته وخصائصه.

إذن أهمية خطابه المنهجي تبرز في تحديد الميدان الذي يعمل داخله، وطرحه بهذه الصيغة للموشحات كاف لينصب نفسه، كمنظر داخل خصائص معينة، انتقاها من منهج العلوم الطبيعية، ومبشر بالإقليمية، لأن الفكرة التي توجهه، هي **إيجاد منهجية علمية** تخدم الأدب المغربي، وتفترض حل الإشكال المنهجي الذي يتخبط فيه الدارسون، عن طريق تبنيه للمنهج الوصفي المعياري الذي سخر له أدوات مسعفة في توظيفها، لكي يحقق غايته من دراسة الموشحات، فعرف بها وبشكلها وموضوعاتها ونشأتها ومراحلها وأهميتها ومكانتها في الأندلس والمشرق والمغرب وكذا أعلامها، واصفا ومقررا ومحللا.

واعتبر هذه المنهجية المتبعة في هذه الظاهرة الأدبية، منهجية ضرورية تفرضها طبيعة الأدب المغربي، وطبيعة المرحلة التاريخية التي دار في فلكها بحثه، بل إنها مرحلة ضرورية في الكشف عن أي أدب مجهول، وغاية بحثه عن هذه المادة التراثية له دلالات عميقة مرتبطة بأصالتنا ومقوماتنا، ومما زاد في تعميقها، استغلاله للمنهجية الإقليمية الواسعة لدراسة أدبنا المغربي بنوعيه المدرسي والشعبي في ظل الأدب العربي.

وإذا كانت هذه المنهجية التي قدمها جديرة بالاهتمام والإشادة، فإن الكاتب يعتبرها بداية لمواصلة البحث، وفاتحة أمام الشباب، وهذا التواضع يتجاوز القصور

النسبي، عن فهم الباحث العربي لقضيةالمنهج، كأداة وصفية وتوفيقية بين الوصفية والمعيارية... وانطلاقا من هذه المنهجية فإن كتاب «موشحات مغربية» يفرض أهمية خاصة على الساحة الأدبية والنقدية.

المحور III - قيمة الكتاب :

إن قيمة الكتاب وأهميته تبرز على عدة مستويات، وكلها تفرض ذاتها على القارئ، انطلاقا من الرؤية الفكرية والمنهجية التي وظفها المؤلف في بحثه، والمضامين الجديدة التي مررها، لأن جميع النظريات والمناهج التي مورست على الأدب العربي بصفة عامة، لم تستطع أن تكون سليمة مستوفية شروط الموضوعية، ولا يجوز أن تكون أساسا صالحا لدراسة هذا الأدب، لوجود ثغرات لها، ولعدم الرؤية في تناول القضايا، وهذا يظهر جليا مع النظرية المدرسية، التي انتهت إلى الجمود والعقم، ونظريات الفنون الأدبية التي اهتمت ببعض جوانب الدرس الأدبي، دون باقي الجوانب الأخرى، ونظرية الجنس التي لا تستقيم في التطبيقات العلمية، وأنها تخضع لكثير من التناقض والتعقيد، ونظرية الثقافات التي تعتني بالعناصر العقلية من الأدب دون عناصره العاطفية، وأنها تعتبر الأدب ثمرة للثقافات، ونظرية المذاهب الفنية التي تقتصر في دراستها على القمم الشامخة، وتقيس حسب هواها أدب العصر على هؤلاء، ولا نستثني من هذه النظريات إلا النظرية الإقليمية - رغم ما وجه إليها من نقد - والنظريات اللسانية الحديثة، والإقليمية أصبحت في ظروفنا الحالية وسيلة جادة للم شتات الأدب العربي في بيئاته الصغيرة وتفسير ظواهره وقضاياه حسب ظروف بيئية لكل إقليم عربي، وتبني المؤلف لهذه النظرية أعطى مكانة خاصة للموشحات المغربية، ملأ بها الفراغ الذي كان في الساحة الأدبية المغربية، وأضاف سفرا مهما إلى المكتبة المغربية التي كانت في أمس الحاجة إلى من يعرف بفن الموشحات المغربية، وبأدبائها، لإهمالها من طرف الدارسين، فجاء هذا الكتاب ليرد لها اعتبارها بين الموشحات العربية، وحقها المهضوم، وأبرز أهميتها ومكانتها على مستوى الإبداع والإنتاج، والأدب المغربي بصفة عامة في حاجة إلى أداة تحرره من ربقة الرفوف الخاصة والعامة وتعرف به، وتدخله داخل الوعي الطليعي، وتعيد «النظر في توجيهه وممارسته، ويظهر أن أمام الناقد أو الدارس ثلاث مهام :

1 - نقد المنهج الوصفي بجميع صيغه ومستوياته.

2 - التعريف بالتجربة الإنسانية في مجال النقد العلمي.

3 - ممارسة النقد العلمي، والإبداع فيه من خلال قراءة الإبداع المغربي داخل مجاله العربي، هذه المهام الثلاث (16)، المتزامنة والمتكاملة، قد تحققت في مؤلف «موشحات مغربية»، الذي برزت أهميته كمصدر مهم في دراسة موشحاتنا، فلولاه لما استطاع الباحث المغربي اليوم، أن يجد مادة مهيأة تقرب منه هذا التراث الضخم، وتعرفه على النصوص المبدعة، وأعتقد أنه لا يوجد دارس مغربي خصص دراسته للموشحات المغربية واستخرج نصوصها من عدة مصادر أندلسية ومغربية ومن كنانيش ومخطوطات، وعرف بها وحللها، ما عدا الأستاذ الجراري، وكل ما نجده عن الموشحات المغربية إذا استثنيناه هو عبارة عن تدوين لبعض الموشحات أو إشارات عابرة، وليست دراسة مركزة مفصلة على هذاالمنوال، وأذكر على سبيل المثال من سار على هذا الدرب المخالف للكاتب : محمد غريط في كتابه : «فواصل الجمان»، وعبد الرحمان بن زيدان في : «اليمن الوافر»، ومحمد بوجندار في : «الاغتباط»، وعباس بن ابراهيم في : «الإعلام»، وعبد الله كنون في : «النبوغ المغربي»، ومحمد بن تاويت وعفيفي في : «الأدب المغربي»، ومحمد داود في : «تاريخ تطوان»، ومن هذا المنظور يمكن تفرده في معالجة هذه الظاهرة، بفكر نقدي يستند إلى الواقع والمعاصرة، وبجدلية وموضوعية تتكئ على معطيات استقرائية، واستنتاجات منطقية، وبمنهاج اقتضى منه تطبيقه أن ينظر إلى تلك القضايا من زاوية تعطي الأسبقية للتمثل العقلي على النقد التأثري.

فالموشحات المغربية مدينة للكاتب، لأنه أخرجها من غياهب المجلدات العتيقة، والكنانيش - الخاصة - البالية،

---

16) وضعنا النقدي بعض من سماته وإمكانياته ص 50 م. الثقافة الجديدة ع 11/10 - س 3 - 78.

والمخطوطات المتآكلة، وجمع شتاتها، وأظهرها مبسطة في حلة جديدة معرفا ومستعرضا ومحللا ومستشهدا ومستنتجا، وهذه الدراسة اقتضت منه أن يقسم بحثه إلى قسمين كما أشرت سابقا، وعلاقتنا بتراثنا تحدد من منظور موضوعي، لأن إعجابنا بتراثنا الفني شيء، ومحاولة المحافظة عليه كما هو شيء آخر، فنحن حينما نعبر عن إعجابنا به نربط بين عنصرين : واقعه كفن ملموس من جهة، وتاريخه كمرجع أساسي لتقييمه من جهة أخرى، «لكن دورنا نحن لا ينحصر في تسجيل ما اكتشفه الأجانب، بل في أخذ الموضوع برمته، وإعادة النظر فيه، لا من باب القيام بالواجب فحسب، لكن من باب خدمة العلم والحقيقة والاضطلاع بمسؤولية ترجع إلينا أولا وأخيرا (17)، وعلاقة المؤلف بهذا التراث لم تكن من باب الإعجاب، وإنما هي من باب المحافظة عليه من الضياع، والاستفادة من تجارب مبدعيه، والتعريف به للناشئة، وهو حين قدم هذا الكتاب كان غرضه تسليط الأضواء على الموشحات وربطها بواقعها كفن ظهر في فترة تاريخية معينة من تاريخنا الأدبي، وساد عدة أجيال، وما زال يعيش مع رواد الطرب الأندلسي، وكمرجع أساسي يعكس تطور الدراسة الأدبية المغربية، التي أعادت النظر فيما كتب حول الموشحات المغربية، استنادا على مضامين فرضية جديدة لإلغاء مضامين متنافرة ومتعارضة، وهكذا برهن على تجاوز الأحكام المسبقة، وقصور النظرة الأحادية في تعاملها مع الموشحات خاصة والتراث عامة.

من خلال المحاور الثلاثة التي تطرقت إليها في ثنايا البحث، يظهر جليا أن الأستاذ الجراري أثرى الحياة الأدبية بجهوده العلمية، واستطاع بمنهجه (الوصفي - التقريري - التحليلي) وبنظريته الإقليمية أن يرسي دعائم البحث الأكاديمي الجامعي السليم، وأن يتخذ من الظواهر الأدبية، ظاهرة محددة مركزة كالتي سلكها في «موشحات مغربية». وهذه الطريقة الجادة في الدراسة دفعت كثيرا من الدارسين والنقاد إلى الإشادة والتنويه به نذكر منهم : حسب الله يحيى في مجلة التراث الشعبي العراقي، عدد 76 س5، ومحمد قرانيا في مجلة صوت فلسطين عدد 128، وبيد رومونتافيز في مدخل «إلى الأدب العربي المعاصر» بالإسبانية، وأحمد أبو سعد في مجلة الآداب عدد 2 س 72/20، وسيد حامد النساج في «بحوث ودراسات أدبية، سلسلة اقرأ رقم 436، يقول هذا الناقد الأخير عن الكاتب : «هو ليس ناقدا بالمعنى الاصطلاحي المعروف للنقد،ومع ذلك فإن اشتراكه في الندوات الأدبية التي تعقد بالجامعة أو في اتحاد كتاب المغرب أو في الإداعة والتليفزيون يشهد له بذوق أدبي، ووجهة نظر موضوعية، ورؤية واقعية علمية، لكن الكتابات التي أصدرها ليست نقدا تطبيقيا، كما أنها ليست نظريات في النقد، إنها دراسات في الأدب وآراء ثورية في الفن، وفكر تقدمية في الثقافة، وهي تقول كلماتها بجرأة ووضوح، كتلك التي يقولها بعض الشعراء... إن صاحب هذه الكتابات يؤثر بحركة وحيوية واستمرارية، في الجيل الحاضر من الأدباء والمتأدبين وطلاب الأدب ودارسيه نظرا لموقعه الوظيفي الذي اختاره هو نفسه وبنفسه» إنه مع رفاقه من النقاد والكتاب الواقعيين التقدميين، يمثلون بالفعل صوتا جديدا في المغرب، وشعاع ضوء بزغ وأشرق، أتمنى لنوره أن يمتد ويمتد، وأن يثبت أمام ماستواجهه به كل القوى الرجعية والمتخلفة فكريا وعقليا واجتماعيا وعقديا، واني لعلى ثقة تامة بأن الانتصار دائما حليف للجديد المتقدم المتطور» (18) وخلاصة القول إنه دارس وناقد وكاتب لامع في الأدب المغربي، تستهوي مؤلفاته القارئ لاهميتها وجدتها، ومن باب الاستفادة سأدرج بيبلوغرافية عن كتبه :

أ - في الأدب المغربي :

1 - موشحات مغربية 1973.

2 - الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي 1974.

3 - النضال في الشعر العربي بالمغرب من 1830 إلى 1912 - 1975.

17) تراثنا الفني لماذا ؟ ص : 50 56 م. أقلام ع 3 - أبريل 1978.

18) بحوث ودراسات أدبية ص : 73 - 90 سيد حامد النساج س. اقرأ رقم 436.

4 - قضيــة فلسطين في الشعر المغربي حتى حرب رمضان 1975.

5 - وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ 1976.

6 - ثقافة الصحراء 1978.

7 - الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها ج 1 1979.

8 - عبقرية اليوسي 1981.

ب - في التراث والأدب الشعبي :

9 - القصيدة : الزجل في المغرب 1970.

10 - من وحي التراث 1971.

11 - معجم مصطلحات الملحون الفنية 1978.

جـ - في الأدب العربي والإسلامي :

12 - من أدب الدعوة الإسلامية 1974.

13 - في الشعر السياسي 1974.

14 - صفحات دراسية من القديم والحديث 1976.

د - في الدراسات الأندلسية :

15 - فنية التعبير في شعر ابن زيدون 1977.

16 - أثر الأنــدلس على أوربــا في مجــال النغم والإيقاع 1982.

هـ - في الفكر والثقافة :

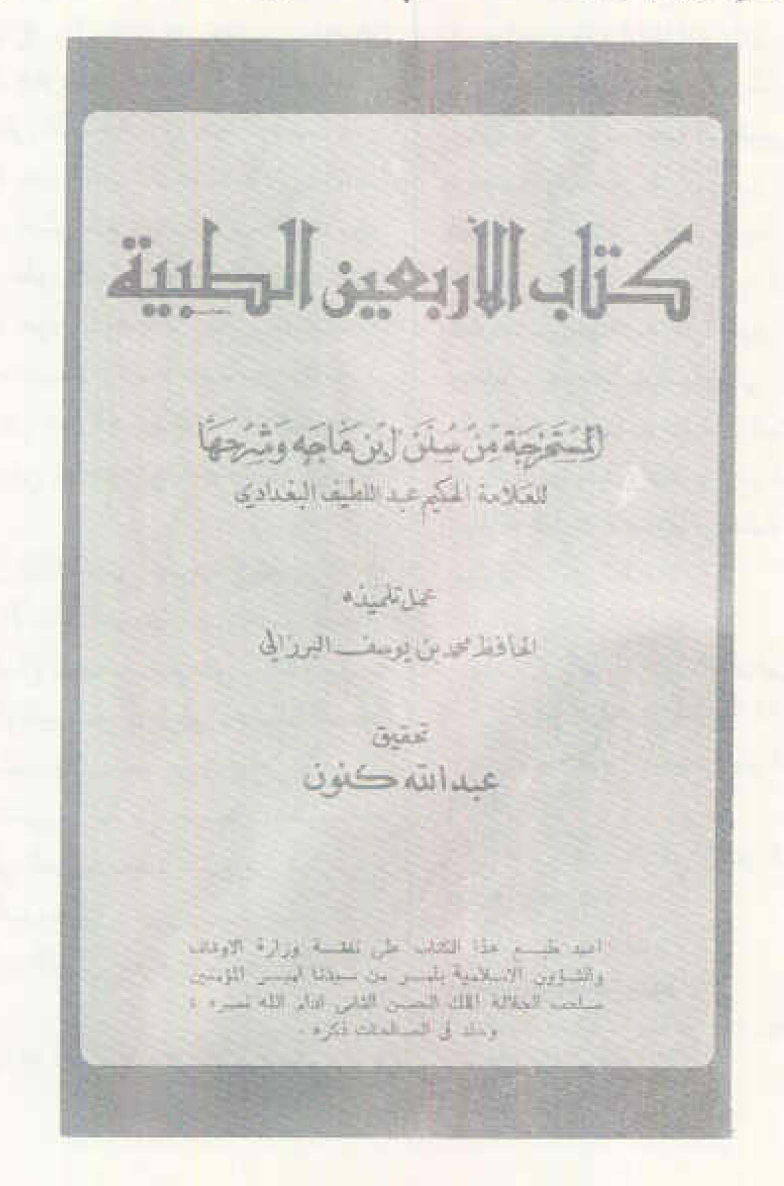
17 - الحرية والأدب 1971.

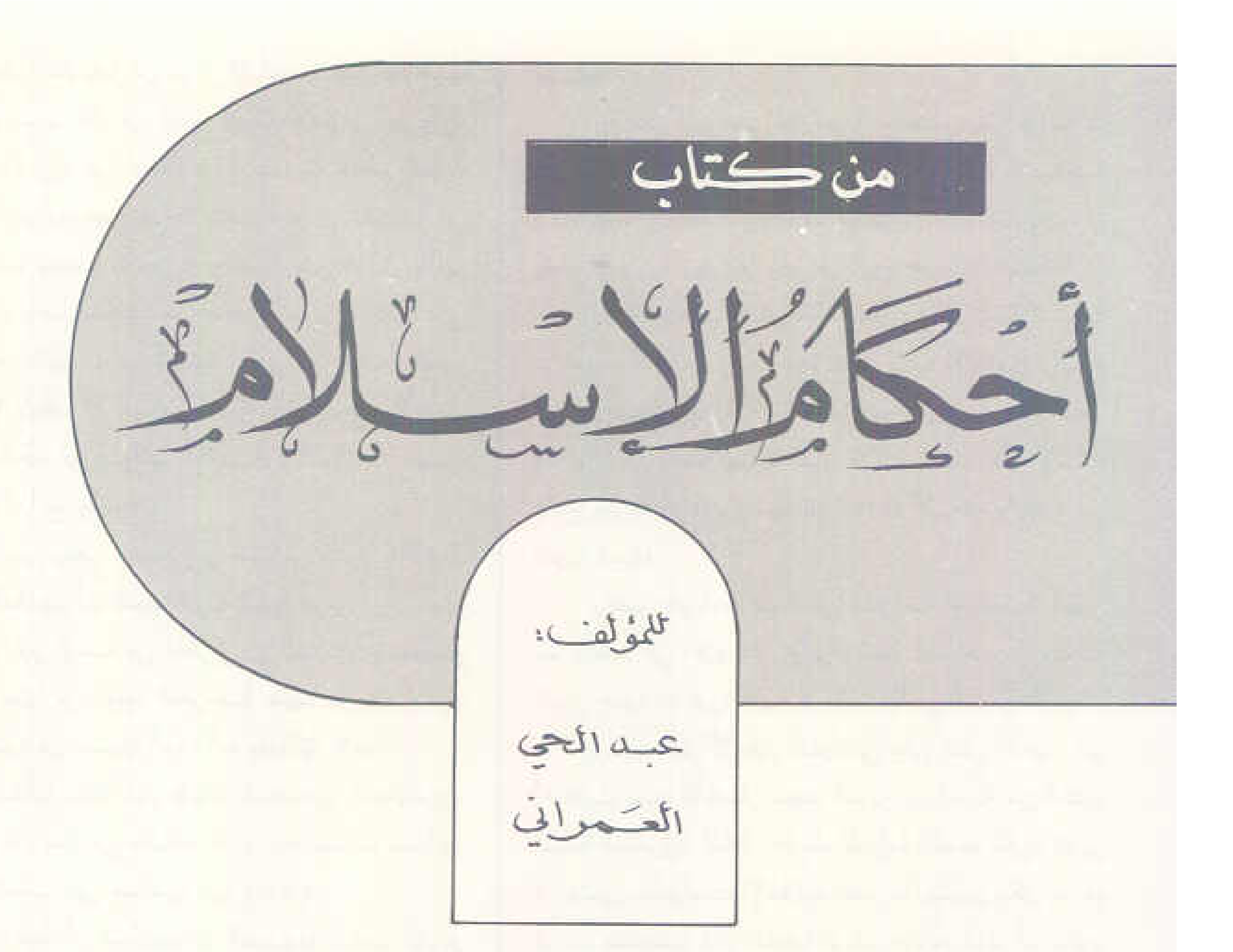
18 - الثقافة في معركة التغير 1972.

19 - الفكر الإسلامي والاختيار الصعب 1979.

20 - الفكر والوحدة 1984.

الرباط : ذ. الطاهري عبد السـلام





من الكتب مؤلفات قيمة جديرة بالدراسة والاستفادة، والاستفادة منها في الصحوة الإسلامية المعاصرة لاثراء الفكر الإسلامي وكشف أسرار الشريعة الإسلامية وما فيها من جدة ونضوج لمسايرة الحضارة وإخضاعها للأحكام الإسلام التي لا تتنافى مع العقل والاختراع والتقدم والابداع ولكنها في نفس الوقت تشجب الانحراف الأخلاقي والتحلل النفسي والتعبد المادي.

ومن هذه المؤلفات العظيمة كتاب نيل الأوطار للإمام محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني الصنعاني المتوفي سنة 1255 هـ.

فقد قمت بدراسة موضوعية لهذا المؤلف الجليل القدر وجلت بين جنباته وعاشرت مؤلفه معاشرة المحب المعجب بحبيبه وسجلت ما سجلته في نحو 600 صحيفة.

وقد رأيت أن أنشر بعضا من تلك الصحف مشاركة في الاثراء الإسلامي ليعرف الشباب أن في أمته الإسلامية قادة علماء لهم بصيرة وتفتح ومواقف ونضال في سبيل الشريعة الإسلامية وأمجادها وما تحمله من بذور للبقاء.

وابتدئ بنشر المقدمة لنصل الحديث فيما بعد بحول الله عن فصول الكتاب وما فيه من آراء واجتهادات من صميم الإسلام وأصوله وتعاليمه ومقاصده.

إن الخزانة الإسلامية تزخر بآثار تشريعية خالدة وبتراث مجيد مفتقر للدراسة والتمحيص والتبويب.

وبدراسة كتبنا التشريعية سنفتح آفاقا واسعة للفكر الإسلامي ليخطو إلى الأمام ويثبت للعاديات بما يتميز به من وضوح وإشراف. ولا شك أن جمود الفقهاء قد أثر على التشريع الإسلامي تأثيرا سيئا وأوقفه عن السير وجعل التشريع الأجنبي غير الإسلامي يطغى ويسيطر ويأخذ مكانة التشريع الإسلامي في المجتمعات الإسلامية ويبعد

القائمين على الشريعة من مركز التأثير والبعث والإحياء والنضوج، وتسبب ذلك في ابتعاد فقهنا الإسلامي عن ولوج معترك الحياة وزاد في ابتعاده ما أصيب به معظم الفقهاء من شلل فكري وتدحرج في الابتكار مع أن الشريعة في أصولها طيعة ومتجددة ومرنة وقائمة على العقل والفهم وناضجة نضوجا يمكنها من اقتحام شؤون الحياة على تنوعها وتعقيداتها. ونشأ الجمود الفقهي في أصله بظهور فقهاء ادعوا توقف الاجتهاد وساروا على منهجهم الأخرس فتبعهم من تبعهم في قولتهم الشنعاء وذلك في عهود الانتكاس والتراجع والذوبان.

أما اليوم ونحن نتطلع إلى مستقبل مشرق بالآمال فليس من المقبول أن نقول بقولة المندحرين أو أن نسير على نهجهم غير الإسلامي لنخرج من الضيق ونستطيع تخليص شريعتنا من القيود المفروضة عليها من فقهاء نزل مستواهم كثيرا عن مستوى أئمة الأمة وفقهائها الأفذاذ.

وإذا سلكنا سلك كبار فقهائنا المتفتحين المجتهدين، فإننا سنضع تشريعنا في مكانه اللائق به ليمكنه مسايرة الحضارة والتغلب على مصاعبها بقوة واندفاع.

والملاحظ أن التشريعات المستورة بدون تنقيح تتنافى في معظم جوانبها مع الأصول المحكمة للشريعة الإسلامية وقد وضعت لمجتمعات أخرى غير إسلامية وليست بأكثر قوة وجاذبية وقابلية من التشريع الإسلامي إذا أخرجنا من دائرة الهذر ومن أيدي المتصدرين للتحدث باسم الإسلام ان حقا وان باطلا.

وقد تعمد الاستعمار أيام تسلطه على العالم الإسلام شل حركة الفقه الإسلامي وإغفال الشريعة والالتواء بها عن وجهتها، ووقف منها موقف المحارب العنيد ولم يأخذ في التراجع عن فكرته الظالمة إلا بعد أن ظهر فقهاء كبار وعلماء فرزوا في الشريعة الإسلامية مجددون لها باستنباطاتهم ومقارناتهم ومعرفتهم بالتقلبات والأحوال للدول والشعوب ونشروا دراسات ممتعة وشاركوا في مؤتمرات عالمية فرضوا فيها رأي الإسلام وفقهه مما حمل الكثيرين على الاعتراف بقيمة الشريعة الإسلامية ورسوخها وقدرتها.

والإسلام ليس دين أمة معينة أو جنس معين وإنما هو دين للبشرية كلها ويحق لكل قادر في الأمة الإسلامية إبداء رأيه واجتهاده وبذلك يمكن للإسلام وشريعته أن ينظم الإنسانية ويقودها وهي في أوج حضارتها المتدفقة.

إن الاتجاهات التشريعية الإسلامية المدونة السليمة من عيوب الجمود والتأرجح تفتح باب الاجتهاد وتمنح الحرية للمجتهدين الأكفاء ليجتهدوا ويستنبطوا ويختلفوا ولا ضرر من اختلافهم إذا كان القصد حسنا لأن الإسلام يسمح بحرية الرأي ويضنها في حدود اللياقة والتجرد من النوايا السيئة.

وتظهر حرية الاجتهاد في الشريعة الإسلامية ظهورا بينا واضحا في اجتهادات وأقوال أئمة المذاهب الإسلامية الذين خلفوا لنا ثورة فقهية لا نظير لها في أمة من الأمم.

وكتاب نيل الأوطار للشوكاني على تنقي الأخبار من أحاديث سيد الأخيار لمجد الدين بن تيمية من الكتب المهمة المتحررة، لذلك اخترناه للدراسة لتقدمه للقراء الذين لا يهتمون بالدراسات الإسلامية بقدر ما يهتمون بكل ما هو غريب مستجلب كان صالحا أو غير صالح المهم أن يكون مستجلبا من مجتمع غربي وناشئا عن أقوال فقهاء غربيين.

والشوكاني يسلك في كتابه مسلك التقويم والتجديد وإبداء الرأي والغوص في فهم أسرار الشريعة التي غطت عليها عصور من الظلام والشك والارتياب وسيطر فيها الجمود ببشاعته وطغى الانحراف بمفاسده فجاء الشوكاني ليمسح عن الشريعة غبار القرون وليستخرج من الدفائن نصوصا متونية ناصعة حتى يمكن للشاردين أن يرجعوا إلى صوابهم وأن يدركوا قيمة الشريعة الغراء كما هي في واقعها بدون لبس ولا التباس بينة ظاهرة متحررة من الجمود والركود.

ولا غرو أن الشوكاني من الأئمة القلائل الذين ظهروا في فترة زمنية متقهقرة من تاريخنا الإسلامي يسهموا بجدهم وعملهم وعلمهم الغزير وإطلاعهم الواسع في البعث الإسلامي الصحيح وفي الفكر الثائر على كل جاهلية

مدسوسة تبتغي أن ينكمش المسلمون ويتقهقروا ويستمروا في التمسك بالقشور دون اللباب.

وتشاء الأقدار للإسلام وأهله في محنهم أن يظهر مجددون أوفياء يجمعون بين الاطلاع الواسع على الآثار الإسلامية وبين التحرر الفكري الخلاق، والشوكاني من هذه الثلة المجددة التي خدمت الإسلام بعبقريتها الفذة فأورثتنا تراثا ضخما هو في حاجة ملحة إلى الدراسة والتبيان والاستنتاج حتى نستطيع أن نتابع خطواتنا بثبات وعزم وتفكير سليم من التأثر بعصور التراجع والانقلاب إلى الوراء موقنين بأن قواعد الإسلام قواعد متينة لا تزحزحها عواصف المشعوذين ونعرات المستعمرين والمستشرقين المتحيزين وجمود من يسمون أنفسهم بعلماء المسلمين.

ودراسة كتاب الشوكاني تحتاج إلى تفهم وتعمق وإطلاع وتدبر ومقارنة وتنزه عن الباطل والادعاء المغرض والافتتان بالمظاهر الخادعة والأفكار المتأرجحة.

وبإقدامنا على دراسة هذا الكتاب لا ندعي لأنفسنا القدرة على مجابهة الشوكاني ولا انتقاده انتقادا أعمى، وإنما الأهم عندنا أن نستفيد من هذا الإمام الفحل، ونفيد في توجيه الفكر الإسلامي الحديث وفقه الشريعة السمحاء وفي تعرية المتحكمين في تشريعنا الإسلامي الذين يبتعدون بشعوبنا المسلمة عن ثرواتها ليقذفوا بها في أحضان أدعياء الحضارة المفلسين.

وسوف نناقش الشوكاني في بعض أفكاره ومستنتجاته حسب ما نفهمه من الشريعة وإن كنا نؤكد قصورنا عن بلوغ مرتبة الشوكاني وإطلاعه غير أن ظروفه ربما لم تفتح له من المجالات مثل ما تفتح لنا ظروفنا خصوصا بعد ظهور دراسات ممتعة نستفيد منها وتسير لنا سبلا لم تيسر له. والشوكاني كإمام مجدد في عصر متراجع كان همه الأول أن يسجل لنا نصاعة الإسلام وقابليته وبذلك يكون له الفضل في فتح الطريق لكل من يريد أن ينتفع بكتابه الفريد.

فعسانا أن نوفق في مسعانا لنسهم في تنوير الرأي الإسلامي الحديث الذي أصيب بالاضطراب والأ لمة عن تاريخنا وتشريعنا.

وبالعمل والمواظبة وكشف ما في الإسلام من ثورة على الجمود والخمود سوف يتخلص المسلمون من الكائدين الذين فرضوا عليهم أفكارا واتجاهات تضرهم في حاضرهم ومستقبلهم، وتطمس ما ضيهم الذي يجب البناء عليه كأساس قويم ومتين لاقتحام الحياة المعاصرة على بينة واطمئنان.



فنون الصناعات التطبيقية

بمسجد ضريح محمّد الخامس

(4)

الدكتور عثمان عثمان إسماعيل



1 ـ أسقف المسجد :

سوف نتناول فنون صناعة الخشب بالمسجد مبتدئين بدراسة الأسقف أو التغطية الداخلية وبعدها مقصورة النساء يليها المنبر ثم العنزة وأخيرا أبواب بيت الصلاة التي تفتح على الصحن الرئيسي بالإضافة إلى ذكر الأبواب الخشبية الصغيرة على جانبي المحراب.

أسقف مسجد محمد الخامس :

عرفنا من دراسة تخطيط المسجد أنه يشتمل على بيت للصلاة من خمسة أساكيب وثلاث عشر بلاطا، وزيادة شرقية من بلاطين وأخرى غربية باتساعها وإن كانت تشغل بعض مساحتها بعض المرافق، ثم زيادة شمالية بطول جدار القبلة.

وبالنسبة للأسقف فإنها جميعا مبطنة بالداخل بالخشب ومن إنتاج وتنفيذ تعاونية مدينة مكناس. ولدراسة صنعة الخشب بمسجد محمد الخامس عقدت عدة جلسات عمل مع المعلم المتفنن المقتدر الخبير السيد (بن سالم اليازغي) صاحب معمل نجارة فنية كبير الشأن داخل باب البردعين بمدينة مكناس أشهر مراكز صناعة الخشب وفنونه بالمملكة المغربية. التقيت بالمعلم اليازغي في مصنعه بمكناس ثلاث مرات خلال عام 1983 ومثلها بالرباط بعين

المكان داخل مجموعة ضريح محمد الخامس. أطلعت في مصنعه على التصميمات والأدوات والخامات ووسائل العمل وأسلوب التعامل مع الصناع وتوجيههم أثناء تنفيذ التصميم. درست معه مباشرة عدة تصميمات زخرفية نفذها بالمسجد والمتحف قبل الدراسة المباشرة معه بالمسجد والمتحف.

ومن تفاصيل المصطلحات الفنية الوطنية في الصناعة المغربية نعرف من المعلم اليازغي الذي تتوج فنونه عدة معارض ومنشآت بأوروبا وأمريكا ومنجزات كبرى بالمغرب. أن الأسقف الخشبية بأساكيب المسجد عبارة عن (برشلا) والجمع (براشل) وقد تعمدت إثبات مصطلحات كل فنان ولو بصدد عنصر واحد لما قد يكون في الاختلاف المحلي من فائدة. ويقول المعلم اليازغي أن (البرشلا) هي التصميم الهرمي المغطى من الخارج بالقرمود بينما يزدان من الداخل بفنون صناعة الخشب، ويسمى السقف المسطح في الصنعة التقليدية باسم (جالس)، وقد صنعت (البرشلا) في سقف المسجد (كم وجبن) والجمع (كم وجبان)، والبساط مثمن، (والأزار) بالزخرفة والنقش، و (الجوايز) صنعت (وتراث منقوشين). وأوضح لي المعلم اليازغي بسؤاله

عن نوع الأخشاب أن جميع ذلك جاء باستخدام خشب الأرز المطعم بخشب الأكاجو وهو الخط (الأكحل) يعني الأسود، وقد تم التنفيذ في جميع ذلك تبعا لقواعد الطراز الوطني التاريخي كما يوجد بالمنشآت الأثرية دون أي تطوير حرصا على الصيغة التاريخية للبناء.

ومن الجدير بالملاحظة أن التخطيط المنشور عن السقف المذكور أوضح اختلاف تغطية السقف في الجانب الشرقي المذكور لبيت الصلاة بالبلاطين الثالث والرابع شرق المحراب عن نظير ذلك غربا، ففي الجهة الشرقية سقف مستقل لكل من البلاطين الثالث والرابع بينما جهة الغرب سقف واحد يرتقى البلاطين المناظرين غربا، لقد كان من الممكن اعتبار ذلك سهوا حدث في التخطيط على الورق لكنه يتأكد من المسقط الرأسي والقطاع الطولي، وإذا كانت مقصورة النساء تحتل مساحة ببيت الصلاة تشتمل على سبعة البلاطات الثلاث الغربية حيث ترتفع الأرضية عن بقية أرضيات المسجد لوجود مرافق (المراحيض ودورات المياه) أسفلها، فإن ذلك لا يرتبط في رأينا معماريا بجعل السقف الخشبي من قسمين بالبلاطين الثالث والرابع غرب المحراب والإخلال بقانون التماثل والتناظر الذي التزمه البناء باختلاف ذلك الوضع عن نظيره بالقسم الشرقي لأسقف بيت الصلاة.

والمهم بالنسبة لعملنا هو تصحيح الخطأ الوارد بالرسم المنشور للتخطيط الأرضي والقطاع الطولي والتأكيد هنا على ضوء الدراسة الميدانية أن تغطية أسقف أساكيب بيت الصلاة تسير في الواقع متناظرة في جانب بيت الصلاة وبدون اختلاف أو إخلال بمبدأ التناظر والتقابل في الهندسة وهيئة البناء.

قباب بلاط المحراب :

تغطي أسطوانة المحراب قبة خشبية تليها شمالا (تجاه الصحن) أربع قباب أخرى تغطي كل منها أسطوانة من اسطوانات بلاط المحراب المتبقية حيث يشتمل بيت الصلاة على خمسة أساكيب.

قيمة أسطوانة المحراب :

هي القبة الأولى جهة المحراب وتتصدر صفا من خمسة أسقف خشبية على البلاط المحوري، وهي قبة خشبية قائمة على مقرنصات من جهاتها الأربع ويبدو عليها عدم الإتقان الهندسي معماريا وبالمثل من حيث فنون النجارة أو الفنون الزخرفية أو الرسم والطلاء الذي يضعها في مرتبة فنية لا تساير مرتبة المحراب وزخارفه وعمارته.

بقية قباب بلاط المحراب :

قلنا أن هناك أربع قباب على بلاط المحراب تلي قبة أسطوانة المحراب شمالا، وكل من تلك القباب التي تحمل الاسم تجاوزاً عبارة عن (برشلا) مربعة فوق كل أسطوانة من أسطوانات بلاط المحراب.

2 ـ مقصورة النساء :

تقع مقصورة النساء داخل بيت الصلاة بالناحية الغربية منه مشتملة على مساحة البلاطات الثلاث الغربية ابتداء من حائط القبلة إلى حدود واجهة بيت الصلاة على الصحن أي بامتداد خمسة أساكيب مع ملاحظة أن البلاطين الأول والثاني غربا يمتدان جهة الشمال باتساع اسكوب آخر بحيث يفتح عقد البلاط الثاني غربا على الصحن الرئيسي مباشرة.

وقد روعي الارتفاع بمستوى أرضية تلك المساحة عن بقية أرضية المسجد للأسباب الواردة سلفا وخشب المقصورة نفسه الذي يصنع ساترا بين رجال المسلمين ببيت الصلاة وبين الرؤية للنساء المصليات داخل المقصورة يمتد من جدار القبلة جنوبا إلى حائط بيت الصلاة المطل على الصحن الرئيسي شمالا.

وهكذا يبلغ طول المقصورة الخشبية من الجنوب إلى الشمال قدر عمق بيت الصلاة نفسه، وقد قسمت تلك المسافة إلى خمسة أقسام منها قسم مجاور للمحراب أقلها اتساعا لأنه يمتد بقدر اتساع اسكوب المحراب الذي ضم أقل سعة من بقية الأساكيب، يلي ذلك شمالا أربعة أقسام متساوية كل منها يساوي اتساع اسكوب من الأساكيب الأربعة.

وبالنسبة للزخرفة وفنون الخشب يشتمل كل قسم من أقسام المقصورة على زخارف خشبية مخرمة ومزخرفة وعينات من خشب الخرط (Bois Tourné)، ويعلو جميع الساتر الخشبي من الجنوب إلى الشمال نماذج من شرفات خشبية يبلغ عددها اثني عشرة (شرفة أفقية) بأعلى كل قسم، وهذه الشرفة الهرمية الشكل تتكون من ست درجات وبداخلها (توريق أندلسي) عبارة عن ورقة نخلية مزدوجة بالتصبيغ). وبداخل الوحدات الرئيسية للشرفات توجد مساحات بنفس زخارف الشرفات من الداخل.

ونرى أسفل خط الشرفات وبنفس الطول ابتداء من جدار القبلة جنوبا إلى حدود حائط بيت الصلاة المطل على الصحن شمالاً إطاراً مقسماً إلى أربعة أقسام متساوية يتسع كل منها باتساع الأسكوب المقابل بالإضافة إلى قسم جنوبي أول باتساع اسكوب القبلة الضيق، وقد خصص هذا الأخير للزخارف الخشبية بينما خصصت الأقسام الأربعة لنقش خشبي لبيتين من الشعر العربي يشغل كل شطر قسما من الأقسام.

وقد أفادني المعلم اليازغي فنان الخشب أنه هو الذي اختار البيتين من الشعر ونفذ نقشها بما في ذلك من صناعة وذلك داخل معمله بمدينة مكناس، ثم قام بتنزيل ذلك جاهزاً بنفس مكان ساتر المقصورة المذكورة موضوع دراساتنا. لقد قرأ لي البيتين مبتهجا شارحا عمق إحساسه بما يتضمنه البيتان من حب لهداية الله وسعادة بعبادته وهذه هي قراءة البيتين :

البيت الأول، الشطر الأول : فإذا حلت الهداية قلباً (بالقسم الأول جهة الصحن الرئيسي).

البيت الأول، الشطر الثاني : نشطت للعبادة الأعضاء (القسم الثاني جهة الصحن الرئيسي).

البيت الثاني، الشطر الأول : وإذا سخر الإله أناسا (القسم الثالث جهة الصحن الرئيسي).

البيت الثاني، الشطر الثاني : لسعيد فإنه سعداء (القسم الرابع جهة الصحن الرئيسي).

ثم يلي ذلك أسفل إطار الشعر العربي أربعة أقسام بالإضافة إلى القسم الأول جهة المحراب وكلها من فنون الخشب المخرم الصنع تعرف في الصنعة باسم (مثمن بالنقش مثقوب داخله توريق) وبين الوحدات الرئيسية أشغال أخرى من (التوريق).

هذا هو الوصف المجمل لمقصورة النساء وليس بالمسجد مقصورة للسلطان لأن مؤسس المجموعة المعمارية جلالة الحسن الثاني ووالده المقدس الملك المرحوم محمد

الخامس الذي أسس المبنى لتخليد ذكراه تعودا الصلاة مع الجماعة بين عامة المسلمين دون مقصورة، وداخل مساجد الأحياء الشعبية لا يحجبهم حاجز عن مواطنيهم، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين وقد قال الحق سبحانه وتعالى لرسوله الكريم : ﴿**والله يعصمك من الناس**﴾ صدق الله العظيم.

د. عثمان عثمان إسماعيل

تاريخ
الطب العربي

للدكتور لوسيان لوكليرك

الجزء الأول

أعادت طبعه
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية
الرباط - 1980

HISTOIRE
DE LA
MÉDECINE ARABE
PAR
LE Dr LUCIEN LECLERC

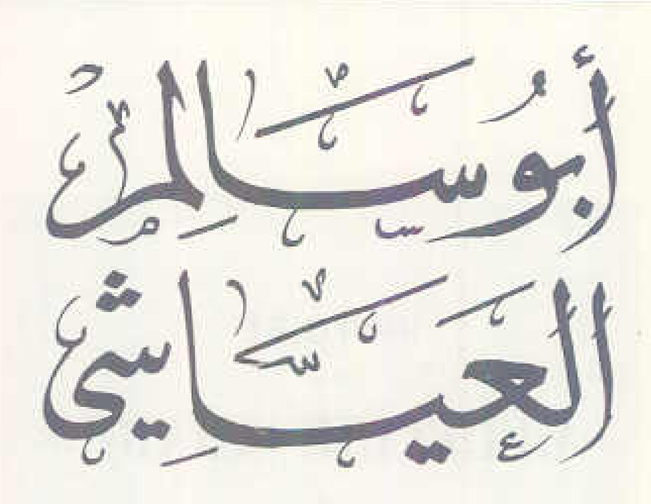
EXPOSÉ COMPLET
DES TRADUCTIONS DU GREC

LES SCIENCES EN ORIENT
LEUR TRANSMISSION A L'OCCIDENT
PAR LES TRADUCTIONS LATINES

TOME SECOND

PARIS
ERNEST LEROUX, ÉDITEUR
1876

RÉÉDITÉ :
PAR LE MINISTÈRE DES HABOUS
ET DES AFFAIRES ISLAMIQUES
ROYAUME DU MAROC - RABAT
- 1980 -



أبو سالم العياشي

(1)

الأستاذ عبد الله بنصر علوي

من الأدب المغربي الدفين أدب الزوايا، فهو بكثرته وغناه يجسد معاناة قوية للعالم المغربي المتصوف في تطلعه إلى التعبير عن الذات وآمال الواقع.

ومن الزوايا المغربية التي ساهمت في الحركة العلمية خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر للهجرة وخلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة : الزاوية العياشية (أو الحمزاوية) بمنطقة آيت عياش في سفح جبل العياشي أحد جبال درن (الأطلس الكبير).

ومن أبرز شيوخ هذه الزاوية العالم الكبير أبو سالم العياشي، صاحب الرحلة الشهيرة، فقد كان شخصية استوعبت واقع عصرها السياسي والاجتماعي والفكري. فهو - أولا - من شيوخ الزاوية العياشية التي استهمت - بجانب الزوايا الأخرى - في الاشعاع العلمي والوعي التاريخي بالبادية المغربية. وهو - ثانيا - رحالة شهير خبر علماء المشرق الإسلامي وواقعهم الفكري في رحلاته الحجازية.

وهو - ثالثا - مشارك في العلم والتصوف والأدب بالقدر الذي تبدعه طاقة تمرست بألوان من التحصيل في العلوم الشرعية والأدبية، وشكلت - رغم تعددها - رؤية استجابت لطبيعة الفكر المغربي.

ويمثل هذا المقال - تعريفا بالشخصية المذكورة من خلال هذه العناصر :

- نشأة العياشي وحياته
- شيوخه
- ثقافته
- منهجه
- شخصيته الصوفية والعلمية والأدبية
- مكانته

نشأة العياشي وحياته :

هو أبو سالم (1) عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن يوسف ابن موسى بن عبد الله بن عبد الرحمان الفكيكي (2)... العياشي المغربي المالكي (3)، يعرف بعفيف الدين (4)، وينتمي إلى الأدارسة (5).

ولد ليلة الخميس أواخر شعبان من عام 1037 هـ، بمنطقة آيت عياش التي احتضنت الزاوية العياشية. وفي وسطها العلمي والصوفي نمت مدارك أبي سالم. ويمكن تقسيم حياته إلى مراحل ثلاث :

المرحلة الأولى : (1037 - 1059).

تلقى فيها تعليمه الأول على يد شيوخ الزاوية

1) كناه به أبو اللطف الوفائي قائلا : «سالم إن شاء الله في الدنيا والآخرة» انظر اقتفاء الأثر في ذهاب أهل الأثر مخطوط خ.ع. 2123 د، ص 48.
2) الإحياء والانتعاش ص 5.
3) الرحلة العياشية ص 3/1.
4) لقبه به إبراهيم الكراني في صدر تأليف له. انظر الرحلة ص 430/1.
5) راجع الإحياء والانتعاش ص 11.

العياشية (6). ثم رحل عام 1053 إلى بلاد درعة التي ضمت الزاوية الناصرية في ربوعها (7). وانتقل إلى فاس حيث جامعة القرويين تضج بالطلبة وشيوخ العلم (8). ولم تتح له

الظروف التي عرفها المغرب أواسط القرن الحادي عشر الهجري أن يرحل إلى الدلاء ولا إلى مراكش، فاستغنى عن الزيارة الأولى بالعلاقات الودية والمراسلات العلمية والأدبية التي كانت بينه وبين بعض علماء الزاوية الدلائية كأبي علي الحسن بن مسعود اليوسي والطيب بن محمد المسناوي ومحمد المرابط الدلائي ومحمد بن محمد بن أبي بكر الصغير الدلائي (9). كما لم يزر الثانية مكتفيا بصحبة أشهر علمائها أبي بكر بن يوسف السكتاني وهو في طريق العودة من المشرق في رحلته الأولى فأخذ عنه أبو سالم العلوم والمعارف (10).

المرحلة الثانية : (1059 ـ 1074).

ولما استوعب أبو سالم الواقع العلمي والصوفي والأدبي في المغرب تاقت نفسه إلى المشرق حيث «كانت الرحلات من التقاليد المصطفاة عند علماء الإسلام وكان لها فضل عظيم في صقل العقول» (11). يقول أبو سالم : «أخذت عن الاعلام الذين أدركتهم بالمغرب قليلا، فلم يشف ما لديهم مما أجد غليلا ولا أبرى عليلا، فإنهم استغنوا عما غاب بما ظهر، فاقتصروا من الكتب على ما اشتهر، دون المسلسلات والأجزاء الصغار، وعوالي الإسناد وغرائب الأخبار» (12) فرحل ثلاث مرات إلى المشرق في أعوام 1059 و1064 و1072 فأخذ عن علماء مصر ومكة والمدينة المنورة وفلسطين، فضلا عن اتصالاته الوثيقة والمباشرة مع علماء ومتصوفة من طرابلس والأسكندرية والقدس... فلم يترك عالما إلا قصده ولا متصوفا الا زاره، حريصا على

6) اقتفاء الأثر ص 28.
7) الثغر الباسم ص 112.
8) اقتفاء الأثر ص 31.
9) راجع الثغر الباسم ص 37 و45 و53 و127 و379.
10) راجع الرحلة ص 147/1 و183 و322/2 و363 و372 و402 و414.
11) التصوف الإسلامي لزكي مبارك ص 124/1.
12) اقتفاء الأثر ص 27.

أسانيدهم ومستدعيا إجازاتهم، وآملا بركة دعائهم (13).

وتعد هذه الفترة أخصب مراحل حياة أبي سالم. فقد ساهم في الحركة الفكرية التي عرفها عصره في العلوم والآداب فسجلت رحلته ماء الموائد العلاقات الفكرية والاجتماعية بين المغرب والمشرق. وخاصة في قضايا الكسب وشراب الدخان والبن التي حملها أبو سالم من المشرق إلى المغرب حيث وجدت مجالا فكريا كبيرا للنقاش والجدال (14).

كما تصدر للتدريس في المدينة المنورة (15)، وأجاز كثيرا من العلماء الذين أجازوه بدورهم، فكان تبادل الإجازات بمختلف أسانيدها ومروياتها ظاهرة علمية حققت تواصلا فكريا بين المشرق والمغرب.

المرحلة الثالثة : (1074 ـ 1090).

وهي مرحلة التفرغ للتدريس والتأليف. فدرس بفاس (16) وبزاويته، وأخذت عنه جماعة أجازهم في كثير من العلوم، نذكر من بينهم ابنه حمزة ومحمد بن عبد السلام بناني وعلي بن أحمد الحريشي (17) وعثمان بن علي اليوسي (18) وأحمد بن إبراهيم المراكشي (19) وأحمد بن سعيد المجيلدي (20) ومحمد بن عبد الرحمان الفاسي (21) ومحمد بن القاسم ابن زاكور (22) وأبو إسحاق إبراهيم الدرعي السباعي (23) والطيب ابن محمد بن عبد القادر الفاسي (24).

وقد كتب في هذه المرحلة رحلته الشهيرة ماء الموائد التي تمثل مع فهرسته اقتفاء الأثر في ذهاب أهل

13) راجع الرحلة والاقتفاء.
14) راجع الرحلة العياشية 283/1 و429.
15) الرحلة ص 276/1.
16) الإعلام بمن غبر للفاسي ص 71.
17) ذكرهم مخلوف في شجرة النور ص 314.
18) نشر المثاني للقادري ص 206/2 (النص المحقق).
19) ذكره مؤلف الثغر الباسم ص 15.
20) كتب له العياشي إجازة : اقتفاء الأثر...
21) المنح البادية ص 6.
22) نشر أزاهر البستان ص 84.
23) فهرس الفهارس ص 417/2 و419.
24) مقدمة كتاب الغنية للقاضي عياض للمحقق محمد بن عبد الكريم ص 48.

الاثر ترجمة ذاتية استوعبت إحساسه وفكره وثقافته. كما كتب جل مؤلفاته التي تعبر عن اهتماماته العلمية في مجالات الحديث والفقه والتصوف.

وتوفي بعدوى الطاعون ضحى يوم الخميس 17 من ذي القعدة عام 1090 (25) رحمه الله.

شيوخ العياشي :

يعتبر أبو سالم العياشي من أبرز ذوي الاتصال العلمي والصوفي والأدبي من اعلام عصره في المغرب والمشرق خلال الربع الثالث من القرن الحادي عشر الهجري. ويميز العياشي في مشيخته بين من لقنوه علوم الشريعة، وبين من لقنوه علوم الحقيقة.

فشيوخ علوم الشريعة الذين أخذ عنهم بالمغرب (26) هم :

1 - والده محمد بن أبي بكر العياشي (27)
2 - عبد القادر بن علي الفاسي (28).
3 - أبو العباس أحمد (المدعو حمدون) الأبار (29).
4 - محمد بن أحمد ميارة (30).
5 - أبو بكر بن يوسف السكتاني (31).
6 - محمد بن محمد بن ناصر الدرعي (32).

ومن الشيوخ المغاربة الذين كان على اتصال بهم (33).

7 - محمد بن محمد بن أبي القاسم بن سودة (34).
8 - عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي (35).
9 - أحمد بن عبد الرحمان بن جلال التلمساني (36).
10 - أحمد بن علي بن مداش الزرهوني (37).
11 - عبد السلام بن ناصر (38).
12 - أبو الحسن علي الزرهوني (39).
13 - ميمون الرتبي (40).

---

25) الثغر ص 20/ وقد ذكر الفاسي في الإعلام بمن غبر... أن تاريخ وفاة أبي سالم هو اليوم الموالي للتاريخ المذكور.

26) اقتفاء الأثر ص 28 - 33.

27) محمد بن أبي بكر العياشي (981 - 1067) من شيوخ العلم والتصوف نال حظوة عند الدلائيين الذين أشاروا عليه بتأسيس زاوية في آيت عياش. راجع اقتفاء الأثر ص 28/ الإحياء ص 16 - 43، صفوة من انتشر ص 135/ نشر المثاني ص 216/1 / التقاط الدرر ص 139/ الحركة الفكرية بحجي ص 508/2.

28) عبد القادر بن علي الفاسي (1007 - 1091) من أشهر علماء المغرب فقها وتصوفا، وهو شيخ الجماعة بفاس وتصدر للتدريس، أخذ عنه خلق كثير، وله صلات مع الزاوية العياشية. راجع الصفوة ص 181/ النشر ص 38/2 الالتقاط ص 217/ خلاصة الأثر للمحبي ص 444/2 / مجلة تطوان العدد الخاص بالمولى إسماعيل سنة 1972 / الحياة الأدبية للأخضر ص 102 / الإعلام للزركلي ص 41/4.

29) أبو العباس أحمد حمدون الأبار (1001 - 1071) انتحل التجارة في شبابه ثم انقطع للعلم والتدريس والتأليف. راجع الاقتفاء ص 31 النشر ص 228/1 / الالتقاط ص 148 وهامش المحقق 2/ سلوة الانفاس ص 330/3 الموسعة المغربية ص 7/1.

30) محمد بن أحمد ميارة (999 - 1072) أحد اعلام الفقه في المغرب له تاليف مشهورة. راجع الاقتفاء ص 32/ الصفوة ص 140/ النشر ص 235/1/ الالتقاط ص 151 / السلوة ص 165/1 / الاعلام ص 11/6.

31) أبو بكر بن يوسف السكتاني (ت : 1063) من أشهر علماء مراكش أخذ عن شيوخ مغاربة ومشارقة، وكان صوفيا زاهدا. راجع الاقتفاء 32/ الصفوة ص 111 النشر 206/1 / الالتقاط ص 143 / الإعلام للمراكشي ص 215/1 / إعلام المغرب العربي لعبد الوهاب بن منصور ص 259/1.

32) محمد بن محمد بن ناصر الدرعي (- 1085) من أشهر أقطاب التصوف في المغرب، وهو مؤسس الزاوية الناصرية بدرعة. راجع الاقتفاء 32/ النشر ص 16/3 الالتقاط ص 196/ الصفوة 112/ الإعلام ص 63/7/ الحياة الأدبية ص 86/.

33) انظر الثغر البابسم ص 9 - 10. والملاحظ أن أبا سالم لم يذكر هؤلاء الشيوخ في اقتفاء الأثر.

34) محمد بن محمد بن أبي القاسم بن سودة (1003 - 1076) من أكابر العلماء بفاس علما ودينا وأدبا تولى القضاء والفتوى. راجع الصفوة ص 159/ الثغر ص 9/ النشر ص 256/1 / الالتقاط 166/ السلوة ص 71/1 / الموسوعة المغربية ص 15/2.

35) عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي (1040 - 1096) لقب بسيوطي زمانه لكثرة حفظه وانتشار تأليفه. راجع الصفوة ص 201/ الثغر ص 9/ النشر ص 88/2 الالتقاط 330/ السلوة ص 314/1/ الحياة الأدبية ص 114.

36) أحمد بن عبد الرحمان بن جلال التلمساني (ت 1079 عرف بالنحو والفقه وكان على جانب من التصوف. راجع الثغر ص 10/ النشر ص 272/2/ الالتقاط 174.

37) أحمد بن علي بن مداش الزرهوني من شيوخ أبي سالم حسبما ذكره صاحب الثغر ص 10.

38) عبد السلام بن ناصر (ت 1052) وصفه القادري باللغوي الأديب. راجع الثغر ص 10/ النشر ص 185/1 / الالتقاط 122.

39) أبو الحسن علي الزرهوني (ت 1072) يعرف بمشاركته في النحو والتصوف والعروض وهو أحد شيوخ عبد القادر الفاسي. راجع الثغر ص 10/ الالتقاط ص 153/ النشر ص 237/1.

40) ميمون الرتبي من شيوخ أبي سالم حسبما جاء في الثغر ص 10. وهو من أجل تلامذة عبد الله بن طاهر الحسني.

14 - أحمد حمدون المزاور (41).

15 - محمد بن أبي القاسم الدادسي (42).

وشيوخه الذين أخذ عنهم بمصر (43) :

16 - زين العابدين أبو الحسن علي بن محمد الأجهوري (44).

17 - إبراهيم بن محمد الميموني (45).

18 - شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي (46).

19 - عبد القادر بن جلال الدين المحلي الصديقي (47).

20 - عبد الجواد بن إبراهيم الطريني (48).

21 - شهاب الدين القيلوبي (49).

22 - علي الشموركسي (50).

23 - أبو مهدي عيسى بن محمد الثعالبي (51).

24 - محمد الطحطاوي (52).

أما شيوخه الذين أخذ عنهم بالحرمين (53) فهم :

25 - محمد بن علاء الدين البابلي المصري (54).

26 - تاج الدين بن أحمد المالكي المكي الأنصاري (55).

27 - زين العابدين بن عبد القادر الحسيني الطبري (56).

28 - أبو الحسن علي بن عبد القادر الحسيني الطبري (57).

29 - أبو الحسن علي بن محمد الديبع الشيباني الزيدي (58).

30 - أبو الحسن علي بن أحمد اليمني الهلالي (59).

31 - أبو سالم إبراهيم بن عبد الرحمان

---

41) أحمد حمدون المزوار (1014 - 1084) الخطيب القاضي اشتهر في علم المعاني والتفسير، وله تقاييد في النحو والبيان راجع الصفوة ص 172/ الثغر ص 10/ النشر ص 12/2 / الالتقاط ص 195 وهـ 4/ السلوة ص 77/3.

42) محمد بن أبي القاسم الدادسي (ت 1062) شيخ صوفي أثرت عنه كما يقول أصحاب التراجم مكاشفات وكرامات، واتصل كثيرا بالدلائليين راجع الرحلة ص 63/1 ولعله المترجم له في النشر ص 201/1 والالتقاط ص 132.

43) راجع الاقتفاء ص 33 - 37 / اتحاف الاخلا بإجازات المشايخ الاجلا ص 5 - 33 الثغر ص 10 - 13/ الرحلة العياشية : انظر الفهرست وفهرس الإعلام.

44) أبو الحسن علي بن محمد الاجهري (975 - 1066) شيخ المالكية بالقاهرة وهو صاحب الشرح المشهور لمختصر خليل، وقد تتلمذ له كبار علماء المغرب أخذا وتلقينا وإجازة. راجع الاقتفاء ص 33/ النشر ص 215/1/ الالتقاط 138 هـ 3 خلاصة الأثر 157/3 / الإعلام ص 13/5.

45) إبراهيم بن محمد الميموني (991 - 1080) حلاه القادري بالمعقولي البياني. راجع الاقتفاء ص 34/ الاتحاف 30/ الرحلة 126/1 / النشر ص 117/2 / الالتقاط 181 / خلاصة الأثر 45/1 / الإعلام ص 1 /67.

46) أحمد بن محمد الخفاجي (ت 1069) امام الحنفية بمصر وهو صاحب الشرح المشهور على شفا القاضي عياض. راجع الاقتفاء 35/ الرحلة ص 210/1/ الصفوة ص 128/ النشر ص 220/1/ الالتقاط ص 143/ نفحة الريحانة للمحبي ص 395/4/ الاعلام ص 238/1.

47) عبد القادر بن جلال الدين المحلي الصديقي ذكره أبو سالم في الاقتفاء ص 35/ الرحلة ص 129/1.

48) عبد الجواد بن إبراهيم الطريني (ت 1072) فقيه مشارك. راجع الاقتفاء ص 36/ الرحلة ص 148/1 / النشر ص 245/1 / الالتقاط 156.

49) شهاب الدين القيلوبي شيخ الشافعية ذكره صاحب الثغر ص 10.

50) علي الشموركسي من شيوخ أبي سالم الذين ذكرهم في الاقتفاء ص 36.

51) عيسى بن محمد الثعالبي (ت 1080) من فقهاء المالكية بمصر، نقشبندي الطريقة. راجع الاقتفاء ص 37/ الرحلة ص 207/1 و126/2 / الصفوة ص 163/ النشر ص 1/ 275 / الالتقاط ص 179 / خلاصة الأثر ص 240/3.

52) محمد الطحطاوي من شيوخ أبي سالم الذين ذكرهم في الاقتفاء ص 37/ الثغر ص 11.

53) راجع الاقتفاء والاتحاف والرحلة.

54) محمد بن علاء الدين البابلي (ت 1076) مصري شافعي المذهب، أجاز أبا سالم في الحديث. راجع الاقتفاء ص 38/ الاتحاف ص 33/ الرحلة ص 359/2 / النشر ص 260/1 / الالتقاط ص 168 / خلاصة الأثر 93/4 / الإعلام ص 270/6.

55) تاج الدين بن أحمد المالكي (ت 1063) قاضي وخطيب ومدرس ومحقق لكثير من العلوم وكان امام عصره في الإنشاء. راجع الرحلة ص 199/1 / خلاصة الأثر ص 1 - 457 - نفحة الريحانة ص 4 - 84.

56) زين العابدين بن عبد القادر الحسيني الطبري (1002 - 1078) فقيه شافعي المذهب وشيخ صوفي راجع الاقتفاء ص 38/ الرحلة ص 206/1 و125/2 / النشر ص 266/1 / الالتقاط ص 172/ خلاصة الأثر ص 195/2.

57) علي بن عبد القادر الحسيني الطبري من شيوخ أبي سالم الذين ذكرهم في الاقتفاء ص 38/ الثغر ص 11.

58) علي بن محمد الديبع الشيباني (ت 1076) شيخ صوفي قشاشي الطريقة، وفقيه محدث، أجاز أبا سالم في الحديث وعلم القراءات. راجع الاقتفاء ص 39/ الرحلة ص 315/1/ 220/ النشر ص 258/1/ الالتقاط ص 167 وهـ 6.

59) علي بن أحمد اليمني الهلالي من شيوخ أبي سالم الذين ذكرهم في الاقتفاء ص 40 والرحلة ص 205/1 / الثغر ص 12.

الخياري (60).

وقد ترك أبو سالم ذكر القليل من الشيوخ ممن لم يشتهر أمرهم اشتهار الذين ذكرهم (61) منهم :

32 ـ ياسين بن محمد الخليلي (62).

33 ـ خير الدين بن أحمد الأيوبي الرملي (63).

34 ـ عمر بن عبد القادر المشرقي (64).

35 ـ يوسف بن حجازي القاسمي (65).

36 ـ عبد القادر الغزي ابن الغصين (66).

37 ـ عبد الله بن محمد الديري (67).

38 ـ عبد السلام بن إبراهيم اللقاني (68).

39 ـ محمد بن عبد الله الخرشي (69).

40 ـ موسى القليبي (70).

41 ـ أبو الحسن علي الشبراملسي (71).

42 ـ شهاب الدين أحمد بن التاج (72).

43 ـ سلطان بن أحمد المزا حي (73).

ومن شيوخه الذين لم يذكرهم في فهرسته (74) :

44 ـ محمد بن أحمد بن مساهل (75).

45 ـ حسن البري (76).

46 ـ محمد الفزازي (77).

47 ـ أحمد بن علي بن عبد القادر المالكي (78).

48 ـ يحيى بن الباشي (79).

ومن شيوخ أبي سالم (80).

---

60) إبراهيم بن عبد الرحمان الخياري (ت 1038) مؤلف «تحفة الأدباء وسلوة الغرباء» كان خطيبا بالمسجد النبوي ومفتيا، رحل إلى عدة بلدان بالمشرق العربي. راجع الاتحاف ص 13 ـ الرحلة ص 448/1/ النشر ص 120/2 / الالتقاط ص 245 وهـ 3 / خلاصة الأثر ص 25/1 / الاعلام ص 46/1.

61) راجع الاتحاف والرحلة.

62) ياسين بن محمد الخليلي (ت 1086) من مشاهير علماء المدينة المنورة وخطب بالمسجد الحرام ودرس به. راجع الاتحاف ص 5/ الرحلة ص 443/1 / النشر ص 119/2 / خلاصة الأثر ص 493/4 / الاعلام ص 130/8.

63) خير الدين بن أحمد الأيوبي الرملي (993 ـ 1081) امام الحنفية ومفتيهم بمصر درس بالأزهر مدة ثم عاد إلى بلاده الرملة بفلسطين يدرس ويفتي ويؤلف. راجع الأتحاف ص 26/ الرحلة ص 311/2 / النشر ص 108/2 / الالتقاط ص 243 وهـ 2 / خلاصة الأثر ص 134/2.

64) عمر بن عبد القادر المشرقي (ت 1074) فقيه وقاض. راجع الاتحاف ص 26 الرحلة ص 308/2 و349/ النشر ص 250/1 / الالتقاط ص 160.

65) يوسف بن حجازي القاسمي (ت 1060) من ذرية أبي القاسم الجنيد، فقيه وشيخ صوفي راجع الاتحاف ص 28/ النشر 195/1 / الالتقاط ص 125.

66) عبد القادر الغزي الشهير بابن الغصين (1013 ـ 1087) شافعي المذهب رفاعي الطريقة، ويقال إنه لم يخلف بعده في غزة مثله علما وعملا. راجع الاتحاف ص 29/ الرحلة 304/2 و310/ خلاصة الأثر ص 374/2.

67) عبد الله بن محمد الديري من شيوخ أبي سالم الذين ذكرهم في الاتحاف ص 29.

68) عبد السلام بن إبراهيم اللقاني (971 ـ 1076) شيخ المالكية في مصر، اشتهر بكتبه في العقائد، راجع الرحلة ص 126/1 / الصفوة ص 161/ النشر ص 267/1/ الالتقاط ص 172 / الاعلام ص 355/3.

69) محمد بن عبد الله الخرشي (1010 ـ 1102) تولى مشيخة الأزهر واشتهر بشرحيه على مختصر خليل، وقد اعتنى المغاربة بتحشيتهما وله مراسلة مع المولى إسماعيل. انظر الرحلة ص 359/2/ الاتحاف ص 33/ الصفوة ص 205 ـ الالتقاط ص 257 / النشر ص 137/2 / الاعلام ص 240/6.

70) موسى القليبي. قال عنه المحبي : أحسن ما شاهد في النظم والنثر. انظر الرحلة ص 127/1 و129 و137 / نفحة الريحانة ص 640/4.

71) أبو الحسن علي الشرملسي (988 ـ 1087) شافعي المذهب، عالم مصري، متحقق في القراءات. راجع الرحلة ص 1351 و359/2/ الصفوة ص 148 النشر ص 21/2 الالتقاط ص 199/ خلاصة الأثر ص 174/3/ نفحة الريحانة ص 590/1.

72) شهاب الدين أحمد بن التاج (ت 108) مؤقت بالحرم الشريف. له كتاب الجفر الكبير أورد العياشي في الرحلة نصوصا كثيرة منه. انظر الرحلة ص 2/2 ـ 27 / النشر ص 121/2 / الالتقاط ص 246.

73) الشيخ سلطان بن أحمد المزاحي (985 ـ 1075) شيخ أهل القراء والتجويد بمصر شافعي المذهب. له مؤلفات. راجع الرحلة ص 127/1 و147 و121/2 و122 و358 / الصفوة ص 144 / النشر ص 254/1 / الالتقاط ص 164 / خلاصة الأثر ص 210/2 / الإعلام ص 108/3.

74) انظر الثغر ص 12 ـ 13.

75) محمد بن أحمد بن مساهل (ت 1074) مفتي طرابلس الغرب له مشاركة في العلوم. راجع الرحلة ص 59/1 ـ 65 / النشر ص 246/1 / الالتقاط ص 158.

76) حسن البري (ت 1130) فقيه مالكي المذهب اتصل به أبو سالم في المدينة، ويرى فيه أنه ضعيف التحصيل في الفقه. راجع الرحلة ص 45/2 / النشر ص 121/2 / الالتقاط ص 246 / عجائب الآثار ص 123/1.

77) محمد الفزازي من شيوخ أبي سالم انظر الثغر ص 13.

78) أحمد بن علي بن عبد القادر المالكي من شيوخ أبي سالم. انظر الثغر ص 13.

79) يحيى بن الباشي من شيوخ أبي سالم. انظر الثغر ص 13.

80) انظر عجائب الآثار لعبد الرحمان الجبرتي ص 168.

49 ـ أحمد بن علي باقشير اليمني المكي (81).

50 ـ علي بن الجمال (82).

51 ـ عبد العزيز بن محمد الزمزمي (83).

52 ـ الحسن بن علي العجيمي (84).

أما شيوخه في علوم الحقيقة (85) فهم على طريقين : طريق الاقتداء والصحبة وطريق التبرك.

وشيوخ الطريقة الأولى الذين لقنوه الاذكار والأوراد (86) :

- والده محمد بن أبي بكر العياشي (87).
- أبو بكر بن يوسف السكتاني (88).
- عبد القادر بن علي الفاسي (89).
- محمد بن محمد بن ناصر الدرعي (90).
- أبو الحسن علي الأجهوري (91).
- أبو مهدي عيسى بن محمد الثعالبي (92).
- عبد القادر بن جلال الدين المحلي (93).
- محمد الطحطاوي (94).

ـ وقد انعقدت الأخوة في الله والمحبة بينه وبين جماعة كتب كل واحد منهم بذلك (95) :

53 ـ موسى الرجوي (95).

54 ـ أحمد بن محمد بومجيب (96).

55 ـ محمد بن السيرافي الوفائي (97).

أما شيوخ الطريقة الثانية الذين تفردوا بطريق التصوف وكان لهم في ذلك التصرف (98) :

56 ـ محمد بن محمد الجيلالي (99).

57 ـ أبو اللطف الوفائي (100).

58 ـ محمد باعلوي الحضرمي اليمني (101).

59 ـ عبد الرحمان بن محمد المكناسي (102).

60 ـ أبو العباس أحمد القشاشي (103).

61 ـ زين العابدين محمد البكري (104).

62 ـ عبد الكريم الفكون القسمطيني (105).

---

81) أحمد بن علي باقشير (ت 1075) ممن ينتسب للعلم والتصوف. وقد أخطأ الجبرتي فذكر عوضه عمه عبد الله بن سعيد باقشير الذي لم يتصل به العياشي انظر الرحلة ص 226/2 النشر ص 254/1 / الالتقاط 164.

82) علي بن الجمال من شيوخ أبي سالم حسبما جاء في عجائب الآثار ص 168.

83) عبد العزيز بن محمد الزمزمي (ت 1072) مؤذن بالمسجد الحرام وهو من فقهاء الشافعية. ولعل العياشي لم يتصل به وإن سمع عنه كثيرا من شيخه أحمد بن التاج. انظر الرحلة ص 27/2 ـ 29 / النشر ص 239/1/ الالتقاط ص 153.

84) الحسن بن علي العجيمي (1149 ـ 1113) من علماء الحديث قشاشي الطريقة له مؤلفات. راجع الرحلة ص 409/1 و212/2 / النشر ص 170/2 / الالتقاط ص 284 وهـ 5.

85) راجع الاقتفاء والرحلة.

86) الاقتفاء ص 40 ـ 47.

87) انظر ترجمته في ص 6 هامش 2 من هذا البحث.

88) انظر ترجمته في ص 7 هـ 6.

89) انظر ترجمته في ص 6 هـ 3.

90) انظر ترجمته في ص 7 هـ 7.

91) انظر ترجمته في ص 8 هـ 2.

92) انظر ترجمته في ص 9 هـ 2.

93) انظر ترجمته في ص 8 هـ 5.

94) انظر ترجمته في ص 9 هـ 3.

95) انظر الثغر في ص 14.

96) موسى الرجوي ممن له صحبة صوفية مع أبي سالم. انظر الثغر ص 14.

97) أحمد بن محمد بومجيب (ت 1074) ولي صالح مجذوب قبره مشهور بازليتن بليبيا راجع الرحلة ص 94/1 ـ 95 النشر ص 249/1 / الالتقاط ص 159.

98) محمد بن السيرافي الوفائي ممن له علاقة صوفية مع أبي سالم. انظر الثغر ص 14.

99) انظر الاقتفاء ص 47 ـ 53.

100) محمد بن محمد الجيلالي ذكره أبو سالم في الاقتفاء ص 47.

101) أبو اللطف الوفائي من شيوخ الطريقة الوفائية بمصر. انظر الاقتفاء ص 48.

102) محمد با علوي (ت 1071) من أسرة يمنية صوفية اشتهرت بالمدينة المنورة، ويرتبط سندها الصوفي بأبي مدين الغوث. راجع الرحلة ص 89/2 و297 / الاقتفاء ص 49 / النشر ص 232/1 / الالتقاط ص 150 وهـ 1.

103) عبد الرحمان بن أحمد المكناسي (1023 ـ 1085) متصوف زاهد زار كثيرا من البلدان الإسلامية واستوطن مكة راجع الرحلة ص 227/2 / الاقتفاء 49 / خلاصة الأثر ص 346/2 / اتحاف اعلام الناس بجمال حاضرة مكناس لعبد الرحمان بن زيدان ص 281/5.

104) أحمد القشاشي (992 ـ 1071) أسس زاوية قادرية الطريقة في المدينة المنورة يقول بتأثير القدرة الحادقة (الكسب). راجع الرحلة ص 407/1 ـ 425 / الاقتفاء ص 49 / الصفوة ص 119 / النشر ص 230/1 / الالتقاط ص 149 وهـ 6 و7 / خلاصة الأثر ص 343/1.

105) محمد البكري (ت 1090) من مشايخ الطريقة البكرية بمصر التي يتصل سندها بالشاذلي. له اشعار ورسائل راجع الاقتفاء ص 51/ النشر ص 45/2 الالتقاط ص 212.

ومن شيوخ ابن سالم في هذه الطريقة (106) :

63 - جمال الدين النقشبندي (107).

64 - عمر بن عبد الصمد العلمي (108).

65 - إبراهيم بن حسن الكوراني(109).

وشيوخ أبي سالم في علوم الشريعة والحقيقة كثيرون، منهم من استوعبتهم الرحلة والفهرسة، ومنهم من أشار إليه مترجموه. فقد كان حرصه على الاتصال بشيوخ العلم والتصوف شديدا، فلم يكن ينأ عن لقاء كل من سمع بعلمه وتقواه. ولعل أكثر الشيوخ تأثيرا في شخصيته، وأعظمهم حبا إلى نفسه : والده محمد بن أبي بكر العياشي وعبد القادر الفاسي وعيسى الثعالبي وإبراهيم الكوراني.

106) عبد الكريم الفكون القسطيني (ت 1073) له اشتغال بالعلوم والتصوف انظر الرحلة ص 206/2 و390 / الاقتفاء ص 52 / الصفوة 141 الاعلام ص 56/4.

107) انظر الرحلة.

108) جمال الدين النقشبندي (ت 1086) أصله من الهند استوطن المدينة المنورة وينتمي إلى الطريقة النقشبندية. راجع الرحلة ص 250/1 و453 النشر ص 257/1 / الالتقاط ص 167 وهـ 1 و2.

109) عمر بن عبد الصمد العلمي (ت 1073) شيخ صوفي وله إطلاع على مؤلفات الصوفية، جاريا على مناهجهم السوية. راجع الرحلة ص 322/2 - 333 / خلاصة الأثر ص 212/3.

110) إبراهيم بن حسن الكوراني (1025 - 1101) عالم صوفي، نقشبندي الطريقة اشتهر بمؤلفاته في مسألة خلق أفعال العباد. وقد ناقشه علماء المغرب. راجع الرحلة ص 320/1 - 402 / الاتحاف ص 17 / النشر ص 130/2 الالتقاط ص 255 / الصفوة ص 210 سلك الدرر للمرادي ص 5/1 / فهرس الفهارس ص 372/1 / الاعلام ص 351.

تاريخ
الطب العربي

للدكتور لوسيان لوكليرك

الجزء الثاني

اعادت طبعه
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية
الرباط - 1980

HISTOIRE
DE LA
MÉDECINE ARABE
PAR
LE Dr LUCIEN LECLERC

EXPOSÉ COMPLET
DES TRADUCTIONS DU GREC
LES SCIENCES EN ORIENT
LEUR TRANSMISSION A L'OCCIDENT
PAR LES TRADUCTIONS LATINES

TOME PREMIER

PARIS
ERNEST LEROUX, ÉDITEUR
1876

RÉÉDITÉ :
PAR LE MINISTÈRE DES HABOUS
ET DES AFFAIRES ISLAMIQUES
ROYAUME DU MAROC - RABAT
- 1980 -

دار العدة

خزانة بني عبد الجبار بفجيج:

الأستاذ بن علي محمد بن زيان

ذائع مستفيض في أخبار المعمرين من أهلنا، وثابت مسجل في كتب الرحلات والتراجم المغربية أن فجيج كانت مركزا علميا يحتضن أكثر من خزانة، فيذكرون لبني عبد الجبار خزانة، ولبني سكون ثانية، وللراشديين ثالثة، وللسادتيين رابعة. ولبعض الخواص خزاناتهم، مثل خزانة بوزيان بن أحمد من آل عبد الجبار التي سماها «قصر الكتب»، وخزانة أحمد بن محمد بن حم السليماني الفجيجي، وهذا كله جميل جدا وقابل للتصديق إلا أنه تاريخيا، واستنادا إلى المصادر المتوافرة، والوثائق المعتمدة، تجعل من الصعب التسليم بوجود هذا الزخم الكثيف من الخزانات في بلدة متواضعة كفيجيج، فهي لم تسلم إلا بوجود واحدة ألا وهي خزانة بني عبد الجبار التي أصبحت حقيقة وهاجة كالشمس الفجيجية. فكيف بدأت هذه الخزانة ؟ وماذا كان اسمها ؟ وما عدد الكتب التي احتوتها ؟ ومن هم القائمون عليها ؟ ومتى اندثرت هذه المعلمية العجيبة ؟

تلك أسئلة ترد على الخاطر، وتلح عليه إلحاح الذباب على القاضي عبد الله بن سوار باحثة عن أجوبة شافية، وأدلة كافية، يأنس إليها العقل وتجعل الضمير في وضع مريح، ومع ذلك يبقى المطلب صعب المنال عسيرا، إذا المعول عليه مصدران اثنان : أما الروايات «المتواترة»، فتصديقها ظني أكثر مما هو قطعي يقيني، وأما المصادر المكتوبة وإن كان تصديقها ثابتا، فهي قليلة نادرة لا تساعد على إنجاز دراسة وافية عن هذه الخزانة ولا سيما ما يتعلق بجانب تكوينها ونشأتها، ولعل الجانب الوحيد الذي سيضطرنا إلى اعتماد الروايات الشفوية المتواترة والمعززة بتعدد الرواة.

وتأسيسا على ما سبق، يروي الأجداد خلفا عن سلف أن الشيخ الإمام الشيخ الإمام عبد الجبار (حوالي 820 - 920 هـ) دشن خزانة بحمولة أربعين بعيرا كتبا، جاء بمعظمها من فاس وتلمسان ومصر، وينيف مجموعها على خمسة آلاف مجلد، وهو رقم ليس بالهين، ولكنه أيضا ليس بالخيال بل - على العكس يبدو خاسئا ذليلا أمام تلك الأبهة التي أضفاها الرحالون عليها، وأحاديثهم ترشح بالاكبار والاغراء يخال معهما المرد أن الخزانة تضمنت عشرات الآلاف من الكتب.

وإننا لنجد أيضا في إطلاق اسم «دار العدة» عليها أكثر من دليل، فالعدة إمعان في المبالغة بالكثرة والعدد، والعدة أيضا إظهار للمبالغة في الاعتداد والتعويل، ولا سرفا أقول إن أنا زعمت أن الخزانة كان يعول عليها ويعتد بها بحق، فقد أخبرنا الرحالة ابن ناصر الدرعي خبرا مفاده أن أحمد بن أبي بكر السكوني ما كان ليكتب كتابيه شرح دلائل الخيرات وشرح تنبيه الانام، لولا «ما وجده من الكتب ميسرا في خزانة سيدي عبد الجبار (1)، ولأمر ما جعل الرحالون زيارتها تقليدا محمودا فاشيا بينهم. فهذا أبو سالم العياشي يقول : «ولم ألق أحدا من أولاد سيدي عبد الجبار إلا رجلا ضريرا إسمه عبد القادر منقطع في داره، الغالب عليه أنه من أهل الخير، وطلبت الدخول إلى خزانة كتبهم فلم يتيسر لغيبة الذي عنده المفتاح (2) وهو نص يفيدنا أيضا في الإجابة عن تساؤل حول القيم عليها، ويشترط فيه كما يظهر اتصال نسبه ببني عبد الجبار، وهو يفتحها في أوقات غير منتظمة، الأمر الذي يوحي بعدم وجود نظام مضبوط لتسيير شؤون الخزانة، وهذا الاهمال فوت على عدد من الرحاليين فرص الاطلاع، وتسجيل الانطباع مثلما حدث لصاحبنا العياشي أواسط القرن الحادي عشر، ولا بأس ما دام ابن ناصر الدرعي قد حظي بزيارتها في أواخر القرن ذاته (1096 هـ) وإن كان العهد بينهما بعيدا يؤثر لا محالة على أحوال الخزانة، وفي ذلك يقول : «ودخلنا هذه الخزانة تبركا في حجة ست وتسعين واقتداء بسيدنا الوالد وأطلعنا أولاده على إجازات اسلافهم سيدي عبد الجبار وولديه سيدي محمد وسيدي أحمد ورأيت عندهم كتبا غريبة وهي إلى الاندثار قريبة (3).

وكأني بفراسة ابن ناصر قد صدقت بعد حين، إذ ظهر في أواسط القرن الموالي من استحل الغدر بها، وسولت له نفسه تلويث يده باستراق بعض شواردها وطرائفها، بلغت ثمانين مجلدا، منه ما كان مستجلبا لنسخه وإضافته، ومعنا رسالة من الشيخ عبد القادر بن محمد من آل عبد الجبار إلى شيخه أحمد بن عبد العزيز تحمل بين ألفافها إشارة مفصلة للواقعة الشائنة «...إلى سيدنا ووسيلتنا إلى ربنا، السيد الأبر، الناسك الاظهر... ليكن في علمك أننا لا نترك كتبنا وعددها ثمانون ستون منها معلومة المداد ولا تنسى، وعشرون منها مجهولة ولا يغرهم قول السارق محمد بن قاسو بأنها لأبيه دون ذرية سيدي عبد الجبار. والحق الحقيق أن الخزانة هي للسيد عبد الجبار وخلف ثلاثة السيد إبراهيم والسيد محمد والسيد أحمد وكلهم زادوا فيها بعد أبيهم، وهي مجموعة للذرية للآن بل هي حبس لله، ونحن على حقنا طال الزمان أم قصر، وأنت يا سيدي سمعت منك أنك قلت لي لا تعرف كتبك إلا عندي وقد التزمت بها على وجه الضمان وأنت تشير بيدك إلى جبهتك، ونحن لا نؤاخذك بذلك (4).

ويبدو أن الشيخ عبد القادر اتخذ من فعل محمد بن قاسو، وهو أيضا من أحفاد الإمام عبد الجبار ـ سببا كافيا لإعادة تنظيم الخزانة والاشراف عليها لحفظها مما هو أخطر، فوطد العزم على اتخاذ الاجراءات التي تمكنه من استرداد ما تلف، فأوعز إلى القاضي محمد بن إبراهيم بن عبد الجبار الجمالي الوندغيري أن يحرر له كتاب وقف على رؤوس الأشهاد من مختلف القصور الفجيجية بلغ مجموعهم ثمانية وثلاثين شاهدا، وهذا نص الرسم : «الحمد لله لما ثبت العلم معقولا ومنقولا للإمام الكبير الشيخ سيدي عبد الجبار بن أحمد بن موسى البرزوزي الفجيجي رحمه الله ونفعنا به وبعلومه مصنف تفسير القرآن في اثني عشر جزءا ومختصر حياة الحيوان، ولاولاده الثلاثة سيدي أبي إسحاق إبراهيم ناظم الأرجوزتين إحداهما في علم الدين تسمى مفيدة الولدان والأخرى في علم الصيد تسمى بروضة السلوان قل من نسج على منوالهما وسيدي أحمد القاضي وأخيهما سيدي محمد الجامع بين علم الشريعة ودرجة حقيقة الولاية وابنه سيدي أبي القاسم ناظم مختصر الشيخ

---

1) الرحلة الناصرية أبو العباس أحمد بن ناصر الدرعي ص 28.

2) أبو سالم العياشي، ماء الموائد ج 2 ص 421.

3) أحمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الناصرية ص 28 ـ 29.

4) رسالة خاصة ـ مخطوطة.

خليل بن إسحاق بأوجز لفظ وحسن اتساق وشارح روضة السلوان المنسوبة لعمه المذكور وكلامهم في ذلك يشهد بغزارة علمهم وعباراتهم فيه تشهد بحذاقتهم وجود قريحتهم وأن فهمهم الثاقب في العلم أنفذ من السهم الصائب لله درهم حسبما تشهد لهم بذلك الأئمة في كل الأقطار والعلماء بسائر الأمصار هذا وأن ما جمعه الوالد المذكور وأولاده في صدر القرن العاشر من خزانة الكتب بدار العدة المشهورة ببلاد فجيج من أجل خزائن المدن وأكبرها وليس الخبر كالعيان، حبس على من ينتفع به من الذرية وغيرهم بالنظر فيها والانتساخ منها إن كان أهلا لذلك ثم ترد بعد ذلك لمحلها معقب مؤبد ووقف صحيح مخلد لا يباع ولا يوهب ولا يورث حسبما شهد به الجم الغفير والملأ الكثير من أهل بلدة فجيج خلفا عن سلف بحيث لم يقع فيها إرث ولا قسمة بين ذرية من ذكر قسط من حيث جمعت إلى الآن، والباعث في إنشاء هذا الرسم وتأسيسه أن أحد الذرية وهو السيد محمد بن قاسو فعل فعلا خان فيه يعزر شرعا عليه بأن أخذ من الخزانة المذكورة عدة كثيرة من الكتب وباعها في ناحية المغرب فطلب منا ماسكه الفقيه الأجل السيد الحاج عبد القادر بن محمد من نجل سيدي عبد الجبار المذكور ارتسام بينة الوقف وأن نضع له ذلك في كتاب ليرتفع عنه بذلك تخالج الظنون وخطارات الارتياب، ليكون بيده حجة قاطعة ليسترد بها ما وجده من تلك الكتب ببينة قاطعة فأجبناه لما عنه سأل، واسعفناه فيما عليه عول ونقول بعد الحمد لله شهوده الموضوعة أسماؤهم إثر تاريخه ما زالوا منذ أدركوا بأسنانهم وميزوا بأذهانهم وفهموا بعقولهم يسمعون سماعا فاشيا من ألسنة العدول وغيرهم من أهل بلدة فجيج ممن لا يحصى أن خزانة كتب أولاد سيدي عبد الجبار حبس معقب لا يورث ولا يقسم و يباع ولا يوهب كما ذكر أعلاه كل ذلك في علمهم وقيدت شهادتهم مسؤولة منهم في أواسط ربيع النبوي سنة 1165 خمس وستين ومائة وألف (5).

وتحملنا الشواهد الوفيرة على الاعتراف بأن الخزانة انتعشت منذ اتخاذ تلك الاجراءات، وعاد إليها بريقها بل وأضيفت إليها ذخائر حسان، حتى نقل الشيخ أبو عبد الله التاودي بن سودة في أوائل فهرسته عن الإمام أبي العباس الهلالي أنه زارها عام 1175 هـ فمكث بها مدة من يومين لم يتصفح فيها ولا أوائل نصف كتبها (6).

ولم يمض غير ربع قرن على هذا الاشعاع والتنور، حتى أخذ الاختلال يدب في كيان الخزانة فيخضها خضا عنيفا بسرعة مذهلة، ومرد ذلك إلى ظهور شبح النهب والاختلاس من جديد، فتلاعبت بها الأيدي تلاعبا سار بها وجهة الانقراض، وأصبحنا نقلب بين أكفنا رقعا وتقاييد، وجذاذات ووثائق تشير إلى ظهور الخزانات الشخصية، وهكذا أعلنت الخزانة إفلاسها على لسان شاهد عيان ذلكم هو الرحالة أبو العباس الناصري وقد حل بها عام 1197 هـ يقول : «وزرنا في خلال هذه المدة ضريح الإمام العلامة الشريف الإدريسي سيدي عبد الجبار اقتداء بسلفنا وبالغ بنوه في ضيافتنا تقبل الله منهم، وأوقفونا على تفسيره في اثني عشر جزءا من الكبير قال في أوله أنه اختصر القرطبي فوجدناه يزيد عليه زيادة مستحسنة وفوائد مستغربة يطرزها بعبارات رقيقة ويوسمها بجواهره، وعلى نظم مختصر أبي المودة خليل لابن ابنه أبي القاسم بن محمد بن عبد الجبار وهو نظم سلس... وما رأينا عالما تصدى لمنثور أبي المودة، وكانت لهذا الإمام وبنيه من بعده خزانة كتب عظيمة احتوت على دواوين غريبة ثم تلاعب بها أيدي الحدثان ومر الدهور والازمان فتفرقت شذر مذر حتى لم يبق منها إلا الأثر (7).

وهذا الأثر اندثر عقب دخول الاستعمار الفرنسي إلى فجيج عام 1906م، بعد محاولات وجولات أبلى فيها الفجيجيون بلاء حسنا، واظهروا بسالتهم في غيرما معركة كموقعة «أسيمان» عام 1881م، فالأسر اليهودية كانت تكثر من شراء المجلدات لتهريبها عبر «بني ونيف» إلى الجزائر. والفرنسيون أنفسهم كانوا يأخذونها بحكم سطوتهم، وما

---

5) حسين بني عبد الجبار ـ خاص.

6) عبد الحي الكتاني : فهرس الفهارس ج 2 ص 263.

7) محمد بن عبد السلام بن ناصر : الرحلة الكبرى ص 67 ـ 68.

وجود بعض آثار بني عبد الجبار ببرلين إلا أبسط دليل على ذلك فقد نهبها الألمان فيما نهبوه إبان احتلالهم باريس. والموالون للاستعمار استفادوا منها أيضا، وفي هذا المضار تذكر زيارة عبد الحي الكتاني للخزانة أوائل الخمسينات وعودته بأحمال من المخطوطات، من جملتها تعليق أبي القاسم على روضة السلوان وقد رأيته بأم عيني في الخزانة العامة بالرباط وليس الخبر كالعيان.

بهذه الطريقة البشعة تم إتلاف الخزانة، بحيث لا يشاهد فيها الزائر اليوم إلا أوراقا متناثرة على الرفوف، وكل واحدة منها تنسب إلى كتاب غريب عن أخيه، مما يشهد بحق على عظمة هذه الخزانة، ومكانة فجيج العلمية في وقت سابق من الزمان.

ولا اخالني إلا غارقا في بحر لا ساحل له، إن أنا حاولت وضع بيبليوغرافيا للكتب التي لا تزال تحتضنها الخزانة، فذلك يستحيل استحالة وجود الغول والعنقاء والخل الوفي في الوقت الراهن على الأقل، نظرا للفوضى التي تسود ترتيب أوراق المجلدات الأربعين أو الخمسين الباقية، وتمزق أوراقها، وأكثر من هذا وذاك بتر أوائلها وأواخرها، وهي عوامل محسوبة على جهد الباحث الذي لا مناص له من التسلح بالصبر الجميل والإرادة الحديدية، حتى يتسنى له القيام بالاستقصاءات والتحريات والمقارنات قبل أن يقدم لنا هذه الكتب بعناوينها وأعيانها.

غير أن هذه العقبات لا تمنع أبدا من تهييء مسرد للتمثيل لا للحصر، يتوخى التنويع في الفنون اعتقادا منا أن الاستشهاد بالتنويع خير كاشف لمنزلة هذه الخزانة، وليس لي هنا أن أقوم بهذا العمل الشاق إذ له ظرف خاص إن شاء الله، وإنما اكتفي بحصر العمل في دائرته الفجيجية فأقدم أعمال الفجيجيين التي احتواها النسيان أو كاد. وقبل الشروع، أصرح أنني اتكأت في إنجاز هذا المسرد على مصدرين اثنين هما :

1) الأوراق المتناثرة في الخزانة لا سيما أوائلها وأواخرها لأنها تحمل الإشارة الكاملة إلى عنوان الكتاب واسم مؤلفه.

2) الوثائق والتقاييد التي تحت أيدينا.

وقد يفهم من هذا التصريح أن ليس هناك كتب قائمة بذاتها للفجيجيين في الخزانة، وهو عين الصواب فجلها الآن بين مفقود أو محجوز لدى أحفاد المؤلفين.

وأيا كان الأمر فإن مؤلفات بني عبد الجبار تشكل النصيب الأوفى والأوفر مما صنف بفجيج ولذا أرى من المفيد أن أبدأ باستقصائها : **الكتب :**

1 ـ **«مختصر جامع أحكام القرآن المبين لما تضمنه من السنة وآي القرآن»** للإمام عبد الجبار بن أحمد بن موسى جعله في اثني عشر سفرا، وهو الآن شتى - في روضة صاحبه ـ بعد أن كان أمس جمعيا ومتداولا لدى العلماء لأن الإشارة إليه والنقل عنه مشاهدان في كثير من الكناشات المغربية.

2 ـ **«مختصر حياة الحيوان»** له أيضا، وقفت على الصفحة الأخيرة منه في ضريحه ومما ورد فيها، «انتهى ما قصدت من اختصار حياة الحيوان بلفظه غالبا، وبمعناه تارة، وبتقديم في بعض، وتأخير في بعض. وكان الفراغ منه عشية الأربعاء في شهر شوال عام 894 هـ».

3 ـ **الفهرست :** له أيضا ويبدو أن هواتف الضياع همست في أذنها، وبعد عيان صارت خبرا على ألفاف الوثائق والتقاييد وفي إحداها نقرأ «وقد أخذ السبحة الإمام العالم الهمام الشريف الإدريسي سيدي عبد الجبار بن أحمد بن موسى الفجيجي عن شيخه الغوث سيدي إبراهيم التازي أخذها عنه في وهران أعادها الله دار إسلام سنة خمس وستين وثمانمائة قائلا له أخذتها عن شيخي فلان وهكذا إلى أن بلغ الحسن البصري، والحسن البصري كانت بدايته مع الصحابة من غير شك، انتهى من فهرست سيدي عبد الجبار المذكور التي ذكر فيها أشياخه وإجازاتهم له في سائر العلوم وغيرها رايتها بخط يده (8).

4 ـ **قواعد الإسلام :** لابنه إبراهيم وصفه على قوله عليه السلام بني الإسلام على خمس ومثل فيه هذا

8) ميارة : الدر الثمين، مخطوط بخزانة بني عبد الجبار بفجيج تحت عدد 29 وهوامشه غنية بتقاييد مفيدة ومنها هاته.

البيت المستعار في الحديث ببيت شقر له أعمدة وعماد وحبال وأوتاد على مثال لم يسبق إليه ومنهاج لم يسلك أحد قبله عليه (9) وقد نوه الوادي آشي صاحب الثبت بنظامه المتق وأسلوبه الرائع وأظهره على حظ وافر من الاتقان والاستيعاب وتلقاه منه بالقبول والانصاف بعد ما عرضه عليه إبراهيم ليعرف من ذلك ما يعرف ويزيف منه إن رأى ما يزيف (10).

5 - **إعراب القرآن** : له أيضا وهو في خمسة أجزاء بقي منها جزء واحد فقط.

6 - **شرح دلائل الخيرات** : له أيضا، أشار إليه صاحب الموسوعة المغربية (11) بيد أني لم أقف له على أثر وقد يكون هذا الشرح له وقد يكون لغيره، ولا أكتمك أن هذه الموسوعة مفتقرة إلى توثيق معلوماتها فيما يتعلق بالفجيجيين فمثلا جاء في ص 20 من معلمة الصحراء ملحق رقم 1 ما يلي :

☆ إبراهيم بن أحمد الفجيجي له قصيدة عينية في الصيد

☆ إبراهيم بن عبد الجبار الفجيجي له روضة السلوان (نظم)

وإبراهيم الأول هو نفسه إبراهيم الثاني، هذا نسبه إلى أبيه عبد الجبار وذاك إلى جده أحمد بن موسى والعينية في الصيد اسم ثان لروضة السلوان مثلما يقال سينية البحتري ولامية الشنفري زد على ذلك أنه مولع بتكرار المعلومات حرفيا وللتأكد إقرأ ما كتبه عن البدراويين في ثلاثة مواضع في الملحق رقم 1 ص 54 - الملحق رقم 2 ص 87 - والجزء الرابع ص 208.

7 - **الحاوي المنوط بالفتاوي** لأبي القاسم بن محمد بن عبد الجبار وهو كتاب ضم شتات نوازله الفقهية لكنه تنازل كإخوانه عن حقه في الوجود ما عدا نقولا مبثوثة هنا وهناك في المجاميع والوثائق.

---

9) أبو جعفر احمد بن علي البلوي الوادي آشي : ثبت ص 400.

10) المصدر نفسه ص 401.

11) عبد العزيز بن عبد الله : الموسوعة المغربية ج 2 ص 9.

8 - **التحليل وإبراء العليل في شرح خليل** : وهو مشروع تأليف لم يكتب له الظهور وهو له أيضا.

9 - **شرح اللآلي الحسان** : له أيضا، وهو مشروع آخر لشرح منظومته «اللآلي الحسان» والظاهر أنه كان أسعد حظا من سابقه إذ يسر الله عليه ابتداءه وحالت الموت دون الاستمرار فيه.

10 - **الفريد في تقييد الشريد وتوصيد الوبيد** : له أيضا ويعتبر من أهم كتبه على الاطلاق، ولقد حققه مؤخرا الأستاذ الجليل عبد الهادي التازي جازاه الله الجزاء الأوفى يوم تجد كل نفس ما عملته ذخرا.

11 - **تاج النظار في نسب الإمام عبد الجبار** لمحمد الصديق الفجيجي.

12 - **الذخيرة** لمولاي أحمد بن رحو والكتاب يبسط تاريخ الإمام سيدي عبد الجبار وأخباره كما يبدو.

13 - **شرح السنوسية الصغرى** للشيخ الفقيه الإمام العالم العلامة سيدي محمد بن بلقاسم بن نص الثوري الفجيجي قيده ببلدة فجيج عام ثمانية وأربعين وألف.

14 - **شمائل النبي** : وقد شاءت الأقدار أن أجد آخر صفحة منه بضريح الإمام عبد الجبار جاء فيها «كمل كتاب شمائل النبي ﷺ على يد عبيد ربه محمد بن محمد بن محمد بن الشيخ بن الشاذلي بن مَحمد بن حماد بن مَحمد بن عبد الجبار الفجيجي دارا ومنشأ لا أصلا وكان الفراغ منه يوم الأربعاء التاسع من شوال عام خمسة وثمانين ومائة وألف.

15 - **شرح تنبيه الأنام** : وهو كتاب ضخم لأحمد بن محمد بن عبد الرحمان بن أبي بكر السكوني الحسني نسبا الفجيجي مولدا ودارا وكان الفراغ منه آخر ربيع النبوي سنة إحدى وثمانين وألف.

16 - **شرح دلائل الخيرات** : له أيضا وقد حرص ابن ناصر الدرعي على انتساخ الكتابين معا أيام زيارته لفجيج عائدا من الحج يقول : «ووجدنا هنالك شرحي دلائل الخيرات وتنبيه الأنام للأخ سيدي أحمد بن أبي بكر الشريف السكوني الفجيجي واشتريت الكاغد

ومكنته للأخ سيدي علي بن محمد بن أحمد الراشدي ينسخه وأبى من قبض الأجرة تقبل الله منه (12).

17 - **مناقب الخلفاء** له أيضا وقد رآه الرحالة أبو سالم العياشي عند المؤلف يقول : «واطلغي سيدي أحمد بن أبي بكر على تأليف له جمع فيه مناقب الخلفاء الأربعة والله يجازيه على قصده خيرا (13).

18 - **نزول الرحمة** له أيضا.

19 - **لقط الفوائد في الرد على من اعتقد جواز بعض العقائد** لمحمد بن أحمد بن الصديق من آل عبد الجبار توفي حوالي 1295 هـ.

20 - **رسالة النقاد في الرد على ابن الرقاد** للفقيه الجليل أحمد بن أبي زيان بن يعقوب المحرزي المتوفى في الثلاثينات من القرن الرابع عشر الهجري.

21 - **رسالة التنوير في الرد على من منع وقف هذه الأبيات من أهل الشكير** له أيضا.

22 - **رسالة الجواب في الرد على أحمد الجبلي الخارج عن الصواب** له أيضا.

23 - **رسالة في السماع والرقص والتواجد والاهتزاز** للمتصوف محمد بن أحمد بن العربي بن رحو من آل بركة سيدي عبد الجبار وكان الفراغ منها في يوم الخميس من أواخر المحرم في عام اثنين وعشرين وثلاثمائة وألف هجرية.

24 - **رسالة في شرح لا إله إلا الله** لمحمد بن محمد بن عبد الجبار سماها **العقيدة** وفرغ من تأليفها ضحوة الأربعاء الخامس عشر من شعبان سنة خمس وتسعين وتسعمائة بعد الهجرة، أضف إلى ذلك الفتاوي والنوازل الفقهية وخطب الجمعة لجل أحفاد الإمام عبد الجبار لا سيما منهم أبو القاسم وأحمد بن العربي بن أبي زيان.

☆ **المنظومات :**

1 - **مغيرة اللبيب** لإبراهيم بن عبد الجبار وهي في الديانات وما يتصل بها من كل ما يحتاج إليه المبتدئ ويرجع إليه المنتهي، أبدع فيها كل الابداع وانتفع بها الخلق غاية الانتفاع (14) وبلغ بها 817 بيتا وفرغ من نظمها في الآخر من شعبان كما في قوله :

هنا انتهى القول وتم المقصد
بحول من يؤتي الهدى ويرشد
وذاك في الآخر من شعبان
سنة تسعمائة حسبانا

وعلى هذه المنظومة شرح مفيد وضعه العلامة أبو القاسم الجومي من قرى بن عباس.

2 - **منظومة في الأنساب** : له أيضا وهي في أنساب الشرفاء الوندغيريين ذرفت على مائة وستين بيتا نقل منها علي بن محمد السوسي في كتابه منتهى النقول ومشتهى العقول (15).

3 - **«نظم الآلئ الحسان»** لأبي القاسم بن محمد بن عبد الجبار نظم فيها المختصر الخليلي بأوجز لفظ وحسن اتساق في نحو 8500 بيتا وهو مسجل بالخزانة الملكية تحت رقم 1407 نسخه محمد بن إبراهيم بن عبد الجبار الجمالي الوندغيري سنة 1194 أي قبل ثلاث سنوات من وفاته رحمه الله.

4 - **الحد المطرد في ضبط مصطلح فن المعتقد** وهي منظومة طويلة من تأليفه أيضا جمعت بين المنطق والعقائد وفرغ منها عام ستة وتسعين وتسعمائة بعد الهجرة.

5 - **نظم السنوسية الصغرى والرسالة :** أيضا، أشار إليهما أحد أحفاد أخيه وهو عبد الجبار بن محمد بن محمد بن الجيلالي كان حيا سنة خمس عشرة بعد المائة والألف للهجرة.

6 - **ياقوتة اللوامع** لأبي زيان بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمان بن محمد بن عبد الجبار في فاتحة

---

12) أحمد بن ناصر الدرعي : الرحلة الناصرية ص 28.

13) أبو سالم العياشي، ماء الموائد ج 2 ص 420.

14) أبو القاسم الفجيجي - الفريد ص 48.

15) علي بن محمد السوسي : منتهى النقول ومشتهى العقول ص 169 وما بعدها.

المختصر الخليلي لم يبق منها سوى أبيات معدودات منها :

قـال بـوزيـان هـو ابن أحمـدا
نجل عـابـد الجبـار الممجـدا
الفجيجي قـاطن المعيـز
نـبـه إلى ذوي البرزوزي

7 - **منظومة في فقه الصيد** لأحمد بن أبي القاسم ضمنها كثيرا من عيون المسائل الفقهية المتعلقة بأحكام الصيد، وله منظومة أخرى في واحد وعشرين بيتا جمع فيها مورثات الفقر ومطلعها :

مـسـائـل مـورثـات للفقر
لمن يـلازم فعلهـا في الـدهر

8 - **روضة الإنس في من لا يسأل في الرمس** لأحمد بن العربي بن أبي زيان من آل عبد الجبار توفي في أواخر القرن الثالث عشر، شرح في هذا الكتاب أبياتا حول سؤال القبر يقول :» «وبعد فهذا شرح لأبياتنا التي نظمنا فيها عدد من ورد أنه لا يسأل في قبره... ومنها :

حمـدا لمن من على بعض الـورى
بعـدم الـسؤال في بطن الثرى

9 - **منظومة على صغرى السنوسي** لأحمد بن محمد بن عبد الرحمان بن أبي بكر السكوني أشار إليها ابن ناصر الدرعي في قوله : وشارح دلائل الخيرات هذا له منظومة على صغرى السنوسي» (16).

10 - **تبصرة المبتدي وتذكرة المنتهي** في طبقات الرواة وأوطانهم وهلم جرا جاء في آخرها «انتهت تبصرة المبتدي وتذكرة المنتهي والحمد لله رب العالمين على يد العبد الذليل الراجي عفور به المقر بذنبه وجرمه أحمد بن الحسن بن أبي بكر الفجيجي غفر الله له ولوالديه ولأشياخه» وفرغ منها عند الزوال يوم الاثنين السابع والعشرين من ذي الحجة سنة 1191 هـ.

11 - **منظومة في تبيين فرض العين ثم النافلة** : لأحمد بن بودي الفجيجي.

12 - **منظومة في الفرائض والسنن** : باللسان البربري للفقيه الولي الصالح سيدي امبارك بن هيبة الفجيجي رحمه الله.

13 - **منظومة في علم الفرائض** لأبي عبد الله سليمان محمد بن محمد بن أبي سماحة، وافق الفراغ منها عشية يوم الاثنين من آخر شهر الله ذي القعدة بعد صلاة العصر عام أربعة بعد الألف هجرية.

☆ **القصائد :**

1 - **«روضة السلوان»** لإبراهيم بن عبد الجبار تتألف من أربعة عشر ومائتي بيت ومطلعها :

يلومونني في الصيد والصيد جامع
لأشياء للإنسان فيها منافع

2 - **قصيدته في هجاء أهل توات وأخرى في رثاء أستاذه عبد الحق السكوني** (17).

3 - **قصيدة في رثاء الإمام عبد الجبار** لولده محمد المتوفى في رمضان من عام 956 هـ ومطلعها.

لتبك العيون الجامدات على الذي
حوى كل فضل من علوم ورفعة
لتبكي أرياح البلاد دبورها
صبا وشمال مع جنوب وقبلة

4 - **تائية سيدي عبد القادر السماحي المتوفى في يوم الجمعة الثاني من جمادى الثانية عام خمسة وعشرين وألف.** وهي من الطوال تبلغ 163 بيتا أو تنيف قليلا أراد بها معارضة تائية عبد القادر الجيلالي ومطلعها :

بدأت بحمد الله قصدا النجح ما
أروم من استفتاح نظم قصيدتي

5 - **تائية عبد الرحمان السكوني** من أهل القرن العاشر والحادي عشر هجابها أهل فيجيج في لهجة تنبعث فيها القوة القاسية والعنف وصل بها 270 بيتا

16) أحمد بن ناصر الدرعي : الرحلة الناصرية ص 28.

17) أبو القاسم الفجيجي : الفريد ص 47 - 49.

ومطلعها.

حمـــدت إلـــه الخلـق رب البريئـــة

بمـــا هــو أهـل عـاقــد الأحـديـــة

6 ـ **قصيدة** لأبي القاسم بن محمد بن عبد الجبار في هجاء عبد القادر السماحي الآنف ذكره، نسبها إليه تلميذه أحمد ابن أبي محلي وأسماها «**استمطار سحائب الرحموت من أنوار خزائن الملكوت وانتظار الفرج من الحي القيوم الذي لا يموت**» ومطلعها :

ألا نـــاصرا للــــدين ينصر نـــاصرا

لــه قـــائمـــا بـــالحـق والحـق بـــادي

لقــــد عيـــل صبري واشمأز فـــؤادي

وفـــؤادي شـــابـــا واستطـــال سهـــادي

7 ـ **قصيدة** للأديب محمد بن الحاج المعضادي في مدح مولاي عرفة بن أمير المؤمنين محمد بن أمير المؤمنين مولاي عبد الرحمان لما حل بفجيج بأمر من أخيه مولاي الحسن سنة 1301 هـ على رأس وفد للوقوف على مشاكل الحدود، وعدد أبياتها ثلاثة وثلاثون استهلها بقوله :

أيـــا معشر الحضـــار فصغـوا إلى قـولي

فقــد آن أن أقـول أهـلا لــــذي أهـل

فــلا حـــد لـلأنـوار من طلعـــة الرضى

بثغر فجيـج بـــالمهـــاجـــة والفضـل

ناهيك عن قصائد أخرى في أغراض مختلفة لا سيما في المديح الديني بحيث تطالعنا قصائد وفيرة للإمام عبد الجبار وبنيه وحفدته، وقصائد في نفس الموضوع لغير الفجيجيين تنفرد بقيمة خاصة نظرا لندرتها منها مثلا قصيدة للإمام البوصيري سقطت من ديوانه الذي حققه الأستاذ النبيه محمد سيد كيلاني ومطلعها :

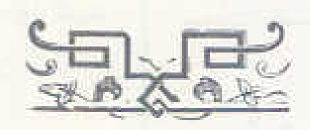
بكيت دمـــا فصــــار الــــدمـع يحكى

بـــواقيتـــا على خـــد الغــزالـــــة

وصرت مــــولهـــــا أشكــــو غرامي

إلى البــــدر المنير مـــع الغــزالـــة

وبعد فنحن إذ نقدم هذه الأمثال نرجو أن تعكس ولو جزئيا على الأقل مكانة خزانة بني عبد الجبار، ونأمل أن يكون هذا المبحث المتواضع مدعاة لبحوث أخر حول فجيج فكرا وتاريخا وأعلاما يتجرد لها نخبة من خيرة أبنائه المثقفين عساهم أن ينجزوا بحوثهم «موسوعة حفارية عن فجيج» وهو أعز مطلب يتمناه المرء، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون !



البَيتُ المُظلم

للشاعر محمّد الحلوي

فهـل لي أن أبشرهـــا بعهـــد ... جـديـد لا يشـوهـه استـلاب ؟

وهـل لي أن أرى بغـداد تحيـا ... ودعـوة من بني فـاسـا تجـاب ؟

○●○

مـودعـــة وليس لهـا إيـــاب ... وراحلـة تنـاسـاهـا الصحـاب !

أهـــذي أنت ؟ أم أضغـــات حلم ... تهـاوت من شـوامخـك القبـاب

وأجـدب روض أنسـك بعـد خصب ... ونـــاح على منـــابرك الغراب

مضت للضـاد فيـك عصور مجـد ... مضيئـــات معـــارفهـــا عبـــاب

وحـج لبيتـك المعمـور خلـق ... ظمـــاء لم تنهنهم صعـــاب

أتـــوك وكلهم شـــوق وحب ... يهـون بـــه العنـــاء والاغتراب

عهـدتـك روضـة غنـاء تشـدو ... بـلابلهـا ويمطرهـا السحـاب

وأروقـــة بهـــا للضـــاد حصن ... دعـائمـه الشريعـة والكتـاب

ومنطلـق الجهـــاد إذا تــداعى ... لـــه وطني وداهمــه مصـاب

ومنبر دعـــوة للحـق تعلـــو ... ولا يخفي أشعتهـــا حجـــاب

يضيء منـــارهـــا والليـل داج ... على دنيـا يحيـط بهـا اكتئـاب

وكنت خليـــة تغلي نشـــاطـا ... لهـا بـالـدين والعرب انتسـاب

ومنهـل كـل ظمـــآن شغـوف ... ترويـه جـداولـك العـذاب

عرفت رحـــابهـــا أســواق علم ... إلى حلقـاتهـــا يهفـو الشبـاب

وأبصرت العمـــــائم في جـــلال وتقـوى لايـــدنسهـــا اكتســـاب !

هـــداة بـــالفضـــائـل لا بعلم ورســل في إشــارتهم خطـــاب !

رضعت لبـــانهـــا والعمر غض وآمــال الشبـــاب بهـــا رحـــاب

○ ● ○

دخلت رحـــابهـــا الفيح الخوالي وطفت بهـــا وفي نفسي عتـــاب

ســـألت الكراسي الخرســـاء عمن ترنمهـــا فـــأخرسني الجـــواب

مضـوا لسبيلهم فـوجـــا ففـوجـــا وهيـــل على مـــآثرهم تراب !

ولم يسمـــع عليهـــا بعـــد دا ع إلى قيم وليس لـــه ثـــواب !

كراسي العلم فيهـــا جـــامـــدات وبغـــــداد التي ازدهرت خراب

وفردوسي التي اخضلت وهبت على الـــدنيـــا نـــائمهـــا يبـــاب

وآمـــال معلقـــة عليهـــا تراءت مثلمـــا يبـــدو السراب

○ ● ○

رآهـــا الأجنبي مثـــار شر وبيتـــا مظلمـــا خطرا يهـــاب

فكـــاد لهـــا ولم يعـــدم نصيرا وعـــاثت في مراتعهـــا الـــذئـــاب !

وعـق جهـادهـــا الغـــالي بنـوهـــا وكـــان جـزاءهـــا الأوفى العقـــاب

ومـــا أحـــد وليس عليـــه فضل لمن خضعت لهيبتهـــا الرقـــاب

وليس لمبصر في الشمس شـــك وليس لمنصف فيهـــا ارتيـــاب !

ولم أعجب لمنقلب وخيم فطبـــع الـــدهر قلبٌ وانقـــلابُ

○ ● ○

وليس لهـــا ســـوى الحسن المثنى ليبعث مجـــدهـــا فهـو المثـــاب

عسى أن تسترد على يـــدبـــه حضـورا كـــان عتمـــه الغيـــاب

فكم أســـدى لأمتـــه وأجـــدى ومـــا وهنت عـزائمـــه الصلاب

سجـــايـــا من ملـوك بني علي إذا مست أصـــالتنـــا غضـــاب !

فهـــل لي أن أبشرهـــا بعهـــد جـــديـــد لايشـوهـــه استـلاب ؟

وهـــل لي أن أرى بغـــداد تحيـــا ودعـوة من بنى فـــاســـا تجـــاب ؟

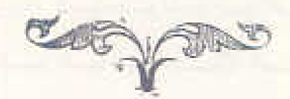
○ ● ○

فيـــانهرا أجيـــل إلى ســـواقي بغيرك لن يـدوم لهـــا انسيـــاب !

ويـــا أيـــامنـــا الغراء فيهـــا وريـــاهـــا ربيـع مستطـــاب

سهرنـــا ليلهـــا في ضـوء شمـع ... ومصبـــاح وأفكـــار تـــذاب
نعـاني من معــالجــة المعـاني ... ونسعـــد حين ينبلـــج الصــواب
ذكرتـــك والليـــالي مسرعـات ... ولـلأشـواق والـــذكرى التهـــاب
وظـل العمر يـــدبر في انتقــاص ... وشعري في قـــوافيـــه انتحـــاب
وليس لشـــاعر غير القـــوافي ... ضيـــاء حين يكتنفـــه الضبـــاب
ويـــا أمـــاه لـو ترجمت حبي ... بغير الشعر مـــاوفى خطـــاب
ففيـــك كتبت أبيـــاتي العـــذارى ... وعنـك رويت فـامتـلأ الـوطـاب
وفيـــك عبـــدت ربي في قنـوت ... وفتـح لي إلى الإيمـــان بـــاب !
إذا افتخرت بمـــا أعطتـــه فـــاس ... فـإنـــك في جـواهرهـــا اللبـــاب !
على أيـــامـــك الـــزهر الغـوالي ... سـلام اللـــه مـــا تلي الكتـــاب

محمد الحلوي



☆ الوصف الذي أعطاه ليوتي لجامعة القرويين شعورا منه وادراكا لرسالتها وخطرها على وجوده البغيض.

تحيّة إكبار وتقدير

للشاعر عبد الكريم التواتي

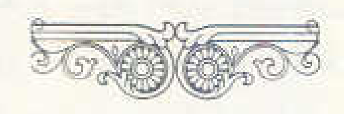
إلى (أبو ظبي) وشعب الإمارات.. وأميرها سمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، بمناسبة زيارتي لأبوظبي لإلقاء محاضرات رمضانية..

يا«أبو ظبي» طال شوقي وما بي   غير شوقي لأهلك الأحباب
يا«أبو ظبي» واسمك الحلو رمز   لجمال الأعراق والاحساب
نبل الأصل والفروع، وأرض   قد حبا الله شيبها بالشباب
وسما النبل في بنيك، فعمدت رياضا لطاهرات الثياب
فشد الكون من جمالك واهتز انتشاء من حسنك الخلاب
يتملى بنيك تزهو بهم أرضك أقمارا كاللجين المذاب
وزها الحسن، واستطيب، فأسموك (أبو ظبي) ياحمي الأطياب
إن تكن للظبا، أباها فأشبالك أسد حديدة الانياب
ومغانيك للأباة عرين   شامخ الصرح راسي الأعتاب
تتباهى بها الإمارات عجبا   واختيالا رفيعة الأطناب
يا«أبو ظبي» والظباء نساحامتك، تغري بسحرك المستطاب
فيك قد شام رائدو المجد مجدا   هو أسمى من قالة الكتاب
ورأى فيك معتفو الخصب خصبا   هو أبدى من طيبات السحاب
فتنادوا إلى جناك ـ أساراه ـ قرووا بأعذب الأنخاب
وسقوا من معين فضل أهاليك دهاق الأقداح والأكواب
يا«أبو ظبي» ما مغانيك إلا   روضة ثجت من زلال الرضاب
«آل نهيان» روقوها بعز   أثلته شوامخ الأنساب

قد حمو - في إبا - حماها وأجواها وشطآن بحرها الصخاب
فإذا الصحرا، في رخاء ونعمى تتهادى مخضلة الأعشاب
وإذا البحر بالـلآلئ والمرجان يسخو في مده والأياب
وإذا الأرض غيدق، والرعايا في رخاء، والأمن ضافي الجناب
وإذا العيش وارف الظل مخضل الحواشي ميسر الأسباب
وإذا الشعب وحدة في تآخ و«أبو ظبي» رافل الأثواب
«آل نهيان» يشهد المغرب الأقصى بما أوجبوا من الإعجاب
هم غطاريف يعرب، وبهاليل الإمارات، سادة الأعراب
وهم - الدهر - في صمود وإيمان، يغولون عاصف الأحقاب
ويشيدون للمحامد صرحا وحضارات شامخات القباب
وبنى المجد يرفعون اعتزازا ويرومون سامقات الشهاب
قد تألوا أن يرتقوا - متحدين الرزايا - مراقي الأقطاب
وقضى الله أن يحقق ما راموا وما أملوا من الآراب
فأقاموا للعلم أسمى صروح ولدين الهدى اجل قباب
وعلى العدل أسسوا شامخ الملك وصانوا بناه من كل عاب
سر شمالا أو سر جنوبا، وشرقا أو غربا تجد عجاب الرغاب
أين يممت أبهرتك مشاريع نماء مغدودن الأهداب
في شموخ قد طاول الدهر عزما يتحدى شموخ موج العباب
يا إمارات، والعروبة دين وذمام : القدس أسوان كابي
وفلسطين - يا إمارات - ضجت من خزايا صهيون أم الذئاب
نجست قدسا الشريف وعالت كل طهر في خسة واغتصاب
ريع فيه التقاة، واغتصب الحق، وديست محارم الأنساب
والمحارب والمنابر ضجت وشكت صخرة الحمى وامصابي !
ما لأقداسنا الحرام سوى العرب يفدون أهلها والروابي
وبنونا هناك - ياقوم - أسرى عصبة الشر من يهود كلاب
هم عصابات للمساوئ عاشت لا ترى شيئا غير بث الخراب

أفــلا عــزمـــــة تقيم المـــوازين وتجتث كـــل نـــــذل مرابي ؟
وأبــو ظبي والإمـــارات عـــزم ومضـــاء يهــد كـــل مصـــاب
وأرى المعرب المعبـــأ شعبـــا يتحدى ـ والله ـ كـل الصعـــاب
ارغم الـــدهر أن يسير لمـــا شـــاء، فلبى، ونـــاء منـــا بصـــاب
و«المثنى» و«آل نهيـــان» صنـوان، وشعبـــا همـــا متحـــدي العبـــاب
أبـــدا يعشقـــان شم المعـــالي وهمـــا للعـــد الرسـوم العـــذاب
أقسمـــا أن يصليـــا بفلسطين احتســـابـــا ورغبـــة في الثـواب
بررني مـــا أقسمـــا، سنصلي ويحيـق اليهـود سـوء العقـــاب
يـــا إمـــارات أنت للعرب تـــاج والإمـــارات مـوكب الأنجـــاب
والإمـــارات للعروبـــة مـــال، وللشرق منتـــدى الأحبـــاب
وهي للـــدين، دين طـــه مجن يتحـــدى مكـــائـــد الأغراب
يـا أبو ظبي، مـا شهدتك حتى ثملت روحي واطرحت اغترابي
وتنسمت فيـــك أرضي وأهلي وتمثلت في بنيـــك صحـــابي
نبـل أبنـائـك الكرام تحـايـا أمـــة برة وشعب حبـــاب
وأنـــا يـــا أبـــا الظبـــاي تحيـــا المغرب الأقصى للحمى المستطـــاب
وتحيـــات المجتبى الحسن الثـــاني لأقبـــال شعبـــك الـوثـــاب
سـوف تبقى مـــدى الـزمـــان لشعب العرب مهـواه يـــا أعـز مـــآب

فاس **عبد الكريم التواتي**



صَوْتُ الحَقّ

للشاعر شهاب جنبكلي

لقد كان للاعتداء الآثم الذي تعرضت له المخيمات الفلسطينيــة في لبنــان، والمـؤامرة الكبرى التي يتعرض لها الشعب العربي الفلسطيني أثره البالغ في نفس مولانا وقائدنا الملك، الحسن الثاني عاهل المملكة المغربية، فدعا إلى عقد مؤتمر قمة عربي استثنائي، وأصر على أن ينعقد في ضيافته بالدار البيضاء، بوصفه رئيسا للدورة الحالية، ورئيسا للجنة القدس ـ حفظه الله ونصره. فقلت :

نفرت لمــــــا رأيت الخلف بينهم ... وعـذت بـالـلـه إشفـاقـا وتنـديـدا

أوفيت عهـدا، وصنت العرب من زلـل ... فيمـا تعـاني من الإجهـاد مكـدودا

جمعت ضـــائعهم، والروح مسهـــدة ... والقلب يـأبى على الأرحـام تجريـدا

أنقــذت عــائلهم من كـل مظلمـــة ... فكنت فيهم أبـــا الآبـــاء معـــدودا

يـــامن حملت همـوم العرب عن سلف ... أنصفت من جـــائر الأيـــام مهـــدودا

كففت عنهم دمـوعـا طـالـمـا هطلت ... على الضيــاع شرودا كــان زعـديـدا

دعــوت قـــادتهم يـومـــا بنـــازلـــة ... حتى يعـود الجفـا صفـوا وتجـديـدا

لبيت صرخـــــة من يفنى لأمتـــــه ... ويحمـل الجرح مـذمـومـا ومنكـودا

وأجهرت صوتـا، فلبى الصوت سـامعه ... من كـل صـوب، فصـار القـول معقـودا

دانت لـك النفس، إذ ترجـو بـك أملا ... أن تـزرع الحب مشكـورا ومحمـودا

+++÷+++

مـــا أسعـــد الشعب، والأفراح تغمره ومغرب العـاهـل يشـدو تغـاريـــدا

هـو العروبــة إن بـــاتت على محن هـو السـلامـة إن صـار الوفـا جودا

ليحفـظ اللـه مـولانــا. فــإن لــه قلبـا يـذود عن الإسـلام تهـديـدا

مـا أحوج العرب والإسلام من صلف أن يقتفـوا ظلـة عـزمـا وتـوطيـدا

مـا كـان إلا بـدرب الحـق تشغلـه عرب الفخـار إذا نـادت... صناديـدا

كم كـان يحمي ديار الأهـل من بدد كم كـان يرقى على الهـامـات مـعودا

يصعـد السلم مفتـونـا بسـاحتـه ويقهر الظلم منصـــورا ومعهـــودا

إذا المروءة قـــد ضلت مرابعهـــا ضـاعت بظـل لـه سعيـا وتمجيـدا

أوفى الحبيب لـدين اللـه معلمـة تنفي شقـاقـا، على قـدر، وتشريـدا

ترونـــه عمرا في نجـــدة سلفت ترونــه في إصرار[1] ينجـد البيـــدا

ويحمـل الهم مكـدودا إذا استعرت بين الأحبــة نـــار تفتن الصيـــدا

خير البـلاد بـلاد بـات يرأسهـــا واللـــه يحفظـــه للعرب مقصـودا

الدار البيضاء شهاب جنبكلي

1) صرار : موقع قرب المدينة المنورة تجمعت فيه جيوش المسلمين التي أرسلها عمر بن الخطاب لقتال الفرس.

خشية الله

للشاعر محمد بن محمد العلمي

ماذا أقول لربي حين ألقاه ؟! ... فبالجوارح والوجدان أخشاه !

قصرت في واجباتي نحوه ! أفلا ... أتوب من غفلتي ؟! أواه ! أواه !

فرجفتي وحيائي منه عندهما ... ناديت من مهجتي : رباه ! رباه !

أشكو من الذنب، من وغشاء ظلمته، ... وأستغيث، فيجلو همي الله !

تلك الأمانة فيها الأمن منسجم ... حسا ومعنى لمن تصفو نواياه

إني الفقير إلى ربي ورحمته ! ... فالأنس واللطف عنوان لنجواه

أرجو القبول، فإن العبد ذو طمع ... عند الملمات، في إقبال مولاه

وفي المعية تحيا النفس راحتها، ... وتستطيب من المحبوب لقياه !

وفي التضرع للرحمان يشملنا ... لطف خفي لقد جلت مزاياه

سبحان من أبدع الاكوان أجمعها، ... فالجهر والسر منها ليس يخفاه

إذا دعاه لكشف الضر ملتجئ ... إليه، فهو بغوث منه لباه !

الواجد الماجد الوهاب ذو كرم، ... فكم أفاض علينا من عطاياه !

وتلك أسماؤه الحسنى لقد شهدت ... بأنه وحده الأدرى بمعناه !

الجوهر الفرد، وتر في تصرفه، ... ذاتا وفعلا، قصدناه أطعناه !

فهو الجليل، الجميل، البر، من ظهرت ... عند السجود له، آيات نعماه !

عين الكمال، لقد أحيا بسيدنا ... محمد أنفسا تسمو لعلياه !

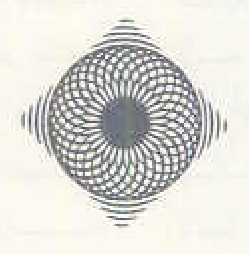
ترتاح في جنة القرآن أفئدة، ... من أجمع الكون، أقصاه وأدناه.

ونحن عند كلام الله في سعة، ورحمة،.. حبذا في الأنس مغناه !
وبابه الواسع المفتوح نقصده فلا يخيبنا.. حاشاه ! حاشاه !
المقسط، الجامع، الحنان، ألف ما بين القلوب التي تهفو لزلفاه
الباسط، المحسن، الهادي، الودود لقد هدى الضمير بنور منه يرضاه
فهو الشذى لطيوب العشق أجمعه، تفوح في أعمق الوجدان رياه !
منه البصائر والأبصار تدرك ما فوق الظنون، فما للوتر أشباه !
تزيد من نعمة التوحيد وحدتنا في نوره... أي شيء قام لولاه ؟!
فالله دبر واختار المصير، فما للمرء من حيلة فيما تمناه !
حق، وكيل، ولي، لا يعادله في حكمه أحد مهما تحداه !

□ ● □

يا ساتر العيب إني جئت معتذرا، والقلب يبكي، ويدعو : حسبي الله !
يا عالم الغيب، حالي غير خافية عليك، يا سابغ الإحسان، يا (هو) !
فأنت تمحو الخطايا، لا تؤاخذنا، تفضلا... فيك يلقى العبد بشراه !

الرباط **محمد بن محمد العلمي**





تأليف: الأستاذة نجاة المريني

عرض: مصطفى الشليح

لقد اشتهر أمر عبد العزيز الفشتالي كمؤرخ للدولة السعدية من خلال كتابه «مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا»، وكرئيس لديوان الإنشاء بقصر الخليفة أبي العباس أحمد المنصور السعدي (956 ـ 1012 هـ) في مراسلاته السياسية للعثمانيين وللأفارقة، وكشاعر القصر من خلال قصائده المدحية المتعددة. غير أنه لم يحظ بما يستحقه من العناية كشاعر مبرز في عصره بجمع أشعاره وتدوينها لصونها من الضياع والاندثار. وقد اشار العلامة عبد الله كَنون إلى ذلك لما أورد في المشاهير (1 / 26) «لم نعلم أنه جمع ديوانه، ولا أن أحدا جمعه من بعده»، وأكده الدكتور محمد حجي في الحركة الفكرية (2 / 400) عند قوله «ولم تجمع للأسف أشعار عبد العزيز الفشتالي ورسائله في ديوان رغم كثرتها وجودتها».

من هنا، انصرف اهتمام الأستاذة المؤلفة إلى التعريف بهاته الشخصية الأدبية اللامعة في عصر نشطت فيه العلوم بكل ضروبها وألوانها، وسعت إلى تقديم هاته الشخصية بصنع ديوان شعر لها استغرقت مرحلة جمعه وقتا طويلا تتبعت أثناءها أشعار الفشتالي في المصادر المختلفة المخطوطة والمطبوعة (كما يتبين من ثبت الدراسة) وفي الكنانيش والمجاميع المتنوعة وغير ذلك في الخزانات العامة والخاصة في الرباط وفاس وسلا وتطوان.

أما مصادر شعر الفشتالي التي اعتمدتها المؤلفة في

صنع الديوان فهي كالآتي :

1) مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا : للفشتالي.

2) مختصر الجزء الثاني من مناهل الصفا، وقد حققه العلامة عبد الله كَنون، وطبعه سنة 1964.

3) الجزء الثاني من مناهل الصفا بتحقيق الدكتور عبد الكريم كريم سنة 1972، ومخطوط الخزانة الملكية تحت رقم 274.

4) روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من شعراء الحضرتين مراكش وفاس لأبي العباس أحمد المقري (986 ـ 1041 هـ).

5) المنتقى المقصور على مآثر الخليفة أبي العباس أحمد المنصور لأبي العباس أحمد بن القاضي (960 ـ 1025 هـ) بنسختيه الأولى من مخطوطات الخزانة الملكية تحت رقم 11.951 ز، والثانية بالخزانة العامة تحت رقم 1059 ج.

6) كناشة الزجالي (ـــ 1072 هـ)، وهي عبارة عن ميكروفيلم محفوظ بقسم الوثائق والمخطوطات بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 417 ر.

7) نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي لمحمد بن الصغير اليفرني (1080 ـ 1151 هـ) ـ هناك اختلاف بين الدارسين حول سنة الوفاة.

8) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى لأبي العباس أحمد الناصري (1253 ـ 1315 هـ).

9) النبوغ المغربي في الأدب العربي لعبد الله كَنون.

وقد تلخصت خطوات هذا العمل العام في المراحل الآتية :

1) خطوة جمع الوثائق المتعلقة بالشاعر في عصره أو في غيره من العصور.

2) تخريج النصوص وتحقيقها.

3) دراستها دراسة وصفية تحليلية.

لقد قسمت الباحثة مؤلفها إلى قسمين : خصصت أولهما للدراسة، وثانيهما جعلته ديوانا للشاعر.

فأما الدراسة فتضم بابين وثلاثة فصول :

الفصل الأول : وخصصته للحديث عن ظروف العصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية مركزة الحديث على شخصية الخليفة أحمد المنصور، ومشيرة إلى بعض الأعلام العلمية والأدبية كالشيخ أحمد المنجور وأحمد المقري وأحمد بن القاضي.

الفصل الثاني : وهو حديث عن حياة الشاعر عبد العزيز الفشتالي، وعن آثاره الأدبية، ونسبه ولقبه وأساتذته وشخصيته.

الفصل الثالث : ويتكون من المباحث الآتية :

1) مبحث محورته المؤلفة حول موضوعات شعر الفشتالي كالمديح السياسي مثل ما مدح به المنصور بمناسبة انتصار ولي العهد الأمير الشيخ المامون على ابن عمه الثائر الأمير الناصر سنة 1004 :

الفتح من حركات أحمد واجب ... كل العوامل في العدى له طالب

يعنو إلى المنون من أسيافه ... قلب المعاند، وهو قلب واجب

أتروم أحزاب الضلال سفاهة ... غلبا لحزب الله وهو الغالب

(الديوان 196)

ومثل اعتباره الخليفة أمل المسلمين :

قضى الله في علياك أن تملك الدنى ... وتفتحها ما بين سوس وسودان

وإنك تطوي الأرض غير مدافع ... فمن أرض سودان إلى أرض بغداد

وتملأها عدلا يرف لواؤه ... على الحرمين أو على رأس غمدان

فكم هنأت أرض العراق بك العلا ... وزفت بك البشرى لأرض عمان

(الديوان 384)

ويتمثل الموضوع الثاني في المدائح النبوية، وكثيرا ما يستهلها بذكر شوقه إلى زيارة الأراضي المقدسة ليخلص إلى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام وذكر فضائله ومناقبه ومعجزاته كما في قوله :

ومصطفى الرحمن من رسله ... من هاشم البطحاء أزكى فريق

ومن رأى مـــــا لا رأى مرســـــل

وقيـل : سـل تعـط فـأنت الصـديـق

ذو المعجـــزات، المعجــــزات التي

منهـــا ذهــــاب السقم من نفث ريـق

والجــذع قــد حن اشتيـــاقـــا لــــه

فنـــال من قصــــده أوفى الحقــوق

والــدوح قـد شقت ثراهـــا ومـــا

تقـــاعست وهي سراع سبــــوق

(الديوان 296)

ويبدو الموضوع الثالث في الوصفيات، ومن بينها وصف قصر البديع وآثاره العمرانية نحو قوله :

معــــاني الحسن تظهر في المغـــاني

ظهـور السحر في حـــدق الحســـان

مشـــابـــه في صفـــات الحسن أضحت

تمن بهـــــا المغــــاني للغـــواني

بكـــل عمـــود صبـــح من لجين

تكـون في استقــامـــة خـوط بـــان

مفصلــــة القــــدود مثلثــــات

مـــواصلـــة العنـــاق من التـــداني

(الديوان 392)

وإذا كان الغزل لا يتجلى بقوة في الديوان لكون الباحثة لم تحصل إلا على مقطعات متفرقة نظرا لضياعها، رغم أن كل القرائن تشير إلى أن للشاعر قصائد مستقلة في هذا المنحى بشهادة المقري في روضة الآس (ص 163) الذي يقول (ولقد أسقطت كثيرا من مقطعات الكاتب المذكور في الغزل وغيره بعد أن عزمت على ذكرها، ثم تركتها خوف الإطالة)، فإن النماذج التي عُرضت في الديوان تبين عن اتباعية الغزل عند الفشتالي ونحوه على منوال الأقدمين من حيث عتاب المحبوب، والحديث عن جفاه وقطيعته مثل :

قطعت فـؤادي عن سـوي مقـــالتي

فتـــانـة هي في القطيعـة ظـــالمـه

لاطفتهــا تــدع القطـــام فـــأقمت

إني وحقـــك مـــا حييت لفـــاطمـــه

(الديوان 343)

ولم يختص الموضوع الخامس إلا بمرثية واحدة منقوشة على قبر الخليفة المهدي بالله ولد المنصور، يقول فيها :

حي ضَريحـــا تغمـــدتـــــه رحمـــات

وظللت لحــــده منهـــا غمــــامـــات

واستنشقي نفحــة التقــديس منــه فقـد

هبت من الخلــد لي منهـــا نسيمــات

لحـد بــه كـورت شمس الهـدى فكست

من أجلهـــا السبعـــة الأرضيـــة ظلمـــات

(الديوان 204)

2 ـ أ) وهو مبحث عمدت فيه الباحثة إلى تحليل الصورة الشعرية عند الفشتالي، وتحديد فنية تعبيرها، وحصر لإطار قصائدها.

وترى الكاتبة أن الفشتالي اهتم بالصورة الشعرية الجاهلية المبنية على التشابيه القوية، والحضور الدائم للطبيعة البدوية بأماكنها ـ رغم النؤى والبعد ـ، مثل قوله :

هــــــزبر إذا زار البــــــلاد زئيره

تضـــاءل في أخيـــاسهـــا أســد خفـــان

(الديوان 375)

وقوله :

أسـد هـديت الشـدق مرهـوب الشهـــا

شثر البراثن دامي الأظفـــــــــــــار

(الديوان 252)

وقوله :

تحملن من آلام وجـــــــــــدة للحمى

بـــدورا لهـــــا بيض القبـــاب بروج

إذا زمهـــا نحـو الحجـاز حـــداتهـــا

اغــــار بهن الشـوق وهـــو لعـــوج

هـــواهن مـــــا بين الحجـــون مخيم

وبين أثيـــــلات العقيـــــــق دروج

تـلين عن كـــل البقـــــاع فلن ترى

على غير اكنــــاف البقيـــع تعــوج

ركـــائب آلـــة أن تهــدم أو يرى

لهـــــا بين هضب الأخشبين ولــــوج

(الديوان 207)

وترى أيضا - أن الشاعر يميل إلى التشخيص، (وإلى زرع الحياة في الجمادات، وإخضاعها لقانون الحياة فتنطق وتعبر عن مشاعرها وانفعالاتها، وتزهو بجمالها وسحرها) - الدراسة ص 132 - كقوله على لسان القبة الخمسينية بقصر البديع :

سموت فخر البــــدر دوني وانحـــط
وأصبـح قرص الشمس في أذني قرطــا

وصغت من الإكليل تــاجــا لمفرقي
ونيطت بي الجـوزاء في عنقي سمطــا

ولاحت بـاطـواقي الثريـا كـأنهـا
تثير جمـان قــد تتبعتـه لقطــا

(الديوان 260)

ب) وركزت الدراسة في تحديد فنية التعبير عند الشاعر على استعراض بعض الألوان البلاغية كالتشبيه والاستعارة والطباق وغيره من المحسنات البديعية، والإبانة عن الاقتباس والتضمين - أو ما يسمى في النقد الحديث بالنص الغائب أو البعد المعرفي - فوضحت أثر الثقافة الدينية في شعره، مثل قوله :

يـا من دنـا فتـدلى للعلا صعـدا
كقـاب قـوسين أو أدنى لادراك

(الديوان 306)

وقوله :

يـا خير من قـد أسرى ومن قـد دنـا
كقـاب قـوسين دنـوا حقيـق

(الديوان 290)

ومعنى البيتين مأخوذ من قوله تعالى في الآية الثامنة من سورة النجم (ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى).

ومثل إشاراته إلى معجزات الرسول ﷺ كما ورد في كتب السيرة. ولا يخفى - على قارئ الديوان - أن البعد المعرفي عند الشاعر لا يقتصر على هذين المعطيين، بل يمتد ليشمل مناحي أخرى متصلة بالمعلومات التاريخية والجغرافية وغيرها.

ج) وفي أسلوب الخطاب، وضحت الكاتبة تنوع الضمائر عند الشاعر، وانتقاله من ضمير لآخر، واعتبرت ذلك مأخذا يحاسب عليه الفشتالي (الدراسة ص 139) - لكون التلاعب بالضمير يطبع القصيدة بطابع خاص يختلف عما اعتاده الشعراء في خطاب الممدوح (!) أو يقصد به غاية بلاغية هي الالتفات، (الدراسة ص140).

5 - أما ظاهرة التكرار في شعر الفشتالي فنوقشت على مستويين :

أولهما يقضي بنقل (الصورة دون أساليبها وصيغها - الدراسة 140).

وثانيهما (ينقل الفكرة بأساليبها مكررة في كثير من الأبيات في قصائد مختلفة مثل :

1 : ومصطفى الرحمن من رسلـــه
من هـاشم البطحـاء أزكى فريـق

(الديوان 298)

2 : ومصطفى الرحمن من أرسـالـه
وإمـامهم في الجمـع والإفراد

(الديوان 223)

ومثل :

1 : يصلى بنـار الشـوق من أضلـع
قـد حملت أعبـاء مـا لا تطيـق

(الديوان 284)

2 : أورى ضرام الشـوق في أضلعي
سقطـا، ومـا كنت لـه بـالمطيق

(الديوان 296)

وتطرح الأستاذة المريني - عقب ذلك التساؤلات الآتية :

- إلى أي شيء كـان يرمي الشـاعر من وراء هـذا التكرار ؟
ألى تقرير المعاني ؟ أم إلى تأكيدها ؟ أم إلى التذكير بها ؟

وتقدم جوابا عنها إلى أنها قد تكون الأسباب مجتمعة... وقد يكون الأمر غير ذلك - الدراسة 141 -

د - وبخصوص إطار القصيدة ترى المؤلفة أن الشاعر كان وفيا للشكل التقليدي مع التركيز على بحور معينة كالطويل والكامل والبسيط... كما أنه نظم موشحات.

ومن حيث القافية فقد كان يؤثر القافية المطلقة،

ويعتمد حروف الروي الكثيرة الشيوع في الشعر العربي.

3) وهو آخر مبحث أبرزت فيه مكانة الشاعر الفشتالي بين معاصريه كالشاعر الهوزالي وأبي عبد الله محمد الفشتالي، وبين من تأثر بهم كالشاعر ابن الخطيب.

أما الباب الثاني فقد خصص لصنع الديوان وروعي فيه الترتيب المعجمي، وضبط الأبيات، وشرح الغامض من لغتها ومعانيها، وإشاراتها الدينية والتاريخية والسياسية.

وتوخت الدراسة هامشين :

1 ـ هامش التحقيق

2 ـ هامش الشرح والتعليق

وجعلت للديوان فهارس ثلاثة

1) فهرس لقوافي القصائد حسب حروف المعجم

2) فهرس للقصائد حسب الأغراض الشعرية

3) فهرس للقصائد حسب البحور الشعرية

أما الفهارس العامة فهي مرتبة على النحو الآتي :

1) فهرس الآيات القرآنية.

2) فهرس الأحاديث النبوية

3) فهرس الأمثال.

4) فهرس الأشعار المتضمنة.

5) فهرس المصادر والمراجع.

6) فهرس عام لمحتويات الدراسة.

وبعد.. هذا عرض لدراسة قيمة أنجزتها الأستاذة نجاة المريني حول عبد العزيز الفشتالي شاعرا، وهي دراسة يكفيها جدارة واستحقاقا جمع متناثر من شعر الشاعر وصنع ديوان له، وقد بذلت الدارسة فيها جهدا ملحوظا لن يحس به إلا الخائضون في عباب الأدب المغربي، وإلا العارفون بالمصاعب التي تكتنف المسار، وإلا الذين خبروا الميدان واستخبروه، ومن لم يعرف ذلك فلن يحسه، وأخيرا فإننا نهنئ الكاتبة على هذه الدراسة الجيدة، ونتمنى أن تعرف طريقها للمطبعة في القريب العاجل حتى يستفيد منها الدارسون، ولاسيما المتخصصون منهم في الأدب السعدي.

كما لا يفوتنا أن نسجل أن وراء هذا العمل وجها سمحا وكريما، وهو وجه الدكتور عباس الجراري الذي يقصر اللسان والقلم عن إيفائه حقه من الشكر والتبجيل.. لاسيما وقد كان مشرفا على رسالتين نوقشتا بعد رسالة الأستاذة المريني، وهما شعر المختار السوسي لمحمد خليل، والشعر الدلائي لعبد الجواد السقاط.



هَا أنتمُ بالعُيونِ

للشاعر عبد القادر سرسوري

مليكي !، هفا القلب والشوق هبا — يغرد ولهان شرقا وغربا
يغرد والطير تهديه لحنا — أفاق القصيد وسواه عذبا
قصيدا تحلى ولاء وطيبا — وفاضت حشاه لطيما وحبا؛
فحين عزمتم على وصل أهل — بصحراء أضحى بها الرمل أبا،
بصحراء صاحت وعادت لوطن — نداء الأمومة أبدى فلبى
بصحراً بنوها سعوا بالولاء — شيوخا وولدا، نساء وركبا،
علا نبضات الفؤاد دعاء — يفيض على أعين الشعب صبا
إلى أن بدت بالعلى حائمات — كدر يزين القلائد شهبا[1]

فها أنتم بالعيون ترون العيون ارتدت من حنانك قصبا،

وها أنتم بالعيون تحيو — ن أهلا، تمدون حبا وقضبا،
وها هم يبثون جيلا فجيلا — ولاء سرى في الدماء وشبا
وها هم يردون كيدا لنحر — ـ فما أرغد العيش إن صار رحبا !! ـ

فذي «أنزران» علا صيتها بالبطولات، والذل تمحو وتأبى !،
وذي «كَلتة» قد روت من بسالة أبطالنا الشم ما زان قلبا !،

وذي صولة بددت شمل جمع، — جنى ما رأى وارتدى الخزي ثوبا،
فخاطبتموه مرارا أن ارجع — إلى الأم تنعم رواء وحبا !
أن ارجع إلى الحضن فالحضن رحب؛ — فأي ترى ليس يهديك صوبا؟؟؟!!!؛

---

1) الضمير في «بدت» يعود على «نبضات» في البيت الأسبق.

وهـــا أنتم قـــد بررتم بـوعـــد أحـــاط الـذي تـاب واختـار أوبـا،

وهـــا عفـوك السمـح معـل إخـــاء سيبقى ضيـــــاء وذخرا ولبـــــا،

سيمحي عـــــداء ويضفي جـــلالا ويحمي ديـــارا بعطف وشعبـــا،

ويحيى مـواتـــا وينثي خطـوبـــا إلى أن يرى الصلب بـالـدهر رطبـا

وهـــا هـو عـــدو يموج بغيـــظ سيسبى إذا ود غـــزوا ونهيـــا،

سيروى كـؤوســا عـلاهـــا فــداء فيلـوي كسيرا جنـــاحـــا وقلبـــا،

متى يبتـدرنـا يجـدنـــا صفـوفـــا إلى الحـزب شـدت ركـابـا وشهبـا

يجـــدنـــا وراء مليـــك أبى الضيم واختـــار بعـــد القضـــا السلم دربـــا[2]

مليـــك تحلى ذكـــاء فــأبـــدى إلى الخلـق مـا ليس ظلمـا وحربـا

هـــداهم سـلامـــا كتـــاب الهـدى رمـزه فـاكتـوى الغـاصبـون رعبـا !!،

فمـــالـوا إلى السلم كرهـــا، وكيف يقولون : لا، والـولا كـان صلبـا ؟؟!!

وكيف يقـولـــون : لا، والأهـــالي ببيعتهم رصعـوا الجبـل حبـــا ؟!!

فهـاهم طـووا مـا طـووا من ربـوع وحطـوا الرحـال ليهـدوك صوبـا !،

وهـــا نشـوة العيـــد تعلـو ديـــارا فتشـدو المـآقي، وترقص صحبـا !؛[3]

بعيـــدك مـــولاي فـــأنعم تغنت وأبقـــــــاك ربي، وعمرك أربى؛

فعيـــدك عيـــد بمجـــد تحلى وذخر لمن قـــد رأى العـــز دربـــا...

فيـــاحسن ! يـــا مليكي فـــداك المـلايين : من شب، من صـــار شيبـــا،

فـــدم في نعيم رعـــاك الإلـــه وشبـــــلا على حب وطن تربى،

وأســـدل شـــآبيبـــك الصب ربي على والـــد قلمـــا قـــال : ربـــا

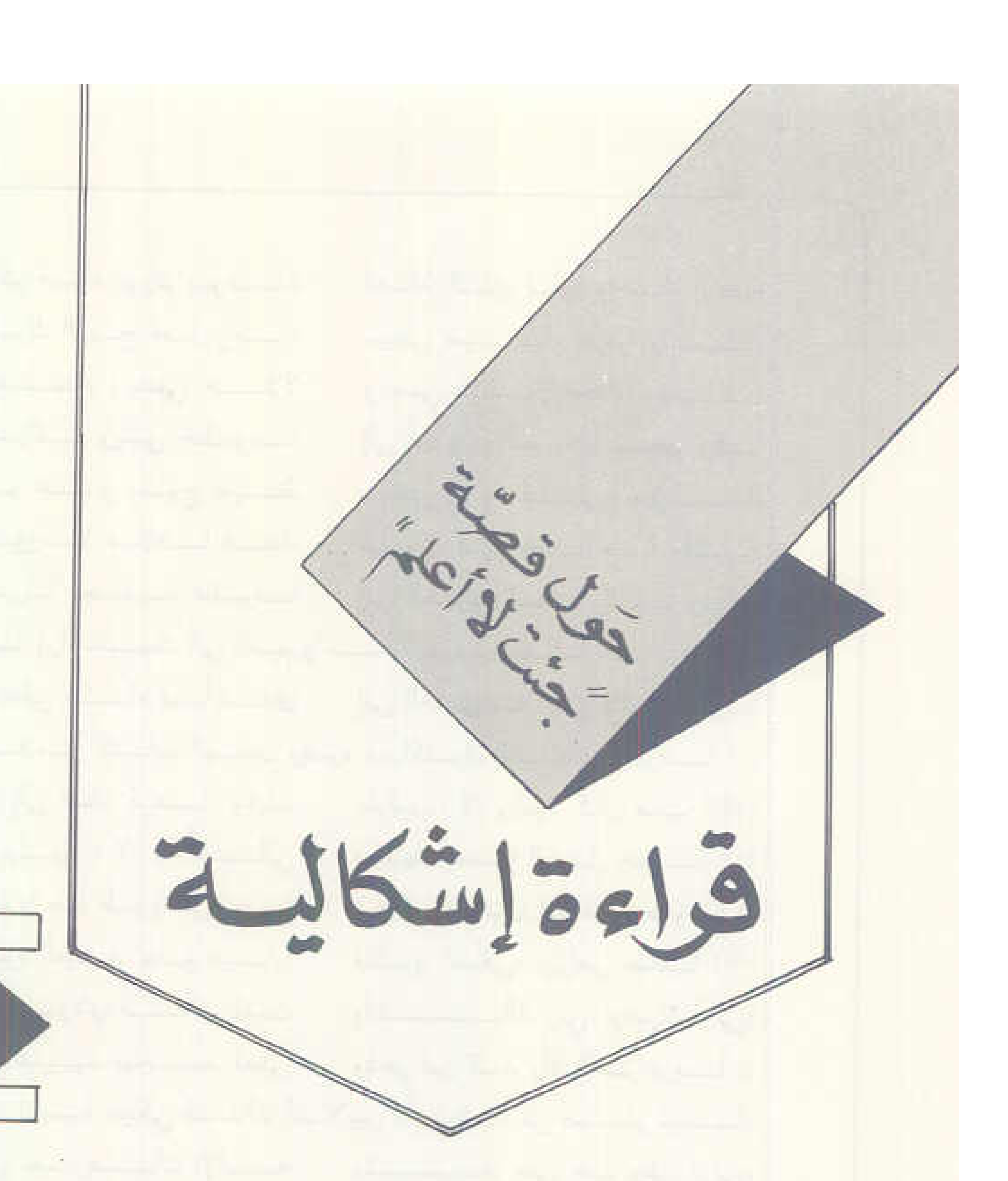
وأســـدل شـــآبيبـــك الصب ربي على من قضى، ونـــدا الـوطن لبى !.

سرسوري عبد القادر

---

2) إشارة إلى قرار محكمة العدل الدولية.

3) الضمير في «رقص» يعود على «نشوة».



حول قصة «جئت لا أعلم»

قراءة إشكالية

الأستاذ سمير أزهري

منــذ حصـولي على شهــادة الإجــازة في الأدب الإنجليزي وسؤال يـسيطر على تفكيري، سـؤال يفرض نفسـه بكـل قـوة على مخيلتي، سـؤال سهـل في تركيبـه اللفظي، ولكنـه يضم بين طيـاتـه معـان لا أقـول خطيرة وإنمـا هي جدية، هذا السؤال هو : ماذا استفدت من ثقافتي الإنجليزية وما علاقة هذه الثقافة بالواقع والأدب المغربي.

من خــلال قراءتي لقصـــة : «جئت لا أعلم» (☆) سأحاول الإجابة على هذا السؤال السهل الممتنع لقد وقع اختيـاري على هـذه القصـة لأن الراويـة والكـاتب والنـاقـد يتقاسمون شيئا واحـدا، ألا وهو حداثـة عهدهم بفن القصة.

فـ «جئت لا أعلم» هي أول قصة تنشر للسيد أحمد كمـال العلمي، وهذا يعني أنها تجربة قابلة للنقاش، قـابلـة للأخذ والرد أكثر من الأعمال الأدبية الأخرى المبنية على تجارب طويلة المدى. الراوية بدورها حديثـة العهد بفن الروايـة، حيث أرادت من خلال «جئت لا أعلم» أن تروح على نفسها فتسـاءلت : «هل أنشد التخفيف عمـا يغمر قلبي من حـزن وأسى، أم أنني أصبو إلى منـاجـاتـك، أيها القـارئ العزيـز، لكي تشاركني عذابي وتعيش معي مأساة نـادرة المثـال ؟» (ص 7)، وهذا النقاد المتواضع يريد، من خلال قراءة روايـة مغربية، أن يجيب على السؤال السالف الـذكر. فمهمتـه، هو الآخر، ليست بـالسهلـة حيث سيحـاول تطبيـق مفـاهيم ومصطلحات إنجليزية على رواية مغربية، ومن هنـا يصدق

(☆) «جئت لا أعلم» : تـأليف أحمد كمـال العلمي ـ نشر وتـوزيـع المكتبـة الشعبية، 4 زنقة غزة، الرباط.

قول الراوية : «سأكتبها لأخفف وطأة هذا الكابوس الذي لم أعد أستطيع أن أحمله وحدي... سأكتب ولو أن هذا الفن غريب عني... فأعف عن هفواتي أيها القارئ الكريم (ص 10). فهذا القول ينطبق على كل من الراوية والكاتب والناقد للأسباب السالفة الذكر، فكل واحد يلتمس عفو ورضى القارئ لأنه يعرف مسبقا أن نتاجه مجرد محاولة وتجربة والقارئ هو الذي له الكلمة الأخيرة.

أعود إلى صلب الموضوع لأقول لقد ارتأيت أن أقوم بهذه القراءة من خلال محورين أساسيين، كل محور يتخذ شكل سؤال، فالقراءة بأكملها هي إذن إجابة على هذين السؤالين :

1 - إلى أي حد يمكن اعتبار «جئت لا أعلم» قصة معاصرة (Modern).

2 - إلى أي حد يمكن اعتبار «جئت لا أعلم» قصة واقعية (Realist).

1 - للإجابة عن السؤال الأول أرى أنه من الضروري أن نحدد مفهوم المعاصرة (Modernism) لكي يتسنى لنا أن نتعرف على مدى معاصرة «جئت لا أعلم».

يعرف «مالكولم برادبوري (Malcolm Bradbury)»، وهو ناقد إنجليزي شهير، المعاصرة بأنها موجة أدبية وفنية تأخذنا إلى ما وراء حقيقة الواقع العادي المتعارف عليه، وبأنها المدرسة التي تقطع الصلة بالوظائف المسلمة للغة، كما أنها لا تعير أي اهتمام إلى القواعد المتفق عليها للأشكال الأدبية (1).

إن التحول الجذري الذي حصل في ميدان الأدب له أسباب تاريخية وسياسية واجتماعية لا داعي للخوض فيها الآن، فالجدير بالذكر أن هذه المدرسة - سواء في ميدان الفن عموما أو في الأدب خصوصا - جاءت لتعطي الحرية الكاملة للأديب والفنان لتفجير طاقته، حيث يحقق ذاته متكاملة، من خلال هذه الحرية.

عندما يصل الكاتب أو الفنان إلى هذا المستوى من الوعي بضرورة تكسير القيود - قيود اللغة والشكل والمضمون - يصبح آنذاك العمل الأدبي أو الفني لا يسعى إلى الوصول إلى حقيقة معينة : لأن هذه الحقيقة لا توجد في العالم والمحيط المعيش بالذات، فبالأحرى في الكتب، بل يسعى إلى تفكيك النص للكشف، عن المتناقضات. إذن، لو أردنا أن نتخذ هذه القاعدة كمنطلق لقراءتنا لـ «جئت لا أعلم» فإنه يجب علينا أن نتجاهل أحداث وموضوع ومضمون القصة ونركز اهتمامنا على اللغة الأسلوب وطريقة الحكي.

سوف تقول لي هذا هراء. كيف يمكن تجاهل كل هذه المسائل والاكتفاء بدراسة اللغة والأسلوب وطريقة الحكي وما كل ذلك إلا وسائل وضعت بالأساس لخدمة جوهر القصة.

كل ما أطلب منك، عزيزي القارئ، هو أن تتمهل وترافقني في تحليلي هذا حتى أبين مزايا ومساوئ هذه المدرسة الأدبية.

1) دراسة أسلوب «جئت لا أعلم».

ماذا أقصد بأسلوب القصة ؟ لا تظن أيها القارئ الكريم أنني سوف أسمعك أسطوانة قديمة طالما سمعناها إبان تعليمنا الثانوي، وحتى الجامعي، في بعض الأحيان، خلال الساعات المخصصة للثقافة العربية، حيث كانت دراسة الأسلوب تقتصر على الشكل الآتي : «أسلوب سهل سلس، أفكار متناسقة، خيال جامع...».

المراد بالأسلوب هنا هو تتبع لغة القصة عن كثب لنرى إلى أي مدى يخدم هذا الأسلوب موضوع القصة، ومدى قدرة هذا الأسلوب على تبليغ الأفكار التي يتضمنها النص. الأسلوب إذن هو بمثابة عربة أو واسطة تقل من خلالها تتابع تطور مجرى الأحداث.

لدراسة أسلوب «جئت لا أعلم» يجب الافصاح أولا عن الفكرة التي يتمحور حولها النص. أن القصة ترصد خطى شابة وتحاول أن تبين التطور السيكولوجي الحاصل في شخصيتها. ننتظر من الأسلوب، والحالة هذه، أن يجسد هذا التطور السيكولوجي، وأن يكون بمثابة مرآة تعكس كل

(1 Malcom Bradbury, Modernism: 1890 – 1930, Penguin Books (Hormondscoorth, 1976).

مرحلة من مراحل هذه الشابة في الحياة. فالأسلوب يجب أن يتغير حسب العمر وحسب المستوى الثقافي والاجتماعي للراوية. لهذا وجب أن يكون أسلوب القصة كالسلم، كل درجة فيه يجسد مرحلة تاريخية معينة من حياة البطلة.

للتفسير، لابد من إعطاء مثال يزكي وجهة نظر النقاد المعاصرين هذه. هذا المثال هو قصة : «ماذا علمت ميزي» (What Maisie Knew) للكاتب الإنجليزي هنري دجيمس (Henry James).

يلاحظ القارئ أن هناك تشابها بين قصة «جئت لا أعلم» وقصة «ماذا علمت ميزي» من حيث العنوان. هذا التشابه لا يقتصر على العنوان فقط بل يتعداه إلى محتوى القصة بأكملها. لهذا السبب سأعمد إلى «ماذا علمت ميزي» في كثير من الأحيان للمقارنة.

شأنها شأن «جئت لا أعلم» تتبع القصة الإنجليزية التطور السيكولوجي لطفلة من أبوين مطلقين نتج عن هذه الوضعية أن أصبحت الطفلة «ككرة مضرب تمر من مضرب إلى آخر» (2) أي أن كل واحد منهما يأخذها للعيش معه بضعة شهور، فتركت هذه الحالة بصمات على شخصية «ميزي» التي حاول الكاتب أن يصور تطورها السيكولوجي في هذه القصة. هذا التطور الذي أطلق عليه الكاتب : «نمو شجرة البلوط الكبيرة» (3). ماذا يقصد الكاتب بهذه الاستعارة ؟ أنه يريد أن يصور التغيرات والتحولات الطارئة ليس على شكل الطفلة ولكن على عقلها. هنا كذلك يلتقي الكاتبان المغربي والإنجليزي : السيد أحمد كمال العلمي اتخذ حديثا شريفا كافتتاحية (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) وهنري دجيمس يعتبر العقل بمثابة «صفحة بيضاء» تكتب عليها تجارب الفرد. وهكذا فإن الترجمة هي التي تحدد سلوك وأخلاق وأعمال الفرد في المجتمع، كما يحدد الأبوان شخصية وهوية الطفل.

بعد هذه المقارنة القصيرة، نعود إلى أسلوب «ماذا علمت ميزي» لقد جعل هنري دجيمس الأسلوب من إحدى الوسائل الأساسية لتصوير التطور السيكولوجي للطفلة. كيف ذلك ؟ لقد جعل من «ميزي» محور الحكي (The centre of consciousness) أي أن الأحداث تروى أو تقدم من وجهة نظر الطفلة كما هو الشأن تقريبا بالنسبة لقصة «جئت لا أعلم».

في القصة الإنجليزية خدم الأسلوب الرواية كثيرا حيث أنه كان يتدرج من السهل إلى الصعب ليس فقط من ناحية الألفاظ والمفردات بل كذلك من ناحية التراكيب الإعرابية والنحوية للجمل. هذا التدرج الذي هو رهين بعمر وتجارب ومحيط البطلة. لو كان المقام يسمح هنا لوضعت أمامك نصين الأول من مطلع القصة والثاني من نهايتها لتقارن التطور الحاصل في الأسلوب الذي يصاحب بشكل متوازي التطور الحاصل في الشخصية.

للأسف الشديد، لا يوجد شيء من هذا القبيل في «جئت لا أعلم» بحيث أن الأسلوب يبقى على نفس الوتيرة والإيقاع منذ بداية القصة إلى نهايتها، رغم أن موقف الراوية تغير من مجرد ناظرة إلى الأحداث إلى مشاركة في صنع الأحداث كما هو شأن «ميزي». وللبرهنة، يمكنك أن تعيد ترقيم الفصول بطريقة عشوائية لتكتشف أن أسلوب هذه الفصول لم يتغير. ومن هنا نستخلص قصور الأسلوب على مواكبة المحتوى حيث استعمل فقط كوسيلة للتبليغ وليس عاملا أساسيا يزيد في ترسيخ وتبيان المشكل القائم.

النقطة الثانية المرتبطة بالأسلوب هي يطلق عليها النقاد الإنجليزي : «أسلوب العقل»... (mind style). لا بأس من تعريف هذا المصطلح قبل مناقشة «جئت لا أعلم».

يعرف الناقد الإنجليزي روجي فاولر (Roger Fowler) هذا المصطلح في كتابه «اللسانيات والرواية (Linguistics Se the Novel) فيقول :

«إن مصطلح أسلوب العقل وضع للإشارة إلى أي تقديم لغوي مميز للذهن. بهذا يمكن «لأسلوب العقل» أن

(2 Henry James, What Maisie Knew, Penguin Books (Hormondscoorth, 1897). P.5.

(3 Ibid. P.5.

يحلل الحياة الذهنية والعقلية لشخصية ما... كما أن بإمكانه أن يهتم بهيئة وحالة العقل سواء كانت هذه الحالة سطحية أو جوهرية. بالإضافة إلى هذا يمكن «لأسلوب العقل» أن يصور نظام وبنية الأفكار المستمدة وجودها من الشعور، أو يقدم المواضيع التي تشغل بال الشخصية، أو أن يظهر المشاغل والأحكام المسبقة (Prejudices) والقيم التي تتحكم في نظرة الشخصية الروائية إلى العالم. والجدير بالذكر أن الشخصية تجهل أن هذه العوامل هي التي تحدد وجهة نظرها إلى الحياة والعالم (4).

معنى هذا أن لكل شخصية أسلوبا يميزها عن الشخصيات الأخرى. فمن خلال دراسة أسلوب شخصية ما يمكننا أن نتعرف على المستوى الثقافي والانتماء الطبقي والسياسي لهذه الشخصية، وذلك من خلال نوعية المفردات والتراكيب الإعرابية واللفظية المستعملة.

نعود إلى «جئت لا أعلم» في محاولة للتنقيب عن الحالات التي أستعمل أو لم يستعمل فيها «أسلوب العقل». لقد قارنت أسلوب الشخصيات الآتية : الراوية، الجدة، الأب فلم أعثر على خاصية تميز الأول عن الثاني والثاني عن الثالث. أن أسلوب برمته واحد سواء كان الأمر متعلقا بالسرد أو بالخطاب.

تقول الراوية : ذات يوم منحتني جدتي كيسا من الزرع وأمرتني بالذهاب به إلى المطحنة. وعند وصولي إلى المكان المذكور، تسلم مني الطاحوني الكيس حيث وضع عليه رقما معينا ثم ناولني نظير ذلك الرقم في ورقة تمكنني من تسلم الكيس عند انتهاء العملية (ص 29).

وتقول الجدة : ليس عندنا حب في البادية، ولا حق للفتاة أن تعارض اختيار أبيها ولو أدى ذلك بها إلى زواجها من عفريت. الحب عيب في هذا الباب، ولا تدعيه إلا العاهرات. ثم أن ابن عمك رجل محترم وله مكانة في المجتمع. هل تعرفين مهنته ؟ أنه من رجال الدرك، يهابه الناس عندنا ويتمنون مودته. أنه يمثل «المخزن» والمخزن هو كل شيء (ص 130).

ويقول الأب : استمع إلي يا بني. نحن من البادية وأنت من المدينة، فمن الصعب أن يحصل التفاهم بينك وبين ابنتي من جهة، وبينك وبين باقي أفراد العائلة من جهة ثانية. ثم لابد أن أخبرك بشيء آخر ربما يدفعك إلى التخلي عن هذا المشروع. أن لابنتي خطيبا من بلدها قد تقرر زواجها بها منذ أن ولدت، ولا يمكنني أن أنقض وعدي بأي حال من الأحوال (ص 127).

هل يتوفر أي نص على خاصية ما تميزه على النصوص الأخرى ؟ هل يلقى أي نص الضوء على شخصية صاحب الخطاب ؟ هل يوجد فرق بين النص السردي والنصوص الخطابية ؟ هل يصور أي نص طريقة تفكير وبنية عقل الشخصية ؟ هل توجد في أي نص آثار لما يحدد تفكير الشخصية الباطني ويتحكم في سلوكها ومعاملاتها الاجتماعية ؟

لا تجيبنا هذه النصوص على أي سؤال من هذه الأسئلة. لماذا ؟ لأن «جئت لا أعلم» اعتمدت أسلوبا واحدا في الحكي. فأسلوب البطلة والجدة والأب لا يختلف لا من ناحية الألفاظ والمفردات ولا من ناحية القواعد التركيبية الإعرابية.

إذا أخذنا بعين الاعتبار المستوى الثقافي والانتماء الطبقي والوسط الاجتماعي لكل شخصية على حدة فإنه كان من المفروض أن يوجد اختلاف في أسلوب الخطاب كما هو الشأن في أسلوب المعاملة اليومية والانفعالات اللاشعورية.

باعتبار أن الراوية ذات ثقافة متوسطة (السنة الثانية من الثانوي) فإن الكاتب أمدها بالأسلوب الملائم (أسلوب

---

4) Roger Fowler, Linguistics Se the Novel, Methuen (London, 1977). P.103.

سهل، خال من المجاز والطباق إلى غير ذلك من الصور البلاغية التي عودنا عليها أئمة الأدب العربي)، وهكذا قدم الكاتب للراوية الحلة التي لا يمكن أن يرتديها سواها. أما أسلوب الشخصيات الأخرى فإنه لا يخدم هذه الشخصيات البتة لأنه غير نابع من حقيقتها. الجدة مثلا تتكلم العربية الفصحى وتحترم قوانين التنقيط من نقط وفواصل وعلامات الاستفهام. فكل هذه الأشياء تجهلها الجدة لأنها امرأة أمية، فكان من اللازم أن يكون أسلوبها مرآة تعكس أميتها وجهلها القوانين الكتابة. ما قيل في حق الجدة ينطبق على الأب كذلك.

حبذا لو كتب خطاب الأب والجدة بالدارجة أو تضن على الأقل بعض المفردات والجمل باللغة العامية، ليزيد من واقعية الموقف من جهة وليصور عن كثب الشخصية المغربية الأمية من ناحية أخرى.

ترى ما المانع ؟ المانع هو تشبث الكتاب والنقاد العرب باللغة العربية إلى درجة التقديس. أعرف أنه إذا كتب الكاتب، لا أقول كل الخطاب، بل جزءا أو فقرة منه بالدارجة، فإن النقاد سوف يلومونه على هذه البادرة. لقد حاول بعض الكتاب المصريون تكسير هذه القيود وإقحام العامية في الحكي، إلا أن محاولتهم باءت بالفشل.

إن هذا النوع من الكتابة أصبح مسلما به ليس فقط في الرواية الإنجليزية بل كذلك في الرواية الفرنسية والإسبانية... فلم لا العربية والمغربية ؟

ب) نصل الآن إلى الشطر الثاني من جوابنا عن السؤال : إلى أي حد يمكن اعتبار «جئت لا أعلم» رواية معاصرة ؟ وهنا نقترح أن نتحدث عن السرد في الرواية.

في كتابه «البلاغة في الرواية» (The rhetoric of fiction) قدم لنا «وأين س بوث (Wayne C. Booth) دراسة قيمة عن فن السرد. لقد عرف الراوي بأنه ذلك «العقل الخبير الذي تقف نظرته إلى التجربة بيننا وبين الأحداث» (5). بعبارة أخرى : كل حكاية لابد أن تمر عبر

5) Wayne C. Booth, the Rhetoric of Fiction, The University of Chicago (London, 1961) P.152.

ذهن راوي. ويذهب إلى أبعد من هذا فيقول أنه لا توجد حكاية أو سرد محايد وموضوعي. فكل راوي يحكي من وجهة نظره هو، يكشف النقاب عما أراد ويخفي ما أراد من الأحداث. وهكذا يميز الناقد بين عدة أصناف من الرواة، منهم من يكون مشاركا بصفة مباشرة في الأحداث، ومنهم من يبقى على هامشها للتعقيب، فيختلف هؤلاء الرواة حسب «درجة ونوع المسافة التي تفصلهم عن الكاتب والقارئ والشخصيات الأخرى للرواية (6).

نعود فنقول : ما هو دور الراوية وما هي أهمية السرد في «جئت لا أعلم».

الراوي الوحيد للقصة هي البطلة، فهي بهذا تمثل ذلك «العقل الخبير الذي تقف نظرته إلى التجربة (معاناتها في الحياة) بيننا وبين الأحداث»، أي أن القصة بأكملها مقدمة من وجهة نظر واحدة، تقدم لنا الشخصيات كما تراهم هي أو كما أحبت أن نراهم نحن، إنها إذن تتحكم في عاطفة القارئ وتجعله يرى بعينيها ويسمع بأذنيها، يحب من أحبت ويكره من كرهت، هدفها في هذا كله أن تكسب عطف ورضى وعفو القارئ : عطف لما قاسته من مآسي ورضى عما قامت به من أعمال تستحق الثناء وعفو عن مواقف تستحق التوبيخ.

السؤال الذي يجب طرحه هنا هو : هل تستحق أن يعطيها القارئ ثقته ؟

إذا أخذنا بعين الاعتبار قول وأين س بوث (Wayne C. Booth) ويسانده في هذا فولر (Fowler)، بعدم وجود نص محايد وموضوعي، يصبح من البديهي أن نشك في أقوالها. فنحن كقراء حريصين أن نصل إلى نظرة إجمالية ومتعطشين إلى الوصول إلى كنه المشكل، نرى أن سرد الرواية غير كاف لإرضاء فضولنا. فلكي لا يقع القارئ فريسة في يد الراوية، كان من الأفضل أن تخصص بعض الفصول لشخصيات أخرى تروي الأحداث من وجهة نظرها. إذ ذاك يكون القارئ مجبرا على التعامل مع القصة من عدة زوايا. فالحقيقة لا توجد في خطاب شخصية واحدة بل

6) Ibid P.155.

تكون نتيجة تمعن وتمحيص في كل الأقوال.

لقد اعتمد هذه الطريقة جل الكتاب المعاصرين لأنها تجعل من القارئ عضوا نشيطا يكره الاستسلام والاستكانة ويرفض الأحكام الجاهزة، لأنه قدر من خلال قراءته للنص أن يصدر حكمه عن اقتناع. فهو بهذا يخدم النص نفسه، وذلك بإغنائه حيث يصبح للنص ليس معنى واحدا فحسب، بل عدة معاني وأبعاد وذلك بتعدد القراء.

مظهر آخر من مظاهر المعاصرة في «جئت لا أعلم» هو ما يمكن تسميته اصطلاحيا بـ «مجرى الوعي أو الضمير» (Stream of consciousness).

سعيا منه للتقرب أكثر من الشخصية والتعرف على حالتها النفسية والعقلية، يغوص بنا الكاتب في ذهن هذه الأخيرة لنشاركها الأفكار المبعثرة التي تشغل بالها. فذهن الشخصية يتجول ويتنقل من موضوع لآخر، وذلك مرتبط بعدة عوامل داخلية وخارجية. تكون الشخصية، مثلا، تفكر في القيـــام بعمل لتعلن عن خبر سيء، فخلال ثواني معدودات يسرح الفكر ليستعرض أحداثا سابقة. فـ «جئت لا أعلم» مليئة بالمواقف التي استعمل فيها «مجرى الضمير»، وأكتفي بمثل واحد لتبيان أهمية هذه التقنية. تقول الراوية :

فإذا بابني الصغير يصبح وهو يتجه نحوي :

- ماما..... ماما.....

استيقظت من غفوتي وكأن هذه الكلمة البسيطة تحولت إلى خنجر حاد صوب إلى فؤادي فمزقه شر تمزيق. فتحت ذراعي لابني الصغير وبادلته القبل ثم تركته يتابع لعبه وبدأت أحاديب نفسي على هذا الشعور الغريب الذي غمرني عند استماعي لكلمة «ماما»، فسرحت بفكري في الماضي القريب والبعيد فلم أذكر أنني اتيحت إلي فرصة التلذذ بكلمة «ماما» منذ أن شعرت بوجودي على البسيطة... «أين أمي ؟ أين أبي ؟ بل أين صباي ؟ هل خلقت بلا أهل وعشت بدون صبا ؟ (ص 9).

هنا كلمة «ماما» جعلت فكر الراوية يتيه في الماضي البعيد، حيث كانت السبب المباشر في تذكير البطلة في صباها وفي طفولتها الخالية من كل عطف وحنان. فكلمة «ماما» وما تتضمنه من معاني الحب والعطف والشفقة جعلت ذاكرتها تستيقظ وتعود بها إلى الوراء للتأمل في حاضرها والبكاء على ماضيها المشحون بالشقاء والعذاب النفساني والجسماني. فمن خلال تقنية «مجرى الضمير» استطعنا - ونحن لم نتعد الصفحات الأولى - أن نكون صورة مصغرة عن طفولة الراوية.

قبل أن أختم الحديث عن مسألة المعاصرة في «جئت لا أعلم» أود أن أطرق إلى نقطة مهمـــة وهي أن الوصف يرتدي في هذه الرواية حلة جديدة حيث أنه خرج عن الإطار التقليدي، وبذلك حقق الكاتب خطوة نحو الرواية المعاصرة التي تخضع لمتطلبات الحاضر.

بعبارة أخرى، لقد استطاعت الرواية أن تتخلص من ذلك «الوصف المنفلوطي» الذي لا يخدم النص في شيء سوى الزخرفة اللفظية المراد منها الرنة الموسيقية لاستمتاع الأذن قبل العقل.

النقطة الثانية التي حققها وصف «جئت لا أعلم» تكمن في تركيزه على الحالة النفسية للشخصية وتجاهله للحالة الخارجية التي لا يتعدى وصفها بضع كلمات، بعكس ما تعودناه في القصص التقليدية حيث يستغرق الوصف الخارجي للشخصيات صفحات متعددة. وكمثال على هذا أقدم وصف الجدة كما جاء على لسان الراوية :

كانت جدتي طويلة القامة، كبيرة الحجم، سمراء اللون، لها قلب من حجر ويد من حديد لا تسمح للسانها أن يسبقها فـ «تقنع» بالضرب قبل الشتم وينبعث من عينيها شرار يضاهي البرق حين يشتد الرعد في ليالي الشتاء المرعبة (ص 12).

رغم صغر حجم هذا الوصف فإنه يسلط الضوء على شخصية الجدة. فمن خلال دقته يمكننا أن نستشف الخصائص الأساسية لهذه المرأة : القساوة، العنف، الطغيان....

إن هذا الوصف يخدم الرواية إذ يساعد القارئ على معرفة الحالة النفسية لهذه الشخصية بعكس الوصف الدقيق

للملابس والأدوات المنزلية... كل ذلك لا يخدم الرواية في شيء سوى مـلء الفراغ حيث يقف السرد الروائي تـاركـا المجال لهذا النوع من الوصف الأجوف.

2 - نصل الآن إلى السؤال الثاني الذي يتمحور في مدى واقعية رواية «جئت لا أعلم».

في البـدايـة يجب التعريف بـالروايـة الـواقعيـة وخصـائصهـا. فحسب المعجم الإنجليـزي للمصطلحـات الأدبية (7) فإن كلمة الواقعيـة تطلقب، في تـاريخ الأدب، على محاولة القصة، في القرن التـاسع عشر، أن تكون صورة طبق الأصل للواقع المعيش. فمن ثم اهتمت بـالتصـوير الدقيق للجزئيات، وسيرا على هذا المنوال، اعتمـدت الـدقـة والكمـال في الوصف. إلا أن الواقعيـة صـادفت في طريقهـا مشكلتين أسـاسيتين :

1) من النـاحية التقنية أصبحت التفـاصيل المـادية والدقـة «الطبغرافيـة» تستحوذان على القصـة، وبهـذا فقدت قيمتها كعمل فني فأضحت ينظر إليهـا على أسـاس أنهـا لا تتجاوز قيمة مرشد سياحي أو وثيقة اجتماعية.

ب) المشكـل الثـاني يتجلى الخلط الـذي وقـع بين الفن والتـاريـخ وعلم الاجتمـاع حيث أصبـح من العسير أن يفرق الإنسان بين هاته الأشكال.

من خصائص الرواية الواقعية أن يوهم الكاتب القـارئ بأن القصة حقيقية وأن أحداثها ومشاهـدهـا وإطـارهـا العـام ليسوا فقط منبثقين من الواقع بل يكونون صورة للواقع.

بالإضافة إلى هذا فهي من خلال الوصف الدقيق تـريد أن توهم القـارئ بـأن الشخصيـات لهـا وجود خـارج الإطـار الفني الذي خلقت فيه، فهي بهـذا تتعـامل مع الشخصيات على أنهم أشخـاص ومع المواقف الخيـاليـة على أنهـا حقيقـة صادرة عن عقل سليم يتحمل مسؤولية اختياراته.

كمـا يلجأ الكـاتب في هـذا النـوع من الروايــة إلى أسلوب التشويق وذلك باختلاق العقد والسكوت عن الأشيـاء التي يمكن أن توضـح الحقـائـق. كمـا أنـه يرتب الأحـداث بشكل يقود إلى نوعيـة النهـايـة التي يريـدهـا هو، فتصبح الشخصيات كالكراكيز يديرها بأصابعه ويتحكم في أفكارها وسلوكها وانفعالاتها.

بعـد هـذا التعريف القصير، نحـاول الآن الإجـابـة عن السؤال المطروح.

تقول الراوية في مطلع القصة : «...ولكن عزمي على الكتابة كـان ضئيلا إذ لم يسبق لي أن حـاولت الغوص في هذا الميدان الـذي أعتبره بحرا لا يغوص فيـه إلا من كـانت له القدرة الكافية على اتقان فن الرواية وإغراء القـارئ على المضي معه في دروب المغامرة والتشويق» (ص 8).

هـذا يعني أن مفهوم القصـة عنـد الراويـة ينبني على «إغراء القـــارئ على المضي.... في دروب المغــامرة والتشـويق». ولا أدري إن كان الكـاتب يشاطرهـا هـذا الرأي أم لا. فمفهـومهـا هــذا لفن الروايــة انعكس على مجرى الأحداث. سعيا منها في كسب ثقة القارئ، فـإنهـا اعتمـدت أسلـوب التشـويـق إلى درجـة أن بعض الأحـداث ينقصهـا الاقناع، كما أن اظهارها لبعض الشخصيات كان الغرض منه بالأسـاس خدمـة عقـدة الروايـة. فلنرى عن كثب الأحـداث والشخصيات في : «جئت لا أعلم».

مناقشة أحداث الرواية :

تتكـون القصــة من أربعين فصلا يكــاد لا يخلـو أي واحد منها من مشكل عانت منه البطلة الشيء الكثير. سعيـا منها أن تظهر بمظهر الضحية التي لا حول لها ولا قوة، فقد عمدت إلى تصعيد عدد المشاكل إلى درجة أن القارئ أصبح يشد أنفاسه من شدة الضغط، فتناست بـذلـك أنـه يمكن أن يكـون لهـذا رد فعـل عكسي لأنهــا لم تترك للقـارئ وقت استراحـة بين المشكل والمشكل لاسترجـاع أنفـاسـه، فحتى في الروايات والمسرحيات التراجيدية نجـد الكـاتب يعمـد إلى تقنيـة «التفريج الكوميـدي» (comic relief) ليخفف على القارئ وطأة المشـاكل ويترك لـه الوقت لاستعادة أنفـاسـه حتى يمكنه أن يتابع القصة أو المسرحية. أما في «جئت لا أعلم»، فـإن القـارئ لا يكـاد ينتهي من مشكلـة حتى يجـد

---

7) Roger Fowler, A Dictionary of Modern Critical Terms, Routledge & Kegon Paul (London, 1973) P.155.

نفسه أمام مشكلة أخرى تفوقها حدة وخطورة.

دراسة الشخصيات :

سأقتصر في هذا الباب على البطلة لأنها هي الراوية والشخصية المحورية في الرواية.

البطلة شابة في مقتبل العمر، مرهفة العواطف، رقيقة الإحساس، شاءت الأقدار أن تذيقها مرارة العيش منذ الصبا. حرمت من حب وعطف الأبوين، ذلك الحب الذي يساعد على التوازن في الشخصية وذلك العطف الذي يجعل الإنسان سموحا، رؤوفا بالآخرين، ومما زاد في الطين بلة، جهلها للحياة، وبراءتها الملائكية، فأصبحت بذلك ألعوبة تتقاذفها أيادي أناس لا شفقة ولا رحمة في قلوبهم فتقع فريسة لذئاب جائعة تركت مخالبها جروحا في نفسيتها لم يستطع الزمن تضيدها. إنها من هذه الوجهة تشبه بطلة «ماذا علمت ميزي» التي سبقت الإشارة إليها. فكلا القصتين تدور حول مدى فهم البطلة للحياة ومدى استفادتها من التجارب القاسية التي مرت بها.

فهذا التشابه في المحتوى وافقه تشابه في التقنية. ففي قصة «جئت لا أعلم» المصدر الوحيد للمعلومات هو البطلة حيث تروي الأحداث كما علمتها وكما عايشتها. وفي قصة «ماذا علمت ميزي» نرى الأحداث ليس من خلال أعين البطلة ولكن نتتبعها بأعيننا من فوق كتف «ميزي»، على حد تعبير الكاتب.

لقد لعب الأسلوب في «ماذا علمت ميزي» دورا رئيسيا حيث من خلاله استطعنا أن نتعرف على مدى قدرة «ميزي» على فهم الواقع، وهكذا طرح «هنري دجمس» معادلة : إذا كان الأسلوب يعكس الواقع، وإذا كان أسلوب «ميزي» أسلوبا محدودا، فإنه بات من البديهي أن يكون عالمها وواقعها محدودين. لهذا، فهو يبين من خلال أسلوبها درجة فهمها لهذا الواقع بل، أكثر من ذلك، ما لم تستطع فهمه من هذا الواقع.

ومن أوجه التشابه بين القصتين نجد أن الكاتبين معا اعتمدا ما أسماه «فريدريك دجيمسون» : « reification » (Frederick Jameson)، وهو مصطلح أطلقه على سلب الفرد لشعوره وإحساسه ليصبح مجرد شيء جامد (ألعوبة) فيغدو مثار ضحك وفضول الآخرين. ينطبق هذا القول على كل من «ميزي» وبطلة «جئت لا أعلم». «فميزي» جردتها الشخصيات المحيطة بها من إحساسها كطفلة بل عوملت كأنها جماد ينقل من مكان لآخر دون مراعاة شعورها كما هو شأن بطلة «جئت لا أعلم».

هذا، وان تتبعنا، ولو بعجالة، التطور السيكولوجي في «جئت لا أعلم»، وذلك بالوقوف عند المنعطفات الرئيسية التي تشكل نقط تحول في تفكير وسلوك البطلة، مشيرين فقط إلى بعض الأحداث والمواقف التي لها دلالة معينة، يمكننا الان نلاحظ ما يلي :

تبدأ القصة وتبدأ معها مشاكل الراوية. السؤال الذي يجب طرحه هنا فحواه : ما هو موقف الراوية، وهي لا زالت طفلة، من هذه المشاكل ؟ فباعتبار أن الراوية طفلة بريئة تنقصها التجربة فإنه من البديهي أن يكون موقفها استسلاميا، فتقبل الضرب والشتم وكأن هذا كله قضاء وقدر وجب عليها أن تخضع له. ثم تلجأ إلى الحل الذي يعمد إليه كل مستضعف لا حول له ولا قوة، ألا وهو الانزواء في عالم الخيال كبديل لهذا الواقع المر والمشحون بالقساوة.

لا غرابة إذن أن تجد الراوية في القصص ملجأ وعزاء لشقائها في الواقع : «كنت أقتصر على الإجابة في القسم، وعند رجوعي إلى البيت أنزوي إلى مكان نومي وأغرق نفسي في المطالعة... مطالعة القصص الحزينة عساني أجد فيها عزائي مع أناس معذبين في الأرض مثلي (ص 34).

مع مرور الأيام أصبحت الراوية تعلم وتتقن شيئا فشيئا «قوانين اللعب» في هذه الحياة وأدركت أن الواقع مبني على الغش والكذب والتملق. كان هذا أول شيء تعلمته من الحياة، فلما أتيحت لها الفرصة في الغش في الامتحان لم تتردد في ذلك.

لا يمكن للقارئ أن يؤاخذها على هذا التصرف لأنها أولا وقبل كل شيء وليدة البيئة المحيطة بها، فالفاقة والتجارب المأساوية التي مرت بها وقساوة الناس هي التي

حتمت عليها أن تقبل الغش كسبيل إلى الخلاص من إطارها الضيق المتعفن. لقد علمتها الحياة أن تعامل الناس بنفس الأسلوب الذي يتعاملون به في المجتمع، بحيث أن معاملاتهم كلها مبنية على الغش والكذب.

ويتجلى هذا النضج السيكولوجي كذلك في وضع الأسئلة حيث لا تكاد تخلو صفحة من صفحات الشطر الثاني من تساؤلات الراوية عن صدق ومغزى الحياة وعن الدوافع التي تكمن وراء تصرفات الناس اللا أخلاقية واللادينية أين المروءة ؟ أين الشهامة ؟ أين الاعتراف بالجميل ؟ أين الحب بل أين الشفقة والرحمة ؟ أليس لهذه الكلمات كلها معنى ؟ لماذا ابتكرها الإنسان وتفنن في تنسيقها ؟ أليوهم الآخرين بوجودها دون أن يطبقها على نفسه ؟ هل معناها في قاموس الدنيا عكس ما تعرف به القواميس المكتوبة ؟ (ص 207).

جاءت الراوية بريئة إلى هذا العالم، لا تعلم شيئا، فعلمتها الحياة أن الرحمة والشفقة ألفاظ لا يوجد لها تفسير في القاموس المتداول بين الناس. فالكلمة الواحدة التي لا زالت لها معنى هي القساوة : «ما أعظم قساوة الإنسان ! يظلم... ويتحدى... ثم في الآخير يتلذذ بعذاب ضحيته ويذكي فيها نار الحرمان. إنه الجفاف القاتل الذي يكتسح قلبه فيجعله أصلب من الصخر وأبرد من الثلج ! (187/186).

قبل أن تسدل الستار على هذا الجزء من حياتها تتساءل الراوية : من أنا ؟ لماذا جئت إلى هذه الدنيا ؟ لماذا وجدت في هذا البيت ؟ (237).

كل هذه الأسئلة تبين مستوى النضج الفكري الذي وصلت إليه الراوية. فوضع الإنسان لسؤال «من أنا» يشكل نقطة تحول كبيرة في حياته. قال طوني طينار (Tony Tanner) واضع مقدمة كتاب «أنانية وأحكام مسبقة» اعتزاز وتعصب (Pride and Prejudice) للمؤلفة الإنجليزية دجين أوستن (Jane Austen) الإنسان الذي لم يتساءل قط عن ماهيته وهويته سوف يبقى إلى الأبد منفصلا عن المعرفة والحقيقة. فوضع سؤال «من أنا» يعد بداية مرحلة حاسمة في تاريخ الفرد تؤهله إلى معرفة العالم المحيط به» (8).

سمير الأزهر

---

(8) Jane Austen, Preide Se Prejudice, Penguin Books (Hormondscoorth, 1813) P.16.

نداء إلى أساتذتنا وعلمائنا

مجلة دعوة الحق مقبلة على تطوير موضوعاتها وتجديد شكلها استجابة للدور المسؤول والهام الذي تضطلع به بلادنا نصرة لقضايا الامة الاسلامية ودفاعا عن توجهاتها المصيرية.

واذا كان الفكر الاسلامي الذي انشأ حضارة انسانية اعطت للعالم ينابيع متدفقة لا ينضب معينها ارشدته الى الطريق الضامن لتقدمه وتطوره في اجواء يهيمن عليها الهدوء النفسي، وتطبعها الفضيلة والاخلاق المثلى، فان من آكاد الواجبات على مثقفينا ومفكرينا ان يوالوا الاسهام الجاد والمبدع في المسيرة التي تنهض بها امتنا الاسلامية في مختلف اصقاع العالم لكي يبقى عالمنا الاسلامي عالما تظلله الحكمة والفضيلة والتعاون والوئام.

ودعوة الحق وهي توجه هذا النداء الفكري الى اساتذتنا وعلمائنا لتنتظر منهم المشاركة المتواصلة على صفحاتها في مجال الفكر والثقافة الاسلاميتين.

نداء إلى أساتذتنا وعلمائنا

مجلة دعوة الحق مقبلة على تطوير موضوعاتها وتجديد شكلها استجابة للدور المسؤول والهام الذي تضطلع به بلادنا نصرة لقضايا الامة الاسلامية ودفاعا عن توجهاتها المصيرية.

واذا كان الفكر الاسلامي الذي انشأ حضارة انسانية اعطت للعالم ينابيع متدفقة لا ينضب معينها ارشدته الى الطريق الضامن لتقدمه وتطوره في اجواء يهيمن عليها الهدوء النفسي، وتطبعها الفضيلة والاخلاق المثلى، فان من آكاد الواجبات على مثقفينا ومفكرينا ان يوالوا الاسهام الجاد والمبدع في المسيرة التي تنهض بها امتنا الاسلامية في مختلف اصقاع العالم لكي يبقى عالمنا الاسلامي عالما تظلله الحكمة والفضيلة والتعاون والوئام.

ودعوة الحق وهي توجه هذا النداء الفكري الى اساتذتنا وعلمائنا لتنتظر منهم المشاركة المتواصلة على صفحاتها في مجال الفكر والثقافة الاسلاميتين.